محمد عطية الإبراشي



ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد فريد بالقاهرة

روح الإسلام

محمد عطية الإبراشي

الطبعة الأولى

١٩٦٤

ملتزم الطبع والنشر

مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد بك فريد (عماد الدين سابقا)

مطبعة لجنة البيان العربي
٢٧ [illegible]
ت ٢٧٠٧٩



المؤلف وهو فى الخامسة والستين من عمره

بسم الله الرحمن الرحيم

و به أستعين

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد النبي الأمين ، وعلى آله وصحبه أجمعين . و بعد فقد درست التوراة[1] والتلمود[2] والمشنا وغيرها في ديانة موسى ، في أثناء دراستي للغة العبرية وآدابها بمعهد اللغات الشرقية بلندن ، ودرست الإنجيل والديانة المسيحية في أثناء دراستي للغة السريانية بكلية الملك بجامعة لندن ، كما درست قبلهما الدين الإسلامي والفقه والحديث ، والتفسير والتوحيد بتوسع في الأزهر الشريف ، وفي دار العلوم . و بهذه الوسيلة أتيحت لي الفرصة للموازنة بين هذه الأديان السماوية الثلاثة . وكانت هوايتي القراءة والبحث طول حياتي .

وقد قرأت كثيراً من الكتب الإنجليزية عن الإسلام والرسول والقرآن الكريم ، فلمست التعصب الديني في معظمها ، وتشويه الحقائق والتضليل في أكثرها ، ورأيت الحق يصور بصورة الباطل ، والنور يحول بالدعاية الكاذبة إلى الظلام الحالك . فتأثرت مما قرأت ، وتألمت لهذا التعصب الأعمى ، من

---

(١) التوراة : هي الكتب الخمسة التي أنزلها الله على سيدنا موسى ، وهي سفر التكوين ، وسفر الخروج ، وسفر اللاويين ، وسفر العدد ، وسفر التثنية .

(٢) التَّلمود : من أهم الكتب الدينية التي يعتمد عليها علماء بني إسرائيل ، وبه كثير من القوانين والبحوث الدينية ، وأحوال اليهود وأخلاقهم ، وتقاليدهم وعاداتهم وتاريخهم . ويحتوي التلمود على عنصرين هما : المتن والشرح ، ويسميان : « المِشْنَا » أي ما يحفظ عن ظهر قلب ، وتشتمل على أحكام دينية خاصة (ارجع إلى كتاب : الآداب السامية للمؤلف).

كتّاب زعموا أنهم دينيون ، والحق أن الكاتب أو الباحث يجب أن يكون منصفا نزيها ، بعيدا عن التعصب الدينى ، والتأثر بالأهواء الطائفية ، أمين الضمير ، متوخّيا[1] الحقيقة ، يبحث عنها أنّى وجدها ، مبعدا نفسه وبحثه عن الروح التبشيرى الذى يمليه التعصب ، وضيق العقل ، مجرّداً نفسه عن الميول الشريرة ، والنزعات الخبيثة ، واهبا عقله وقلبه وعاطفته ، وقلمه ولسانه ، للحق والحقيقة ، حبا للإنصاف والنزاهة ، والبعد عن الهوى والغرض ؛ لإعطاء كل ذى حق حقه ، والسير بالدراسة العلمية الدينية فى طريق العلم ؛ للوصول إلى الحقيقة الثابتة البعيدة عن الأغراض ؛ حتى يدرك الباحث المدقق سمو روح النبى العربى وعظمته ، ويفهم حياة أعظم إنسان قد بعثه الله رحمة للعالمين ، من خير أمة أخرجت للناس .

ويجب على الكاتب أن يبحث عن الحق للحق ذاته ، وعن المعرفة للمعرفة نفسها ، مراعيا الدقة فى البحث ، والتمحيص فى الاستنباط ، والأمانة فى الحكم ؛ حتى لا تكون أقواله مشوبة بالشكوك والشبهات والأغراض والأكاذيب .

وإنى أريد من الناقدين الدقة فى النقد ، والنزاهة والأمانة والعدالة والإخلاص فى الحكم . أريد من العلماء أن يبتعدوا عن التعصب للدين أو الجنس أو اللغة أو اللون ، ويكون الحق رائدهم ، والحقيقة ضالتهم ، والصدق حليفهم ، والإخلاص ديدنهم ؛ حتى تصل كتابتهم إلى القلوب ، وتطمئن لها النفوس .

وقد افترى المتعصبون من المستشرقين على محمد صلى الله عليه وسلم ، ولم يمحصوا ما كتبوه عنه تمحيصا علميا بريئا ، بل اعتمدوا على مادسّه الإسرائيليون فى كتب السيرة النبوية ، من أحاديث مكذوبة ، وروايات ملفّقة غير صحيحة ؛ لذلك كتبوا أشياء عن الرسول الكامل بعيدة كل البعد عن الحق ، وكان التعصب ظاهرا فى كتابتهم ، غير أن هناك قليلين من الغربيين قد أنصفوا

---

(١) توخّى : تحرّى وقصد .

الإسلام ، ورسول السلام ، مثل : « تومَاس كارْلَيل[1] » فى كتابه : « الأبطال وعبادتهم » ، والأستاذ المستشرق المنصف « إدوارد. ج . براون[2] » فى كتابه : « التاريخ الأدبى لفارس » ، و« السير توماس أرنُولد » فى كتابه : « دعوة الإسلام »[3] ، وغيرهم من المؤلفين المخلصين ؛ فقد أشادوا بعظمة محمد عليه الصلاة والسلام ، وإخلاصه ، وصدقه وأمانته فى رسالته ، واعترفوا ببطولته ؛ لأنهم أحرار فى تفكيرهم ، عادلون فى أحكامهم ، منصفون فى آرائهم ، أمناء فى ضمائرهم .

وقد تعجب إذا سمعت أن إمبراطور ألمانيا السابق قد قام بطبع كتاب أبى ذر بن محمد بن مسعود الخُشَنِىّ الذى شرح كتاب السيرة لابن هشام . وهذا يدل على أن أهل الأديان الأخرى قد عُنوا بالبحث عن تاريخ هذا النبى الأمى العربى ، الذى غيّر وجه التاريخ ، وطبعوا سيرته ونشروها ؛ كى يسهل على المستشرقين منهم فهم ما يلتبس عليهم من مفرداتها وأسلوبها وعباراتها .

وأرجو مخلصا من الباحثين من رجال الدين فى كل أمة ، مهما تختلف دياناتهم — أن يترفعوا عن التعصب ، ومحاربة الإسلام بالباطل ، والتجنى على العلم والتاريخ . أرجو منهم الأمانة العلمية ، والنقد العلمى المنطقى البرىء ، لا النقد القائم على التحريف المشوه ، والادعاء الباطل . أرجو منهم أن يجردوا أنفسهم من الحقد على الإسلام ، والكيد لنبى الإسلام ، حتى يصير بحثهم علميا خالصا ، لا حقد فيه ولا تعصب . إننى أريد الحقائق كاملة خالية من الأهواء والأباطيل ، غير متأثرة بالنزعات التبشيرية ، والميول الشخصية . أريد منهم أن ترتبط النتائج بالمقدمات ؛ حتى تبرز الصورة واضحة المعالم ، مبينة للحقائق .

---

(١) توماس كارليل (١٧٩٥ — ١٨٨١) : كاتب إنجليزى ، ومصلح اجتماعى ، وهو أول من اعترف من الإنجليز لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بالبطولة والإخلاص ، وقال إنه بطل ، وإنسان مثالى غير عادى أى رسول . ومن أحسن كتب كارليل : الثورة الفرنسية .

(2) A Literary History of Persia, by Edward G. Browne.

(3) The Teaching of Islam, by Thomas Arnold.

وإن من يطلع على ما كتبه المتعصبون والمبشرون فى القرون الوسطى يجد أن أكثرهم متأثرون بنزعتهم الدينية ، وميولهم الطائفية ، بعيدون كل البعد عن العقل والمنطق والتفكير الراقى، والتاريخ الصحيح . فادعوا أن محمدا ساحر ماهر ، يسحر من يتصلون به بما أوتى من بلاغة وفصاحة ، وأن القرآن من عنده ، مع أنهم كانوا يعلمون حق العلم أنه قبل البعثة صادق فى كل أقواله ، أمين فى كل أفعاله ، أمى لم يتعلم القراءة والكتابة . وزعموا أنه مبتدع للدين الإسلامى ، مولع باللهو والملاذ ، والله يعلم أنهم لكاذبون ، وأن الرسول لاينطق عن الهوى ، والقرآن كتاب الله ، المنزل على رسوله ، لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد . « ولو كان من عِندِ غيْرِ اللهِ لوَجدوا فيهِ اختلافاً كثيراً .» وقد عجز الفصحاء والبلغاء من قريش أن يأتوا بسورة من مثله . ولم يستطيعوا أن يأتوا بآية واحدة تشبه أى آية منه .

وقد شجع الاستعمار وأعوانه التبشير والمبشرين من الغربيين فى البلاد الإسلامية — التى تحكموا فيها ، وسيطروا عليها بالخداع والدهاء والوهم والحيل الكاذبة ، والمؤامرات المضللة — على النيل من الإسلام ورسوله ؛ كى يضللوا المسلمين ، ويؤثروا فى نفوسهم ، ويغيروا عقيدتهم ، ولكنهم — على الرغم مما بذلوا من دعاية وجهد ومال — لم يصلوا إلى أغراضهم ؛ لأن العقيدة الإسلامية راسخة فى القلوب ، متمكنة من الأرواح ، ثابتة فى العقول . ولن يستطيع أحد من أعداء الإسلام تغييرها أو التأثير فيها. ولو جرد هؤلاء المبشرون — من أمثال « زويمر » فى كتابه : « بلاد العرب مهد الإسلام[1]» — أنفسهم من التعصب الأعمى لأدركوا الإسلام على حقيقته ، ولآمنوا بالقرآن الكريم ، وإعجازه ، ورسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، ولكنهم لغلبة الهوى عليهم لايعقلون، ولايدركون كنه الإسلام ، وعظمته الحقة .

---

(1) Arabia, the Cradle of Islam.

وفى الوقت الذى نرى فيه التعصب من المبشرين ضد الإسلام نجد التسامح روح المسلمين ؛ فالإسلام يعترف بالتوراة ورسالة موسى ، ويقرّ بالإنجيل ونبوة عيسى ، وطهارة مريم . وقد تسامح المسلمون كل التسامح مع أهل الكتاب ، وعاملوهم معاملة عادلة إنسانية تدل على النبل والمروءة فى الماضى ، وما زالوا يعاملونهم معاملة الإخوة والأصدقاء فى الحاضر .

ولتعصبهم قد ادعوا خطأ أن الإسلام هو السبب فى وحشية المسلمين ، وتأخرهم وضعفهم ، وأنه قام على حد السيوف وأسنة الرماح ، وأنه مخدر لهم ، يلهيهم عما هم فيه من بؤس وشقاء ، وجهل وفقر ومرض ، وسوء حال . ولو درسوا مبادئ التاريخ لعرفوا أن المسلمين فى العصور الأولى للإسلام ، قد فتحوا العالم بالإيمان والعقيدة ، والرجوع إلى العقل والمنطق ، وورثوا مجد الفرس والروم فى أقل من قرن ، ونشروا الإسلام فى زمن وجيز لا يذكر ، وقادوا العالم قرونا طويلة فى العلوم والآداب والفنون ، والحضارة والمدنية ، فى العصور الذهبية . وكانوا يمثلون الإنسانية الكاملة فى معاملاتهم لغيرهم من الذميين ، ومحافظتهم على عهودهم ومواثيقهم . ولم يتأخروا مطلقاً بسبب الإسلام ، ولكنهم تأخروا وضعفوا بسبب الاحتلال ؛ فقد أبعدهم عن دينهم ، ونشر الجهل والفقر والمرض بينهم ، ولم يكتف بهذا ، بل قسم بلادهم وجزأها إلى دويلات صغيرة ، وبث روح التفرقة والتنازع والحزبية ، والاختلافات الطائفية بين المسلمين ؛ حتى يستطيع أن يتحكم فيهم ، ويسيطر عليهم ، وتكون له السلطة والسيادة على تلك البلاد ؛ لينهب ما فيها من خيرات ، ويأخذ ما بها من مواد أولية ، ليحتكرها ويستغلها اقتصاديا وسياسيا لمصلحته الخاصة ، عملا بالحكمة الاستعمارية المعروفة : « فرّق تسُدْ » .

وإن من يعرف المبادئ الإسلامية يدرك تمام الإدراك أن الإسلام قد حارب الجهل ، وجعل التعليم واجبا ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « طلب العلم

فريضةٌ على كل مسلم ومسلمة . » وقوله : « من أراد الدنيا فعليه بالعلم ، ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم ، ومن أرادهما معاً فعليه بالعلم . » وقد حارب الفقر بفرض الزكاة على الأغنياء والقادرين ؛ لإنفاقها على المعوزين والمصالح العامة ، ونادى بالصدقة والإحسان لرفع مستوى الفقراء والمساكين . قال تعالى : « إنَّما الصَّدَقاتُ لِلْفُقراءِ والمساكِينِ والعَامِلينَ عَليها ، والمؤَلَّفَةِ قلوبُهم ، وفي الرِّقَابِ ، والغَارِمِينَ ، وفي سَبيلِ اللهِ ، وابنِ السَّبيلِ ، فريضةً مِن الله . » وقد حث على الرعاية الصحية ، في قوله عليه الصلاة والسلام : « إنَّ لِبدنِكَ عَليكَ حقًّا . » وقوله : « المؤمنُ القويُّ خيرٌ من المؤمن الضعيفِ » . وأمر بالتعاون والوحدة في قوله جل شأنه : « واعتَصِموا بحبلِ اللهِ جميعاً ولا تفرَّقوا . » وقوله : « وتعاوَنوا عَلَى البرِّ والتَّقْوَى ولا تَعاوَنوا عَلَى الإثمِ والعُدوان . »

والحق أن الإسلام دين قد بلغ النهاية العليا في السمو ، ومصدر قوته الإيمان ، والحق ، والعدالة ، والإخلاص ، والسهولة ، واليسر ، والتسامح ، والتفكير العقلي السليم . وإن ما أخذه المتعصبون من المستشرقين والمبشرين على الإسلام ورسوله أكبر دليل على حقدهم وتضليلهم . والحاقدون المضللون كثيراً ما ينكرون الشمس في رابعة النهار ؛ لأنهم لا يسلكون سبيل الحق والصراط المستقيم ، فيصعب عليهم رؤية الحقيقة الواضحة وإدراكها ، والحق منهم بريء .

لهذا كله قد عزمت في نفسي منذ وقت ليس بالقصير — على أن أكتب في الدفاع عن الإسلام ، وإبراز روحه ومبادئه ، وأهدافه ودعائمه ، وتبيان عظمة الرسول وشخصيته ؛ لأني أومن بالإسلام عن عقيدة قوية ، وأحب الرسول حبًّا جمًّا .

واليوم أفي بوعدي ، وأحقق ما كان في نفسي من رغبة وإيمان ، وما كان في قلبي من عزيمة وإخلاص ، فأقدم لمن يريدون الحقائق ناصعة بيضاء ،

لاتعصب فيها ولا التواء — خلاصة ما قرأت وما درست فى تلك الفترة الطويلة من الحياة ، لا فى كتاب واحد ، بل فى كتابين ، هما : « روح الإسلام » . و « عظمة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم » وقد استعرت اسم الكتاب الأول من كتاب « روح الإسلام » للمرحوم السيد أمير على القاضى الهندى ، وانتفعت حقا بآرائه السديدة ، التى تدل على سعة الاطلاع ، وغزارة المادة ، وتمسكه بالإسلام ، وحبه للرسول . وهو خير كتاب ألف باللغة الإنجليزية عن الإسلام والرسول عليه الصلاة والسلام .

و إننى أقول بكل إخلاص ، بعد هذه الدراسة الطويلة ، والموازنة العادلة : لو كلفت أن أختار الدين الذى أومن به إيمانا ثابتا عن عقيدة راسخة فى القلب — ما اخترت غير الإسلام دينا ؛ لأنه دين الفطرة السليمة ، والطبيعة السمحة ، دين العقل والمنطق ، دين الدنيا والآخرة ، دين الحق والسلام ، دين (الديمقراطية) والعدالة الاجتماعية ، دين التضامن والتعاون والتكافل الاجتماعى ، دين الحرية والإخاء والمساواة ، دين العطف والرحمة والإنسانية ، دين الصفح والعفو عند المقدرة ، دين الإنسانية والمشاركة الوجدانية ، دين الإحسان والإيثار ، والوفاء والإخلاص ، دين الأخلاق والآداب المثالية ، دين يلائم كل العصور والبيئات ، دين الله الواحد الأحد ، القائل فى محكم كتابه : « إنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإسلامُ . » « ومَنْ يَبْتَغِ غيرَ الإسلَامِ دِيناً فلَنْ يُقْبَلَ منه . » « اليومَ أَكمَلتُ لكم دينَكم . وأَتْمَمْتُ عَليكم نِعمتِي . ورَضِيتُ لكم الإسلامَ دِيناً . »

وقد راعيت فى بحثى الدقة العلمية ، وتذرعت بالطرق العقلية فى التفكير ، ووازنت بين الآراء والأقوال بعيدا عن الأهواء والنزوات ، متجرداً جهد الطاقة من التعصب الدينى ، متمسكا بحرية الفكر ، ونزاهة الحكم ، وأمانة الضمير ، معتمدا على العقل والمنطق للاهتداء إلى الحق ، والوصول إلى الحقيقة الخالصة من التعصب والهوى .

وفى الرد على المبشرين لم آت ببراهين من الكتاب أو السنة ؛ لأنهم لا يعتقدون فيهما ، بل جعلت الحكم بينى وبينهم ما ورد فى العهد القديم والعهد الجديد ، واعتمدت فى البرهنة على الفكر السليم ، والرأى الملموس ، والبحث العلمى ، والتاريخ الثابت الصحيح؛ حتى يتبين الحق من الباطل ، وتظهر الحقائق واضحة ناصعة لا لبس فيها ولا غموض ، وتبدو للجميع عظمة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، والروح الإسلامى على حقيقته .

ولو اتبع المسلمون اليوم قواعد الإسلام ، ومبادئه السامية ، وأخلاقه النبيلة ، ومثله العليا لارتفع مستواهم فى معيشتهم وأحوالهم ، و نظم حياتهم ، وعاشوا عيشة حرة كريمة ، كما كان يعيش أجدادهم الأحرار الكرماء .

ولو نفذت الأحكام الإسلامية لوجد الجاهل ضالته من العلم ، والفقير حاجته من العيش ، والمريض حقه من العلاج والدواء ، ولاستعدنا المجد الإسلامى التليد ، والحضارة الإسلامية الخالدة ، وهيأنا وسائل المعيشة الشريفة للأمة الإسلامية العظيمة . ولا عجب ؛ فالإسلام نصير العلم والتربية والتعليم ، والمدافع عن الفقراء والمحتاجين ، والمساعد للعجزة والمقعدين ، والمؤاسى للشيوخ واليتامى ، والضعفاء والمرضى والمساكين .

ومن السهل أن نعيد المجد الإسلامى ، والعصر الذهبى للمسلمين ، مادام لدينا مصلحون يؤمنون بالإسلام ورسالته ، ويعملون بإرادة قوية ، وعزيمة ثابتة ، وإخلاص وإقدام ، وصبر وإيمان ؛ للنهوض بالعالم الإسلامى علميا ، وخلقيا وروحيا ، واقتصاديا وصناعيا ، واجتماعيا وصحيا .

وأرجو من العلماء والقادة العمل بما أوتوا من قوة لتوجيه الشبان من المسلمين ، وهدايتهم إلى الصراط المستقيم ، وبث الروح الدينى فى نفوسهم ، والأخلاق الإسلامية فى قلوبهم ؛ حتى يتخذوا من المبادئ الروحية العالية دستوراً لهم ،

فى أقوالهم وسلوكهم وأعمالهم ، ويكونوا قدوة حسنة لغيرهم . فقد أهملت الناحية الروحية فى الشباب كل الإهمال ، وأصبح العالم ماديا لا يفكر إلا فى المادة ، ولا يريد إلا المادة .

وإن فى سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم — الذى بعثه الله للناس كافة — هدى وعظة للمتقين ، وآيات واضحة المحجة ، قوية الحجة ، ترشد السالك إلى أوضح المسالك ، وتهدى الضال ، وتنير الطريق المظلم ، وتنبه الغافل ، وتردع الجاهل ، وتجلى الحق حقا ، والباطل باطلا .

وقد أنزل الله القرآن الكريم ، على رسوله الأمين ، وخاطب النبى الناس جميعا ليترسموا خطاه ، ويهتدوا بهداه ، ويتعظوا به . فكم فى السيرة النبوية من عظة ، وكم فيها من عبرة . وما أكثر ما يجده الباحث المدقق فى سطورها من الحكم البالغة ، والدروس العالية ، التى تنير بصيرته ، وتهذب نفسه ، وتطهر روحه ، وتدعوه إلى توَخى الحق ، ومناصرة الفضيلة ، والتضحية بالنفس والمال . وبهديها ينتفع الخاصة والعامة فى تدبير شئونهم ، وتربية بنيهم ، والبر بذويهم ، وعشرة أصدقائهم .

وقد تعمدت سهولة الأسلوب والعبارة فيما كتبت ، وضبطت الألفاظ الصعبة ، وشرحت ماخفى منها ، كى لايجد القارىء أى صعوبة فيما يقرأ . وفسّرت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية تفسيراً سهلا واضحا ؛ حتى يمكن فهم المراد منها .

ومن الموضوعات التى ذكرتها فى الكتاب الأول : روح الإسلام ، والأخلاق الإسلامية تمثل روح الإسلام ، وعظمة الإسلام تبدو فى مبادئه وآدابه المثالية ، والسلام روح الإسلام ، والتسامح فى الإسلام ، والإسلام يدعو إلى الحرية ، والإسلام ضد الرق ، وحقوق الإنسان وكيف كفلها الإسلام ، و(الديمقراطية) ، ونظام الحكم فى الإسلام ، والمشاورة والعدالة والمساواة والاشتراكية فى الإسلام ،

والتكافل الاجتماعى فى الإسلام ، والوحدة بين المسلمين ، وكيف يعامل الإسلام اليتامى والفقراء ، والإحسان وتنظيمه فى الإسلام ، والإسلام يدعو إلى العمل وكسب الرزق ... الخ

ومن الموضوعات التى بحثتها فى الكتاب الثانى : عظمة الرسول ، وشخصيته العظيمة ، وأخلاقه المثالية ، والعرب قبل الإسلام ، وأثر الإسلام فى العرب ، والإيمان بالله أساس الإسلام وسر القوة الإسلامية ، ودعائم الإسلام ، ومكانة المرأة وحقوقها فى الإسلام ، والإسلام قد أنصف المرأة ، ومنزلة الأمهات فى الإسلام ، والإسلام وتعدد الزوجات ، والإسلام والطلاق ، والإسلام يدعو إلى تعليم المرأة ... الخ

وأرجو أن أكون بهذين الكتابين قد قمت ببعض الواجب نحو دين أومن به كل الإيمان ، ونبى عظيم أحبه كل الحب بكل قلبى ، وأعتقد أنه المثل الأسمى للعالم كله ، وخير قدوة لمن يبغى الكمال من بنى الإنسان . وإن حياة الرسول الأعظم تحتاج حقا إلى أكثر من كتاب . ومن يقرأ هذه الحياة يجد العظمة والبطولة والإنسانية الكاملة ممثلة فيها .

ولكى أصل فى تلك البحوث الإسلامية إلى الدرجة التى آملها أرجو من السادة القراء موافاتى بكل مايعنّ لهم من نقد وآراء للاسترشاد بها ؛ لأن الكمال لله وحده .

واليوم أتقدم للعالم الإسلامى ، والمستشرقين فى العالم الأوروبى والأمريكى ، بهذا المجهود المتواضع ، راجيا أن أكون قد وفقت فى إظهار الإسلام فى صورته الحقة ، والدفاع عنه بالحجة والمنطق .

ويجب أن أعترف لصديقى الوفى ، الأستاذ العالم التقى ، إبراهيم محمد والى ، بالفضل فى مراجعة أصول هذين الكتابين ، وتحقيق النصوص التى وردت فيهما قبل تقديمهما للطبع . فإليه أقدم أجزل الشكر ، وأوفر الثناء . وأسأل الله أن يجزيه أحسن الجزاء .

«ربّنا عليك توكّلنا ، وإليك أَنَبْنا ، وإليك المصير .»

محمد عطيه الابراشى

جزيرة الروضة ١٠ من شوال سنة ١٣٨٣ هـ .

٢٤ من فبراير سنة ١٩٦٤ م

الفصل الأول

روح الإسلام

إن الإسلام دين الفطرة والطبيعة ، دين العقل والمنطق ، دين يصلح لكل عصر وزمان ، وكل قطر ومكان . ولكل شيء فيه حكمة ، فقد فرض الإيمان بالله وحده لأنه « لوكان فيهما آلهةٌ إلا الله لفسَدَتا» . وفرضت الصلاة لقوله تعالى: إن الصلاةَ تنهَى عن الفحشاء والمنكر» ووجبت الزكاة لقوله جل شأنه : « خُذْ من أموالهم صدقةً تُطَهِّرهم وتُزَكّيهم بها. » ونادَى بالحج « لِيَشْهَدوا منافعَ لَهم ويَذْكُرُوا اسمَ اللهِ عَلَى ما رَزَقهم مِن بَهيمةِ الأنعامِ . » وكتبَ عليهم الصيام؛ كى يصلوا إلى التقوى وطهارة الجسم والنفس والروح، « يأيُّها الَّذين آمَنوا كُتِبَ عَليكُمُ الصِّيامُ كما كُتِبَ عَلى الَّذينَ مِن قَبلِكم لعَلَّكُمْ تتَّقون » .

والحكمة فى القصاص تبدو فى قوله جل شأنه : «ولكُمْ فى القِصاصِ حياةٌ» بإقامة العدل بين الناس ، ومنع اعتداء بعضهم على بعض . وقد حرم الخمر والميسر لما يحدث للإنسان من الضرر بسببهما: « إنمَّا يُرِيدُ الشيطانُ أنْ يُوقِعَ بينَكُمُ العَداوَةَ والبَغضاءَ فى الخمرِ والمَيْسِر ، ويَصُدَّكُمْ عنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصلاةِ فهَلْ أَنتم مُنْتَهُونَ ؟ »

وفى روح الإسلام تجد كثيراً من اليسر والتيسير على المسلمين ، قال تعالى : « يُريدُ اللهُ بِكمُ اليُسْرَ ، ولا يُرِيدُ بِكمُ العُسْرَ . » وقال عز شأنه : « ما جعلَ عَليكُمْ فى الدِّينِ من حَرَجٍ . »

ويبدو روح الإسلام فى قوله تعالى : « إنمَّا المؤْمِنُونَ إخوَةٌ » .

« يأيُّهَا النَّاسُ إنا خلَقْنَاكُمْ مِن ذكرٍ وأنثَى ، وجعلْنَاكُمْ شُعوبًا وقبَائلَ لِتَعارَفوا ، إنَّ أكرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أتقاكم . » وقوله صلى الله عليه وسلم : « الناسُ سَواسيةٌ كأسنانِ المُشْطِ . ولا فَضْلَ لعرَبىٍّ عَلَى عجَمىٍّ إلا بالتَّقوَى ».

الإسلام دين الوفاء بالعهد ، قال تعالى : « وأَوْفوا بعهدِ اللهِ إذا عاهَدتُمْ . » وقال عليه الصلاة والسلام : « فى العُهودِ وفاءٌ لا غَدرٌ . » « لا تخُنْ مَن خَانَكَ . » فالإسلام يطالب بالوفاء والأمانة ، وينهى عن الغدر والخيانة ، ونقض العهد .

الإسلام دين العلم والنور ، دين التربية والتعليم ، لا دين الجهل والظلمة . قال تعالى : « اقرأْ باسمِ رَبِّكَ الذى خلَقَ ، خَلَقَ الإنسانَ مِنْ علَقٍ . اقرأْ وَربُّكَ الأكرَمُ الذى عَلَّمَ بالقَلمِ ، عَلَّمَ الإنسانَ ما لمْ يَعلَمْ . » « قُلْ هلْ يَستَوى الذينَ يَعلَمُونَ والَّذينَ لا يَعلَمون ؟ » . وقال صلى اللهُ عليه وسلم : « طلبُ العِلمِ فَريضةٌ عَلَى كلِّ مُسلمٍ ومُسلمةٍ . » وقال : « مَن أرادَ الدُّنيا فعليهِ بالعِلمِ ، ومَن أراد الآخرةَ فعليهِ بالعلمِ ، ومَن أرادَهما معًا فعليهِ بالعلمِ . »

ويتمثل روح الإسلام فى قول أبى بكر رضى الله عنه بعد أن بويع بالخلافة : « أيها الناس ، إنى قد وُلِّيت عليكم ولستُ بخيرِكم ، فإنْ أحسنْتُ فأعينونى ، وإنْ أسأْتُ فقوِّمُونى ، الصِّدقُ أمانة ، والكذبُ خيانة ، والضعيفُ فيكم قوىٌّ عندى حتَّى آخُذ الحق له ، والقوىُّ فيكم ضعيفٌ عندى حتى آخذ الحق مِنْه . . . أطيعونى ما أطعتُ اللهَ ورَسُوله ، فإنْ عَصَيْتُ الله ورَسوله فلا طاعة لى عليكم » .

كما يتمثل فى قول عمر حينما ولى الخلافة : « من رأى منكم فىَّ اعوجاجًا فليقوِّمْه . » فقال له أحد المؤمنين : « والله لو رأينا فيك اعوجاجًا لقوَّمْناه بسيوفنا » .

فالإسلام دين الوفاء والحرية ، دين العدالة والديمقراطية ، دين التسامح والإنسانية ، دين المحبة والمودة ، دين يقول فيه رسول الله : « لا يؤمن أحدكم حتى يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه » .

الإسلام دين العقيدة والإيمان ، دين الإخلاص والإيثار . قال جل شأنه :

« ويُؤْثِرون عَلى أنفسِهم ولَو كانَ بهم خَصاصَةٌ » ، ويقدمون إلى الفقراء ما لديهم ، وهم فى شدة الحاجة إليه . « من جاء بالحسَنةِ فلَه عَشْرُ أمثالها ، ومن جاء بالسَّيئةِ فلا يُجزَى إلا مثلَها » .

الإسلام دين الرحمة والتراحم ، دين الرفق والعطف ، دين العفو والصفح .

« الراحمون يرحَمُهم الرحمن » . « من لا يرحم لا يُرحَم » . « ارحموا من فى الأرضِ يرحَمكم من فى السماء . » « فأمَّا اليتيمَ فلا تَقهرْ ، وأما السائلَ فلا تَنهرْ » . « وأن تعفُو أقربُ للتقوى » . « فاعفُ عنهم واصفحْ » .

الإسلام دين الأخلاق والكمال ، دين النبل وإنكار الذات ، دين يفكر فيه المسلم فى المصلحة العامة ، ويعمل للجماعة ، ولا يفكر فى نفسه ، ولا يعمل لذاته . انظر إلى ما كتبه خالد بن الوليد ، سيف الإسلام ، بعد أن أمرَه أبو بكر رضى الله عنه بالمضى إلى الشام ، ومقابلة أبى عبيدة بن الجراح ، وتولى رياسة الجيش بدلا من أبى عبيدة ، وكان ذلك كله مراعاة للمصلحة العامة .

وهذا ما كتبه خالد إلى أبى عبيدة :

« أتانى كتاب خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يأمرنى بالمسير إلى الشام ، وبالمقام على جندها ، والتولِّى لأمرها . والله ما طلبت ذلك ولا أردُته ، ولا كتبتُ إليه فيه . وأنت — رحمك الله — على حالك التى كنتَ فيها ، لا يُعصَى أمرُك ، ولا يُخالَفُ رأيُك ، ولا يُقطعُ أمرٌ دونكَ ؛ فإنك سيدٌ

من سادات المسلمين ، لا يُنكَرُ فضلكَ ولا يُستغنى عن رأيك ... والسلام عليك ورحمة الله » .

فخالد البطل يتعهد لأبي عبيدة القائد العظيم ، بأنه لن يعصي له أمراً ، ولن يخالف له رأيا ، ولن ينفذ أمراً دون أن يستشيره ، مع أن خالدا بأمر أبي بكر هو القائد العام المسئول عن أمور الجيش في قتال الروم بالشام.

ثم انظر إلى ما كتبه أبو بكر رضي الله عنه الذي نصر الإسلام بإيمانه ونفسه وماله إلى أبي عبيدة بن الجراح :

« بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد ، فإني وليتُ خالدا قتال الروم بالشام ، فلا تخالفه ، واسمع له ، وأطع أمره ، فإني وليته عليك وأنا أعلم أنك خير منه . ولكن ظننتُ أن له فطنة في الحرب ليست لك . أراد الله بنا وبك سبل الرشاد . والسلام عليك ورحمة الله » .

فبماذا نحكم على أبي بكر ؟ وماذا نقول عنه ؟ إنه يمثل روح الإسلام، روح النبل والإخلاص ، روح الخليفة الذي لا يفكر إلا في المصلحة العامة ، روح الإيمان والكمال .

قال المرحوم الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده[1] : « إنما هو (الإسلام) دين قويم الأصول ، محكم القواعد ، شامل لأنواع الحكم ، باعث على الألفة ، داع إلى المحبة ، مزك للنفوس ، مطهر للقلوب من أدران الخسائس ، منور للعقول بإشراق الحق من مطالع قضاياه، كافل لكل ما يحتاج إليه الإنسان من مباني الاجتماعات البشرية ، وحافظ وجودها ، وينادي بمعتقديه إلى جميع فروع المدنية » .

ويتجلى روح الإسلام في قوله تعالى للرسول الكريم: «ولا تستوي الحسنةُ ولا السيئةُ ، ادفعْ بالتي هي أحسنُ ؛ فإذا الذي بينكَ وبينهُ عداوةٌ كأنه وليٌّ حميم . وما يلقاها إلا الذين صبروا . وما يُلقاها إلا ذُو حظ عظيم»[2] .

(١) ارجع إلى كتابه : « المسلمون والإسلام » ص ٨٨ .
(٢) سورة فصلت ٣٤ و ٣٥ .

أى لا يستوى الخير والشر . فادفع من أساء إليك بالإحسان إليه ، وقابل الإساءة بالإحسان . فإذا الذى بينك و بينه عداوة يتحول من عدو إلى ولى حميم، وصديق قريب . و إن هذه الفعلة الكريمة ، والخصلة الشريفة لا يوهبها إلا الذين صبروا وكظموا غيظهم ، واحتملوا أذى غيرهم ، وما يوهبها إلا ذو حظ عظيم ، ونصيب وافر من الخير.

وفى قوله عليه الصلاة والسلام : « لا يؤمنُ أحدُكُم حتى يحبَّ لأخيه ما يُحب لنفسه » . أى لا يؤمن أحدكم إيمانا كاملا إلا إذا أحب لأخيه ما أحب لنفسه، من غزارة علم ، وكرم خلق ، وسمو مكانة ، وعلو مركز ، وتوفيق فى الزوجة والأبناء والبنات ، وكره له ما كره لنفسه من جهل وفقر ، وضعة ، وحرمان ، فإذا لم يحب لأخيه ما يحب لنفسه كأن يحقد عليه أو يحسده فليس بمؤمن إيمانا كاملا .

وفى قوله صلى الله عليه وسلم : « أوصانى ربى بتسع أوصيكم بها : أوصانى بالإخلاص فى السر والعلانية ، والعدل فى الرضا والغضب ، والقصد فى الغنى والفقر ، وأن أعفوَ عمن ظلمنى ، وأعطىَ من حرمنى ، وأصلَ من قطعنى، وأن يكون صمتى فكراً ، ونطقى ذكراً ، ونظرى عبراً » .

وفى هذه الوصية يتمثل روح الإسلام ، فقد أوصى الله رسوله بتسع صفات هى : الإخلاص فى السر والجهر ، والعدالة فى حالتى الرضا والغضب ، والاقتصاد والتوسط فى النفقة ، وفى الغنى والفقر ، والعفو عمن ظلمك، وإعطاء من حرمك ، وصلة من قطعك ، والتفكير فى خالق الكون وقت صمتك ، وذكر الله عند نطقك ، ونظرك فيه عظات وعبر لغيرك .

روح الإسلام روح حرية وإخاء ومساواة :

وإن من يدرس الدين الإسلامى يجد أن روحه روح حرية ، وروح إخاء ، وروح مساواة . وفى استطاعتنا أن نقول إن الإسلام قد نادى بهذه المبادئ الإنسانية منذ أكثر من ١٣٨٣ سنة ، وسبق المدنية الحاضرة ، والأمم المتحضرة فى النداء بها .

وسنبرهن على أن الدين الإسلامى دين الحرية ، ودين الإخاء والمساواة :

١ — الإسلام دين الحرية :

لا يشك أحد فى أن الدين الإسلامى دين حرية لا دين رق وعبودية ، فهو ضد الاسترقاق[1] والاستعباد . ولم يفتتح البلاد التى فتحها إلا لنشر الدين والمبادئ الإسلامية . وقد تكلمنا عن الرق فى فصل مستقل من هذا الكتاب ، ولكننا نقول هنا بإيجاز إن فى كثير من الآيات القرآنية آيات ضد الاسترقاق ، وكلها تحث على تحرير العبيد والأرقاء . وقد عرف الرق من قديم الزمان عند اليونان والرومان واليهود ، وكان الإنسان يباع ويشترى كأى سلعة من السلع . وكان يعامل معاملة تأبى منها الإنسانية ، فكان هناك سادة وعبيد ، فقضى الإسلام على هذا . قال تعالى : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم . » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى . »

فالدين الإسلامى لم يفرق بين الأبيض والأسود ، ولم يفرق بين لون وآخر ، وقضى على التفرقة العنصرية ، والرق والعبودية ، ونادى بالحرية . قال عمر بن الخطاب لعمرو بن العاص : « متى استعبدتم الناس وقد خلقتهم أمهاتهم أحرارا ؟ »

وكان الرسول الكريم يرغب المسلمين فى تحرير من لديهم من العبيد .

(١) سنتكلم عن الرق فى الفصل الخامس من هذا الكتاب تحت عنوان : « الإسلام يدعو إلى الحرية » .

وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه أكثر من مرة بأن العتق وتحرير العبيد، وجعلهم أحرارا من أجل العبادات وأكثرها قبولا عند الله . وقد استوصى الرسول عليه الصلاة والسلام خيرا بالأرقاء ، فحرم على السيد أن يطالب عبده بما لا يستطيع من عمل ، أو أن يناديه باحتقار وازدراء .

٢ — الإسلام دين الإخاء :

الدين الإسلامى دين الإخاء ، فالمسلم أخو المسلم . قال جل شأنه : « إنما المؤمنون إخْوةٌ فأصلِحوا بين أخَوَيكُمْ » وقال عليه الصلاة والسلام. « لا يؤمِن أحدكم حتى يحب لأخيهِ ما يُحبُّ لنفسِه . » وقال : « المسلم من سَلِمَ المسلمون من لسانه و يده ».

فروح الإسلام يدعو إلى الإخاء ، يدعو إلى أن يفكر المسلم فى أخيه المسلم، و يحب له ما يحب لنفسه ، ويكره له ما يكره لنفسه ، بحيث يضع نفسه موضع غيره دائما ، و يعامله المعاملة التى يجب أن يعامل بها . يقول الرسول الكريم فى خطبة الوداع :

« أيها الناس ، إنما المؤمنون إخوة ، ولا يحل لامرئ مال أخيه إلا عن طيب نفسه . فلا ترجعن بعدى كفاراً ، يضرب بعضكم رقاب بعض ، فإنى قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعدى — كتاب الله — . أيها الناس ، إن ربكم واحد ، و إن أباكم واحد ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، أكرمكم عند الله أتقاكم . ليس لعربى فضل على عجمى إلا بالتقوى . »

و إن من يفكر فى هذا الحديث يجد أن روح الإسلام روح أخوة ، فالمؤمنون فى الإسلام إخوة فى الدين ، يشعرون شعورا واحدا ، و يفكر كل منهم فى غيره ، يفرح لفرحه ، و يحزن لحزنه ، و يشاركه شعوره ، ولا يحل لأحد

منهم مال أخيه ، بل يحرم عليه أن يتعرض له ، أو يعتدى عليه ، إلا إذا أعطاه بنفس راضية ، فإن الاعتداء يؤدى إلى الشقاء ، و يؤدى إلى الظلم والعداء .

وقد ترك الرسول كتاب الله وسنته ، وهما خير دليل نسترشد بهديهما ، وفى الحديث أيضا نداء بالديمقراطية ؛ فرب الجميع واحد ، وأبو الجميع واحد ، وكلهم من آدم ، فالجميع إخوة متساوون فى الحقوق ، وأكرمهم عند الله أكثرهم تمسكا بالدين ، وأكثرهم صلاحا وتقوى ، ولا فضل لأبيض على أسود إلا بالتقوى والصلاح ، وأداء ما أمر الله به ، واجتناب ما نهى عنه .

وفى الصلاة يقف المسلمون فى المسجد من غير تفرقة بين غنى أو فقير ، ورفيع أو وضيع ، وعربى أو أعجمى . وَيقفون فى بيت الله الحرام فى أثناء الحج كما يقف الإخوة ، من غير تفرقة بين أمير أو صغير ، ومن غير تفاوت بين أوروبى أو أسيوى أو أفريقى .

٣ — روح الإسلام روح المساواة :

إن روح الإسلام روح المساواة ، روح العدالة ؛ فهو يعامل الجميع معاملة واحدة ، و ينظر إلى الجميع نظرة واحدة ، و يعطى كل ذى حق حقه ، فهذا عمر بن الخطاب يشكو إليه رجل مصرى سوء معاملة ابن عمرو بن العاص له ، وضربه إياه ، وقوله له : أنا ابن الأكرمين ، فيدعوه عمر بن الخطاب ، ويدعو ابن العاص ، ويأمر المصرى أن يضرب ابن الأكرمين كما ضربه ، ويأمر بضرب عمرو بن العاص إذا كان قد ضربه ، فيمتنع المصرى ؛ لأن ابن العاص لم يضربه ، ثم ينظر عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص ويقول له قولته المشهورة : « متى استعبدتم المسلمين وقد خلقتهم أمهاتهم أحرارا ؟ »

وإن روح الأخوة والإخاء والمساواة فى الإسلام يبدو فى كثير من الأحكام .

ففى الصلاة تجد المصلين من المسلمين فى صفوف متساوية ، لافرق بين غنى وفقير ، وأبيض وأسود ، ورفيع ووضيع ، فى صلاة الجماعة ، وصلاة العيدين . فهم إخوة أحرار متساوون أمام الله ، يعبدونه ، ويستغفرونه ، ويطلبون منه المعونة بقلوب خاشعة ، وأفئدة صافية ، لا يفكرون فى الحياة المادية ، ولكنهم يفكرون فى الحياة الروحية .

وفى الحج تجد جميع المسلمين بلباس واحد ، ورءوسهم عارية ، لايلبسون ملابس مخيطة . وهم خاضعون لله ، إياه يعبدون . وإياه يستعينون ، هم جميعاً إخوة يتمتعون بالإخاء والمساواة ؛ له يركعون ويسجدون ويسبحون ويلبون .

وفى العقوبة ترى المسلمين سواسية فى الأحكام الإسلامية . قال جل شأنه : « وكتبنا عليهمْ فِيها أنَّ النَّفْسَ بالنَّفْس ، والعَيْنَ بالعينِ ، والأنْفَ بالأنْفِ ، والأذُنَ بالأذُنِ ، والسِّنَّ بالسِّنِّ والُجروحَ قِصاص » .

ولا عجب ؛ فالمساواة هى روح الإسلام فى السلم والحرب . ولا فضل لمسلم على آخر إلا بالبر والتقوى ، والعمل الصالح ، وإطاعة الله ، والإيمان به إيماناً كاملا .

وفى الصيام تجد الصائمين متساوين أمام الخالق جل شأنه حينما يصومون حقّاً فى شهر رمضان المكرم ، من وقت الإمساك قبيل الفجر إلى غروب الشمس .

ولا نبالغ إذا قلنا إن الذميين والمعاهدين كانوا يتمتعون بالمساواة فى البلاد الإسلامية ، تنفيذا لقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « لهم مالنا ، وعليهم ما علينا » . وقوله عليه الصلاة والسلام : « من آذى ذِمِّيا فأنا خصمه يوم القيامة » .

فهل هناك تسامح كتسامح الإسلام ، ومساواة كالمساواة في الإسلام ؟

وإن روح الإسلام يتمثل في الأخوّة والإخاء ، قال صلى الله عليه وسلم : « لا يؤمن أحدُكم حتى يُحبَّ لأخيه ما يُحبُّ لنفسه . » كما يتمثل في الإيثار وهو أن تفضل غيرك على نفسك ، وتعطى أخاك ما أنت في شدة الحاجة إليه ، عملا بقوله عز وجل : « وَيُؤْثِرُون عَلَى أَنْفُسِهِم وَلَو كَانَ بِهِم خَصَاصَةٌ » . وفقرٌ وحاجة .

ففى الإسلام تبدو الإنسانية الكاملة ، والأخلاق النبيلة ، والصفات الفاضلة ؛ لأنه يطالب المسلم بأن يفكر في غيره كما يفكر في نفسه ، ويضع شخصه موضعه ، ويؤثره على نفسه ، ويقدم له الرغيف الذى لا يملك سواه ، وأولاده في حاجة إليه ليزيلوا به ما يحسونه من ألم الجوع ، يقدمه بنفس راضية مؤمنة كلها أخوة وإخاء وإيثار . هذا هو روح الإسلام ، وهذا ما ينادى به الإسلام .

ولو انتشر هذا الروح الإسلامى في العالم لساد السلم والسلام ، والمودة والإخاء ، وما كانت هناك حروب ومنافسات بين الكتلة الشرقية والكتلة الغربية ، وما كان هناك استعمار واحتلال ، وانتداب واستغلال ، وقتل نفوس أبرياء ، واغتصاب لأرض الضعفاء ؛ لأن الإسلام ضد التفرقة العنصرية بين البيض والسود ، ضد التمييز بين طبقة وأخرى ، ضد الامتيازات التى يختص بها الأجانب .

ولا عجب ، فهو دين المساواة ، ولا فضل فيه لعربى على عجمى إلا بالتقوى والعمل الصالح .

وإن ما نراه اليوم من المنافسات والمنازعات ، والمشاحنات والاعتداءات في العالم — نتيجة للروح المادى المنتشر بين العالم الغربى ؛ ذلك الروح الذى سيفنى

البشرية ، وسيقضى على الإنسانية ؛ لأنه مثير للحرب ، مولد للنزاع ، معكر للسلام فى العالم .

ولن نصل إلى السلام العالمى ما دامت الأثرة ومحبة النفس ، والروح المادى والاستعمار منتشرة وسائدة فى عالم اليوم .

إن الإسلام يدعو إلى الإيمان ، وتطهير النفوس والقلوب من الشرور والآثام ، وتغذية العقول بالمبادئ الإنسانية النبيلة ؛ مبادئ المساواة والأخوة والإخاء ، والبر والتقوى والعمل الصالح والإيثار .

وفى استطاعة الإنسان أن يكون سعيداً كل السعادة إذا تمسك بالروح الإسلامى الحق ، ومبادئه المثالية السامية .

ولو تمسك المسلمون بدينهم ، وعملوا بروحه ومبادئه ومثله العالية لكانوا اليوم جميعاً أحرارا مستقلين سعداء ، بعيدين عن كل نزاع وشقاء .

إن الإسلام ينادى بالمساواة والأخوة والإخاء ، ويصرح بأن أكرمكم عند الله أتقاكم ، وأن المؤمنين إخوة ، وأن لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى ، وأن الناس سواسية كأسنان المشط ، لا عنصرية ولا تفرقة بين الشرقى والغربى ، ولا فرق بين الأوروبى والأفريقى ، ولا تمييز بين الأمريكى والأسيوى .

فالدين الإسلامى دين حرية وإخاء ومساواة ، دين مدنية وحضارة ، دين إنسانية وعدالة ، دين أخلاق وعزة نفس ، وقد وحد الإسلام بين الأمم الإسلامية جميعها . مهما اختلفت البلاد ، واختلفت البقاع ، واختلفت الأجناس ، لم يفرق بين مسلم ومسلم . لم يفرق بين جنسية وأخرى . لم يفرق بين أمة بيضاء وأخرى سوداء . مهما اختلفت اللغات ، وتعددت الألسن ، فقد جمعهم الإسلام ، وألغى الفروق بينهم ، وجعلهم إخوانا . قال جل شأنه : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « ليس مِنَّا مَن دعَا إلى عصبيَّةٍ ، وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ قَاتَلَ علَى عَصَبِيَّةٍ ، ولَيْسَ مِنَّا مَنْ مَاتَ علَى عَصَبِيَّةٍ . »

فالدين الإسلامى لا يدعو إلى العصبية والطائفية ، ولكنه يدعو إلى الأخوة العامة ، والوحدة الشاملة بين المسلمين ، فى مشارق الأرض ومغاربها ، وتجاهل الفوارق بينهم ، قال تعالى : « إن هذه أمّتُكم أمة واحدة » . وقال عز وجل « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرّقوا » . فالأمة الإسلامية أمة واحدة ، مهما اختلفت شعوبها ، واختلفت بلادها .

فالإسلام يدعو إلى الوحدة والتعاون ، وعدم التفرقة ، سواء أكان فى الشرق أم فى الغرب ، ويجمع المسلمين فى جامعة واحدة هى جامعة الإسلام ، سواء أكانوا فى الهند أم فى السند ، فى أفريقية أم آسيا أم أوروبة ، سواء أكانوا فى الصين أم فى السودان.

فالدين الإسلامى دين لاتعصب فيه ، دين حرية و إخاء ومساواة ، دين عدالة وديمقراطية . قال تعالى : « إنّ الذين آمنوا والّذين هادُوا والنّصارى والصّابئينَ مَن آمنَ باللهِ واليَوْمِ الآخرِ وعَمِلَ صالحاً فلَهُم أجْرُهُمْ عنْد ربِّهِم ولا خوفٌ عليْهم ولا هُمْ يحزَنون » .

فالمؤمنون واليهود والنصارى والصابئون إذا آمنوا بالله واليوم الآخر ، وعملوا عملا صالحاً ، فلهم أجرهم عند ربهم ، ولا خوف عليهم ، ولا هم يحزنون .

فالدين الإسلامى دين تسامح ، دين سهولة و يسر، لاتعصب ولا تعقيد فيه ، دين بساطة وسهولة .

لهذا الروح الذى نراه فى الدين الإسلامى نرى أن الدين الإسلامى قد انتشر بمبادئه الإنسانية فى أفريقيا وأوروبة وآسيا، انتشر بمبادئه المثالية لا بقوة السيف، انتشر بمبادئه السامية ، وآرائه الحديثة التى تتفق مع العقل والمنطق ، وكل زمان ومكان ، وتتفق مع الحضارة والمدنية . انتشر بمبادئه التى تلائم الطباع ، وتلائم النفوس ، وتتفق مع الإنسانية ، وقد أبطل وأد البنات ، وعبادة الأصنام ، وحرم

أكل لحوم الإنسان ، ونشر بين المسلمين العزة والإيثار ، والكرم والإحسان والصدقة على الفقراء والمساكين، والعفو والصفح عند المقدرة، والإحسان إلى المسيء.

وبهذه المبادىء الإسلامية انتشر الإسلام واعتنق كثيرون الإسلام ؛ فقد قضى على الفروق بين الطوائف والأجناس ، ونشر الحرية والإخاء والمساواة بين المسلمين ، في جميع أنحاء العالم الإسلامي .

ولو تمسك المسلمون بدينهم لحافظوا على حقوقهم، وفي استطاعتهم أن يعودوا إلى مجدهم العظيم إذا رجعوا إلى الأخلاق الإسلامية ، وتمسكوا بالروح الإسلامي.

وفي الوقت الذي نرى فيه الاختلاف في معاملة الإنسان الأصفر والملون والأسود في البلاد المتحضرة المتمدنة في أفريقية وأوروبة والولايات المتحدة بأمريكا نجد الدين الإسلامي ينظر إلى المسلمين نظرة واحدة من غير تفرقة بين أبيض وأصفر وأسود ، من غير تفرقة بين عظيم وحقير ، وكبير وصغير . فلا عجب إذا اعتنق الناس الدين الإسلامي زرافات ووحدانا في جميع بقاع العالم .

ومن السهل أن يستعيد المسلمون عظمتهم الماضية إذا تمسكوا بالإسلام، وعملوا بتعاليم دينهم ، وتمسكوا بروح الحرية والإخاء والمساواة .

فالروح الإسلامي روح نبل وعظمة ، روح كلها إنسانية ، روح تبشر بالخير. ونرجو أن يأتي اليوم الذي يستعيد فيه المسلمين عظمتهم ومجدهم ، ويعيدون مجدهم الإسلامي ومبادئهم الإسلامية بين المسلمون جميعا، فليس العيب عيب الإسلام، ولكن العيب عيب المسلمين الذين تركوا دينهم، وتركوا مبادئه، وأصبحوا مسلمين بأسمائهم ، بعيدين عن الإسلام بأعمالهم .

« أفَلَا يَتَدَبَّرُونَ القرآنَ أَمْ عَلَى قُلوبٍ أَقْفَالُهَا . » فلو تدبر المسلمون القرآن الكريم ، والسنة المحمدية ، والمبادىء الإسلامية لكان فينا اليوم عدد كبير من أمثال الغزالي وابن سينا وابن رشد والفارابي والرازي وابن البيطار

والقرطبي ، وكان فينا كثيرون من العلماء والأدباء والمخترعين والفلاسفة والأبطال كما كان في صدر الإسلام . ولو عرف الإنسان نفسه ما فخر سيد على عبده ، لو عرف نفسه لأحب أخاه محبته لنفسه . قال أبو العلاء المعرى :

لو يعرف الإنسان مقداره ... لم يفخر المولى على عبده

لولا سجاياه وأخلاقه ... لكان كالمعدوم في وجده

فالأمم الديمقراطية التي تفخر بالحرية والإخاء والمساواة قد سبقها الإسلام بمئات السنين في المطالبة بالحرية والإخاء والمساواة ، والتمسك بها .

ويتحقق روح الإسلام في قوله تعالى : «إِنَّ اللهَ يأْمرُ بالعدلِ والإحسانِ ، وإيتاءِ ذِي القُرْبَى ، ويَنْهَى عن الفَحشاءِ والمُنْكرِ والبَغْيِ ، يَعِظُكم لعلَّكمْ تَذَكَّرُون .» قال ابن مسعود : « هذه أجمع آية في القرآن لخير يتمثل ، ولشر يجتنب .» ففيها يأمر الله بالأخلاق الكريمة ، وينهى عن الأخلاق القبيحة .

كما يتحقق في قوله عليه الصلاة والسلام : «أوصاني ربِّي بتسعٍ أوصيكم بها : أوصاني بالإخلاصِ في السرِّ والعلانيةِ ، والعَدْلِ في الرِّضا والغَضَبِ ، والقصدِ في الغِنَى والفَقْرِ ، وأن أعفوَ عمَّنْ ظَلَمني ، وأُعطِيَ مَن حَرَمَنِي ، وأَصِلَ مَن قَطَعَنِي ، وأن يكونَ صَمتِي فِكراً ، ونُطقِي ذِكراً ، ونَظَرِي عِبراً .» وسنشرح ما يستحق الشرح منها فنقول :

إن الإخلاص في القول والعمل ، والسر والعلانية عماد النجاح في كل أمر ديني أو دنيوي ، وقد أمر الإسلام بالإخلاص في كثير من الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية . قال تعالى : «وَمَا أُمِرُوا إلا لِيعبُدُوا اللهَ مُخلِصينَ له الدِّينَ» . فالعبادة يجب أن تكون صادرة بإخلاص ، وبدون رياء أو نفاق ، خالصة لله

وحده . قال عز وجل : « فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صالحاً ولا يُشرِكْ بِعبادةِ ربِّهِ أحداً . »

وقال الرسول صلى الله عليه وسلم : « إنَّما الأعمالُ بالنِّيَّاتِ ، وإنَّما لِكُلِّ امرئٍ ما نوَى ، فمَنْ كانَتْ هِجرَتُهُ إلى اللهِ ورَسولِهِ ، فهجرَتُهُ إلى اللهِ ورَسولِهِ ، ومَن كانَتْ هِجرَتُهُ إلى دُنيا يُصيبُها أو امرأةٍ يَنكِحُها ، فهِجرتُهُ إلى ما هاجرَ إليهِ . » وقال : « إن اللهَ لا يَنظرُ إلى أجسامِكم ولا إلى صُوَرِكم ، ولكن ينظرُ إلى قلوبِكم . »

وقد قيل إن رجالا ثلاثة دخلوا غاراً للمبيت فيه ، فانحدرت صخرة من الجبل فسدته عليهم ، فقالوا : لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم .

فدعا أحدهم الله أن يفرج عنهم بإخلاصه فى خدمة أبويه ، وكانا شيخين كبيرين حتى كان لا يتناول هو وأحد أطفاله طعاماً أو شرابا قبلهما ، مهما يجد فى هذا من تعب وعناء ، فانفرجت الصخرة وفتحت قليلا .

ودعا الثانى الله بأنه كان يحب ابنة عمه حبًّا شديداً ، حتى إذا قدر عليها أخيراً ، وكان فى استطاعته أن ينال منها ، ذكرته بالله تعالى فتركها ابتغاء مرضاة الله ، وهى أحب الناس إليه ، فانفرجت الصخرة ، غير أنهم لم يستطيعوا الخروج منها .

ودعا الأخير الله بأنه كان لديه عمال قاموا له ببعض الأعمال ، فأعطاهم أجرهم إلا واحداً ترك أجره وذهب ، فثمر أجره حتى زاد كثيراً ، فاشترى له به إبلا وبقراً وغنماً . ولما جاء بعد سنين طويلة يطلب أجره ، أعطاه ذلك كله ؛ لأنه فعل ما فعل فى استثماره وتنميته مخلصاً لله وحده : فانفرجت الصخرة ، وبعدت عن

موضعها ، حتى خرجوا من الغار يمشون ، وهم أحياء ، بعد أن استولى عليهم اليأس .

فبإخلاصهم لله نجوا من الموت ، ونعموا بالحياة . ولا عجب ، فالإخلاص فى السر والعلانية من روح الإسلام ، وهو سر النجاح فى كل عمل .

والعدل فى الرضا والغضب ، بحيث يكون بين جميع الناس من غير تفرقة بين قريب أو بعيد ، غنى أو فقير ، صديق أو عدو . فقد أمر الإسلام بالعدالة ، ونهى عن الجور والظلم ، والاعتداء بغير حق[1] .

قال تعالى فى سورة المائدة : « يأيُّها الذينَ آمنوا كُونوا قوّامِينَ للهِ ، شُهَداءَ بالقسطِ[2] ، ولا يَجْرِمَنَّكم[3] شَنَآنُ[4] قومٍ عَلَى ألاَّ تَعْدِلُوا ، اعدِلوا هُوَ[5] أقرَبُ لِلتَّقْوَى » . وقال صلى الله عليه وسلم : « اتَّقُوا الظُّلْمَ ، فإنَّهُ ظُلُماتٌ يَومَ القيامةِ . » وقال : « إن اللهَ عزَّ وجلَّ لَيُمْلِي[6] لِلظالِمِ حتّى إذا أَخَذَه لم يُفْلِتْهُ[7] » ثم قرأ قوله تعالى : « وكَذلكَ أَخْذُ رَبِّكَ إذا أخَذَ القُرَى وهِيَ ظالِمَةٌ ، إنَّ أَخْذَهُ أليمٌ شديدٌ » .

وقد قيل إن غلاماً من المهاجرين ضرب غلاماً من الأنصار ، فقال هذا : يَالَلأنصار ، وقال المهاجر : يا لَلمهاجرين !

---

(١) سنتكلم عن العدالة فى الإسلام بالتفصيل ، فى فصل مستقل من هذا الكتاب .

(٢) العدل .

(٣) يحملنكم .

(٤) بغض وعداوة .

(٥) العدل .

(٦) يمهل ويطيل له .

(٧) يتركه ويهمله .

فخرج الرسول صلى الله عليه وسلم فقال : « ما بال دعوى الجاهلية[1] ! »
فلما ذكر له ما حدث قال : « دعوها فإنها مُنتِنَة » أى قبيحة كريهة مؤذية .
ثم قال : ولْيَنصُر الرجلُ أخاه ظالماً أو مظلوماً . » فإن كان ظالماً فلينْهَه ، فإنه له نصرٌ . وإن كانَ مظلوماً فلينصُرْه . »

ومن روح الإسلام : القَصد أى الاعتدال والتوسط فى الغنى والفقر ، بحيث لا يكون هناك إسراف أو تقتير ، وخير الأمور الوسط . قال تعالى فى وصف المؤمنين : « والَّذِينَ إذا أنفقُوا لم يُسرِفوا ولم يَقتُروا ، وكانَ بينَ ذلكَ قَوَاماً . » أى وسَطا . فخير الإنفاق التوسط بين التبذير والتقتير .

وقد أوصى رسول الله بالعفو عمن ظلمك ، والصفح عنه ، واحتمال الأذى .
قال تعالى : « ولْيَعْفُوا ولْيَصْفَحُوا ، ألاَ تُحِبُّونَ أنْ يَغفِرَ اللهُ لَكُمْ ؟ »
وقال جل شأنه : « وسَارِعُوا إلى مَغفِرَةٍ مِن رَبِّكم ، وجَنَّةٍ عَرضُها السَّمواتُ والأرضُ أُعِدَّتْ لِلمُتَّقِينَ ، الَّذِينَ يُنْفِقُونَ[2] فى السَّرَّاءِ[3] والضَّرَّاءِ ، والكَاظِمِينَ[4] الغيظَ ، والعافِينَ عَنِ النَّاسِ ، واللهُ يُحِبُّ المحسنينَ . »
وقال عزَّ وجلَّ : « ولَمَنْ صَبَرَ وغَفَرَ إنَّ ذلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمورِ[5] . »

فالصبر على الإساءة ، والمغفرة عند القدرة من الروح الإسلامى النبيل ، وتحتاج هذه المنزلة من الخلق الكريم إلى إرادة قوية ، وعزيمة ثابتة ، ونفس عالية . ولا يكتفى الإسلام بالعفو والصفح عن المعتدى ، بل يحث على الإحسان

---

(١) كان العربى فى الجاهلية متعصباً لأهله وقبيلته ، ينصر أخاه بحق وبغير حق .
(٢) يتصدقون .
(٣) السراء : الرخاء . والضراء : الشدة .
(٤) الضابطين الشعور والنفس .
(٥) من الأمور التى تحتاج إلى عزيمة ، ويتطلبها الإسلام .

إلى المسيء وهو غاية الرفعة والنبل ، قال تعاظم وارتفع : « وَلا تَسْتَوِى الحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ، ادْفَعْ(١) بالَّتى هِىَ أَحسَنُ ، فإذَا الَّذِى بَينَكَ وَبينَهُ عَدَاوَةٌ كأنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ(٢) . وَمَا يُلَقَّاها(٣) إلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا ، وَمَا يُلَقَّاها إلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ . »

وقد كان الرسول عليه الصلاة والسلام خير قدوة ؛ فقد أوذى كثيراً ، واحتمل الأذى سنوات طويلة . وكان يعفو ويصفح عن المسيئين إليه ، ملتمساً لهم المعذرة ، قائلا : « اللَّهمَّ اغفِرْ لِقومى فإنَّهم لا يعلمون » . وحينما دخل صلى الله عليه وسلم مكة ، وانتصر على الكفار من قريش خافوا ، واعتقدوا أنه سينتقم منهم . فقال لهم : « ما تظُنون أنِّى فاعلٌ بكم » ؟

قالوا : خيراً ، أخ كريم ، وابن أخ كريم .

فقال : « اذهبُوا فأنتمُ الطلَقاء . » ، وأطلق سراحهم ، وعفا عنهم .

ومن روح الإسلام أن تعطى من حرمك ، وتصل من قطعك ، وأن يكون سكوتك تفكيراً فى الله ، ونظرك عبرة وعظة .

ومن الفضائل التى امتاز بها الإسلام عن غيره من الديانات : الإيثار ، وهو أن تجود على غيرك ببعض ما تحتاج إليه أو بكله . قال تعالى : « وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أنفُسِهم ، ولَو كانَ بِهم خَصاصَةٌ . » أى حاجة شديدة لما يقدمونه لغيرهم . فمن روح الإسلام أن يفضل الإنسان غيره على نفسه ، و يعطيه الشىء وهو محتاج إليه ، وليس فى غنى عنه .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الأشعَريِّين إذا أرمَلوا(٤) فى الغزوِ

(١) أى ادفع السيئة بالحسنة والإحسان إلى من أساء إليك . (٢) قريب .

(٣) أى لا يؤتى هذه الفضيلة إلا الصابرون السعداء الحظ .

(٤) فرغ ما لديهم من الطعام .

أو قلّ طعامُ عِيالهِم ، جَمعوا ما كانَ عِندَهم فى ثوبٍ واحدٍ ، ثمّ اقتَسموه بينهم فى إناءٍ واحدٍ بالسَّويّةِ،فهم منّى وأنا منهم ». فبعضهم كان يفضل غيره على نفسه، ويؤثره ببعض ما يحتاج إليه ، ولهذا مدحهم النبى بقوله : هم مِنّى ، وأنا منهم .

وقال عليه الصلاة والسلام : «طعامُ الواحدِ يَكفى الاثنين ، وطعامُ الاثنين يَكفى الأَربعةَ ، وطعامُ الأَرْبعةِ يَكفى الثمانيةَ . » وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى عام المجاعة : « لن يهلك الناس على نصف بطونهم » .

وقد جاءت امرأة إلى النبى صلى الله عليه وسلم ببردةٍ[1] منسوجة، فقالت : نسجتها بيدى لِأَكْسُوَكَها . فأخذها الرسول وهو محتاج إليها ، ثم لبسها وخرج بها ، فجاء إليه شخص وقال له : اكسنيها ، ما أحسنها !

فقال الرسول عليه الصلاة والسلام: « نعم ». ثم جلس النبى وطواها ، وأرسل بها إلى من سأله .

فقال القوم للسائل : ما أحسنت ، فقد لبسها النبى صلى الله عليه وسلم وهو محتاج إليها ، ثم سألته ، وعلمت أنه لا يرد سائلا .

فقال : إنى والله ما سألته لألبسها ، إنما سألته لتكون كفنى . فكانت كفنه .

وقد حدث أن رجلا أتى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله ، أصابنى الجهد أى الجوع ، فأرسل الرسول إلى نسائه ، فلم يجد عندهن شيئا، فقال : « ألا رجل يضيفه الليلة ؟ رحمه الله » .

فقام رجل من الأنصار فقال : أنا يا رسول الله .

فذهب به إلى أهله،وقال لامرأته :ضيف رسول الله صلعم،لاتدخرى عنه شيئا.

(١) هى كِساء أسود مربع صغير تلبسه الأعراب ، والجمع بُرَد بفتح الراء .

فقالت : والله ما عندى إلا قوت الصِّبية .

فقال : إذا أراد الصبية العشاء فنوميهم ، وأطفئى السراج ، وأريه أنا نأكل . فأكل الضيف ، وبات الأنصارى وامرأته طاويين جائعين .

فلما أصبح الأنصارى ذهب إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال له النبى : « لقد عجبَ الله من صنيعكما بضيفكما الليلة » وأنزل : «ويُؤثِرُون عَلَى أنفُسِهم ولَو كانَ بهم خصَاصَةٌ »[1] أى حاجة .

فالإيثار من روح الإسلام ، وروح المؤمنين الذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم .

وقد أمر الله بالوفاء فى كثير من الآيات القرآنية منها قوله تعالى : « وَأَوْفُوا بالعَهدِ ؛ إنّ العَهدَ كانَ مسئولاً » .

وقوله : « يَأَيُّها الّذِين آمَنُوا أَوْفُوا بالعُقودِ[2] . »

فالإسلام يأمر بالوفاء بالعهود والعقود التى تعقد بين الأفراد والأمم ، ويحرم الغدر ، وهو ضد الوفاء . قال صلى الله عليه وسلم : « أربعٌ مَنْ كُنَّ فيه كانَ مُنافقاً خالصاً ، ومَن كانت فيه خَلّةٌ[3] منهنّ كانت فيه خَلّةٌ مِن النِّفاقِ حتى يدَعَها : إذا حدَّث كذَبَ ، وإذا عاهدَ غدَر ، وإذا وَعَدَ أخلفَ ، وإذا خاصمَ فجَرَ » .

فالوفاء روح الإسلام ، وقد عرف المسلمون منذ أربعة عشر قرنا تقريباً بالوفاء .

---

(١) وقيل إن هذه الآية نزلت تصف علياً كرم الله وجهه بالإيثار.
(٢) سورة المائدة : ١ .
(٣) خصلة .

تفى عهودهم ومعاهداتهم ، فى حين أن الغدر ، وخلف الوعود ، ونقض العهود من صفات الدول التى لا تدين بالإسلام كالدول الغربية اليوم .

وقد حدث أن حذيفة بن اليمان خرج هو وصاحب له يريدان الرسول بالمدينة فأخذتهما قريش ، وقالوا لهما : إنكما تريدان محمدا .

فقالا : ما نريده ، ولا نريد إلا المدينة ؛ فتركوهما بعد أخذ العهد عليهما ألا يقاتلا معه .

ولما بلغا المدينة أتيا الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأخبراه بما حدث ، فقال لهما : « انصَرِفا، نَفِى بعهدِكم ، ونستعينُ اللهَ عليهم ».

وذات يوم جيء بالهرمزان أسيرا إلى سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه . وكان الهرمزان من كبار رجال فارس الذين أساءوا إلى العرب والمسلمين ، فقال له عمر : تكلم ،

فقال الهُرمزانُ : أكلام حى أم كلام ميت ؟

فقال عمر : تكلم ، لا بأس .

و بعد انتهاء الحديث أراد عمر أن يقتله جزاء من قتلهم من المسلمين . فقال له الحاضرون من الصحابة : ليس إلى قتله من سبيل ؛ إذ قلت له : لا بأس. فهذه الكلمة التى قالها عمر عدَّت أمانًا له . فخلَّى عمر سبيله ، فأسلم .

وقيل إن المسلمين قد حاصروا حصنا فى بلاد الفرس حتى أو شكوا أن يقتحموه ، ولكن حدث أن عبدا مسلما كتب من نفسه — دون أن يدرى أحد — أمانًا لأهل الحصن ، ورمى به إليهم فى سهم ؛ فقال المسلمون : ليس أمانه بشيء ، وقال أهل الحصن : لسنا نعرف الحر من العبد .

فكتب المسلمون بذلك إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، فكتب عمر

إلى أبى عبيدة بن الجراح وكان قائد الجيش يقول : إن الله عظم الوفاء ، فلا تكونون أوفياء حتى توفوا لهم . وانصرفوا عنهم !»

وبهذه الإجابة وفى المسلمون بما وعد به العبد ، ونفذوا أمانه . وهذا روح الإسلام الحق ، روح الوفاء النادر ، والعظمة الخلقية الإسلامية.

روح الإسلام يتطلب

التفكير فى الرعية ومساعدة من يحتاج إلى المساعدة :

لقد حدث أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يقوم بأمور عجوز عمياء فى جهة من المدينة ليلا . وكان كثيراً مايأتى فيجد شخصا آخر قد سبقه إلى ذلك. فانتظره عمر ليعرفه . فوجده أبابكر خليفة المسلمين. فقال عمر : أنت هو لَعَمْرِى.

وخرج عمر ذات ليلة : ليطوف كعادته ، فرأى خيمة مضروبة ، فاقترب منها ، وعندئذ سمع امرأة تئن من الوجع ، وشاهد رجلا قاعدا بالقرب من المرأة. فتقدم إليه عمر ، وسأله عن حاله وحال المرأة ، ومم تئن ؟

فقال الرجل : أنا رجل غريب ، قدمت إلى أمير المؤمنين عمر ؛ لأنال من فضله مايجود به عَلَىَّ .

فقال عمر : ولكن ما هذا الأنين الذى يُسْمع من الخباء ؟

فقال الرجل : هو أنين امرأتى ، فقد أتاها المخاض .

فقال عمر : وهل عندها أحد ؟

فقال الرجل : كلا ياسيدى .

فذهب عمر إلى منزله مسرعا ، وأيقظ زوجه أم كلثوم بنت على بن أبى طالب .

وقال لها . هل لك فى أجر ساقه الله إليك ؟

فقالت : وما هو ياعمر ؟

فقال : امرأة أتاها المخاض ، فهى تلد الآن ، وليس عندها من يعينها .

فقالت : إن شئت ذهبت .

فقال عمر : إذا فخذى معك ما يصلح للمرأة من ملابس ، وأْتِنى بقدر وشحم ، ودقيق و بعض الطعام .

فأحضرت زوجه القدر والشحم والدقيق والملابس،فحملها عمر، ومشت امرأته خلفه حتى الخيمة ، فقال لزوجه : ادخلى إلى المرأة ، ثم قال للرجل : أوقد لى نارا .ففعل،فوضع القدر بما فيها على النار ، وجعل عمر ينفخ فى النار ، والدخان يخرج من خلال لحيته الطاهرة ، حتى أنضج الطعام وولدت المرأة .

فقالت أم كلثوم : بشر صاحبك ياأمير المؤمنين بغلام ، فلما سمعها الرجل تقول : ياأمير المؤمنين اضطرب ، واعتراه الذهول والخوف ، ولـكنه ملك نفسه فقال : أهكذا تفعل بنفسك ياأمير المؤمنين ؟

فقال عمر : يا أخا العرب ، إن من ولى شيئا من أمور المسلمين ينبغى له أن يطلع على أمورهم: صغيرها وكبيرها ، فإنه عنها مسئول . ومتى غفل عنها خسر الدنيا والآخرة . ثم قام عمر ، وحمل القدر إلى حيث كانت تنتظره زوجه أم كلثوم على باب الخباء .

فأطعمت المرأة ، ومازالت بها تعنى بشئونها ، حتى اطمأنت وارتاحت . وعندما خرجت أم كلثوم من الخباء قال عمر للرجل : قم إلى زوجك ، و كُلْ ما بقى فى البرمة (القدر) . فإذا جاء الغد فأت إلينا .

فلما أتى الصباح ذهب الرجل إلى عمر ، فجهزه بما أغناه.

أرأيت تفكيراً فى الرعية وتواضعا أكثر من هذا ؟ أمير المؤمنين وامرأته يقومان معا بخدمة فرد من أفراد الرعية فى جوف الليل الذى يأوى فيه الناس إلى الراحة . لقد يعز على بعض الأطباء فى عصرنا — وهم رسل الإنسانية المعذبة — أن يقوموا بإنقاذ مريض قد استبدّ به المرض ، وألح عليه الألم فى سكون الليل ، وذلك على الرغم مما قد يتناولون من فادح الأجر . أما الخليفة عمر ، وهو أعظم خليفة فى الأرض ، فيخف مسرعا إلى نجدة من هو فى حاجة إلى النجدة ، ولا يبغى من وراء ذلك جزاء ولاشكورا .

الفصل الثاني

الأخلاق الإسلامية تمثل روح الإسلام

« إنَّ هذا القرآنَ يَهدِى لِلَّتى هِىَ أقوَمُ . » وإن من يتتبع القرآن الكريم والأحاديث النبوية يجد كثيراً من الأخلاق الإسلامية الكريمة ، التى تؤدى إلى الإنسان الكامل . وسنذكر فيما يلى بعضاً من الآيات والأحاديث الخلقية ، التى تتعلق بالآداب الإسلامية ، والأخلاق المحمدية .

وصية لقمان عليه السلام لابنه :

قال تعالى : « يا بُنَىَّ أَقِمِ الصلاةَ ، وأْمُرْ بالمعروفِ ، وانْهَ عَنِ المنكَرِ ، واصبِرْ عَلَى ما أصابَكَ ؛ إن ذلكَ مِن عَزمِ الأُمورِ . ولا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاس ، ولا تَمشِ فى الأرضِ مَرَحاً . إن اللهَ لا يُحِبُّ كلَّ مُختالٍ فَخُورٍ . وَاقْصِدْ فى مَشيِكَ ، وَاغضُض مِن صَوْتِكَ ؛ إنَّ أنكرَ الأصواتِ لَصَوْتُ الحَمِيرِ . »

ففى هذه الآيات الكريمة نجد خير وصية من أب حكيم لابنه ، وهو أحب الناس إليه . وفى تلك الوصية يوصيه بإقام الصلاة فى أوقاتها المحددة لها ؛ لأن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وينصح له بالأمر المعروف ، والنهى عن المنكر ، بإرشاد الخلق إلى ما يصلح حالهم ، وينظم شئونهم ، ويقوم ما اعوج من أخلاقهم ، والصبر على أذى الناس ، وتحمل المشقات والآلام ، التى تحدث لمن يأمر بالفضيلة ، وينهى عن الرذيلة .

« ولا وتُصَعِّر خَدَّكَ للناسِ » . : لا تعرض بوجهك عنهم إذا حدثتهم أو حدثوك ، استكباراً عليهم ، واحتقارا لهم ، بل تواضع للصغير منهم والكبير ، وكن لين الجانب معهم ؛ حتى يتبعوا ما تأمرهم به ، ويجتنبوا ما تنهاهم عنه .

« ولا تَمْشِ فى الأرضِ مَرَحاً . إنّ اللهَ لا يُحبُّ كلَّ مُختالٍ فَخورٍ ، وَاقْصِدْ فى مَشيِك ، واغضُضْ مِنْ صَوتِكَ ، إنّ أنكرَ الأصواتِ لَصَوتُ الحميرِ . » والمعنى المراد : إذا سرت فى الطريق فلا يكن سيرك خيلاء ؛ فإن الله لا يحب كل مختال متكبر فخور . ولا تبطئ فى مشيك ولا تسرع ، بل توسط ؛ فخير الأمور الوسط . و إذا تكلمت فاخفض صوتك ، ولا ترفعه زيادة عن الحاجة ، حتى لا تؤذى السامع ، ولا يكون صوتك منكرا قبيحاً مثل صوت الحمير .

النهى عن الاستهزاء بالناس ، وذكر عيوبهم ، وسوء الظن :

قال تعالى : « يأيُّها الذين آمَنوا لا يَسْخَرْ قومٌ مِن قومٍ عَسَى أن يَكونوا خيراً مِنهم ، ولا نِساءٌ مِن نِساءٍ عسَى أن يَكُنَّ خيراً مِنهن . وَلا تَلْمِزُوا أنفُسَكم . ولا تَنابَزُوا بالألقابِ . بِئْسَ الاسمُ الفُسوقُ بَعْدَ الإيمانِ . وَمَن لم يَتُبْ فأولئِكَ هُمُ الظالمونَ يأيُّها الذينَ آمَنوا اجْتَنِبُوا كثيراً مِن الظّنِّ ، إنّ بَعضَ الظنِّ إثمٌ ، وَلا تجَسَّسُوا ، ولاَ يَغتَبْ بَعضُكم بَعضاً ، أيُحِبُّ أحدُكمْ أن يأكُلَ لَحْمَ أخيهِ مَيتاً فكَرِهتُموهُ ، واتّقُوا اللهَ ، إنّ اللهَ توّابٌ رَحيمٌ . »

ففى هذه الآيات الكريمة كثير من الآداب الإسلامية ، والمثل العالية فى الأخلاق ، منها ألا يسخر إنسان من آخر ، أو يستخف به ويحتقره ؛ فقد يكون هذا المحتقر خيرا عند الله ممن يستهزئ به ، ويسخر منه . فلا تحتقر أحدا لأنه رث الهيئة ، أو فقير أو مريض ، أو ذو عاهة ؛ فقد يكون طاهر القلب ، نقى الضمير ، مقربا عند الله ، سواء أكان من الرجال أم النساء .

« ولا تَلْمِزُوا أنفُسَكم » : ولا يَعِبْ بعضكم بعضا بقول أو فعل أو إشارة ،

لأن الناس كنفس واحدة ، فمتى عاب الإنسان أخاه فكأنما عاب نفسه . وهذا أدب إسلامى أدب الله به عباده ، ليزيد الألفة بينهم ، ويربط قلوبهم بكل مودة ومحبة . « ولا تنابزوا بالألقاب .... » فى هذه الآية نهى عن أن يدعو أحد أخاه بلقب يكرهه ؛ لأن ذلك يغرس الحقد والضغينة والبغض فى القلوب . ولذا سمى الله التنابز بالألقاب فسقا .

« يأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن ؛ إن بعض الظن إثم . » .
فالله قد نهى عن كثير من سوء الظن بأحد من الناس ، وهو التهمة المجردة التى لا دليل عليها ؛ لأن بعض الظن إثم محض . فليجتنب الكثير منه احتياطا .

« ولا تجسسوا » : لا تبحثوا عن عورات الناس وعيوبهم ، فإن فى ذلك فضيحة لهم وتعرضا لما لا يفيد .

« وَلا يَغتَبْ بعضُكم بَعضاً أيُحِبُّ أحدُكُمْ أنْ يأكُلَ لَحْمَ أخيهِ مَيْتاً فكَرِهْتُمُوه ؟ »

أى لا يذكر أحد أخاه بما يكره فى غيبته ، سواء أكان ذلك بالقول أم بالفعل ، بالإشارة أم بالكتابة ؛ فقد نهى الله عن الغيبة ، حتى جعل من يغتاب غيره كأنه يأكل لحم أخيه ميتا ، وهو أمر مستبشع .

حسن الخلق من المبادئ الإسلامية :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن خِيارَكُمْ أحْسنُكُمْ أخلاقاً . »
فخير المسلمين أحسنهم خلقا ، وشرهم أقبحهم خلقا . ومن الأخلاق الإسلامية الحسنة : الوفاء ، والصدق والأمانة ، والإيثار ، والشجاعة ، والكرم ، والإحسان ، والعفة ، والصبر ، والرحمة ، والزهد ، والتواضع ، والإخلاص . والحلم ، والحكمة .

ومن الصفات القبيحة التى ينكرها الإسلام : الغدر ، والكذب ، والخيانة ،

والبخل ، والجبن ، والغيبة ، والنميمة ، والحقد ، والشره ، والكبر ، والغضب ، والحمق ...

قال عليه الصلاة والسلام : « إن مِن أحبِّكم إليَّ ، وأقربِكم منِّي مجلساً يومَ القيامةِ أحسنَكُم أخلاقاً . »

فالإسلام دين الخلق الكريم ، وقد خاطب الله محمدا صلى الله عليه وسلم بقوله : « وإنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ . »

وتخلق الرسول بأخلاق القرآن الكريم وآدابه ، ولهذا كان يقول : « إنَّما بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأخلاقِ . » من شهامة، وعزة نفس ، وعلو همة ، وإقدام ، ونزاهة ، وقناعة ...

من الأخلاق الإسلامية :

بر الوالدين والإحسان إلى الأقارب :

قال تعالى : « وقَضَى رَبُّكَ ألاَّ تعبُدُوا إلاَّ إيَّاهُ ، وبالوَالدَيْنِ إحساناً ، إمَّا يَبلُغَنَّ عِندكَ الكِبَرَ أحدُهُما أو كِلاَهما ، فلاَ تَقلْ لَهُما أُفٍّ ، ولا تَنهرْهُما ، وقُلْ لَهُما قوْلاً كَريماً . واخفِضْ لَهُما جَناحَ الذُّلِّ مِن الرحمةِ . وقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُما كما رَبَّيانِي صَغِيراً . »

وقَضَى رَبُّكَ أى أمر وحكم أن يعبد وحده ، وقرنَ هذا الأمر بالإحسان إلى الوالدين ، وبرهما . فإذا كبر أحدهما أو كلاهما ، أو حصل منهما أى شيء يكرهه الابن ، فلا يجوز أن يقول الابن لهما أى قول يكدر خاطرهما، حتى التأفف، وهو أدنى مراتب التضجر والتضرر. ولا تنهرهما : ولا تغضبهما ، وقل لهما قولا لينا طيباً، مع الأدب والاحترام والتعظيم . واخفض لهما جناح الذل : وتواضعْ لهما ، وتذلل لهما؛ لأنهما قد صارا محتاجين إليك بعد أن كنت محتاجاً إليهما . فهما أولى

بكل شفقة ورحمة وعطف . وادع الله أن يرحمهما رحمة دائمة، كثر بينهما إياك وأنت صغير .

فللأبوين على الإنسان حقوق يجب أن تؤدى، وواجبات يجب أن تقضى، منها الطاعة واجتناب ما يضرهما، واحترامهما، والإنفاق عليهما ، والعمل على إرضائهما بكل وسيلة من الوسائل ، والاستغفار لهما بعد وفاتهما ، وتنفيذ عهدهما ، وإكرام صديقهما .

وقال عز وجل : « واعبُدُوا اللهَ ، وَلا تُشرِكوا بهِ شَيئاً ، وبالوالدينِ إحساناً ، وبذِي القُربى ، واليتامَى ، والمساكينِ ، والجارِ ذِي القُربى ، والجارِ الجُنُبِ ، والصّاحبِ بالجَنْبِ ، وابنِ السبيلِ ، ومَا ملَكتْ أيمانُكم . إن اللهَ لا يُحبُّ مَن كان مُختالاً فَخوراً . »

فبين أنواع البر ، من عبادة الله وحده لا شريك له ، والإحسان إلى الوالدين والأقارب واليتامى ، والمساكين ، والجار القريب ، والجار البعيد ، والصاحب بالجنب وهو : الرفيق بالجنب فى طلب العلم، أو تعلم صناعة ، أو مرافقة فى سفر ، ومواساة المسافر الفقير وهو ابن السبيل ، والشفقة بالعبيد والأرقاء ، والإحسان إليهم . إن الله لا يحب المتكبر الفخور بنفسه .

وقال جل شأنه : « ووَصَّينا الإنسانَ بوالِدَيهِ إحساناً ، حَمَلَتْهُ أُمُّه كُرْهاً ووَضعَتْهُ كُرْهاً ، وحَمْلُه وفِصالُه ثلاثونَ شهراً ، حتَّى إذا بلَغَ أشُدَّهُ وبَلَغَ أربعينَ سنةً قال : ربِّ أوْزِعْني أن أشكرَ نعمتَكَ التى أنعمتَ عَلَيَّ وعَلَى والدىَّ ، وأن أعملَ صالحاً ترضاهُ ، وأصلِحْ لى فى ذُرِّيتى ، إنِّى تُبتُ إليكَ ، وإنِّى من المسلمينَ . أولئِكَ الذينَ نتقبَّلُ عَنهم أحسنَ ما عَمِلوا ، ونتجاوَزُ عَن سَيِّئاتِهِم فى أصحابِ الجَنَّةِ ، وَعْدَ الصِّدْقِ الذى كانوا يوعَدُون . »

فقد بين الله تعالى ما يجب على الإنسان من بر الوالدين وخاصة أمه ؛ فقد تعبت كثيراً فى حمله ووضعه ورضاعه وفطامه ، والسهر عليه فى مرضه . ولذلك كان برها أوجب من بره .

وقد جاء رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يارسول الله ، هل بقى على من بر أبوى شىء أبرهما به بعد وفاتهما ؟

قال : « نعم ، الصلاةُ عليهما ، والاستغفارُ لهما ، وإنفاذُ عهدهما ، وإكرامُ صديقِهما ، وصلةُ الرحِم التى لا توُصَلُ إلا بهما . »

وقال سيد الأنبياء صلى الله عليه وسلم : « رِضاَ الربِّ فى رضا الوالدين ، وسُخطهُ فى سُخطِهما » . وقال عليه الصلاة والسلام : « إن مِن أكبرِ الكبائرِ أن يَلعَنَ الرجلُ والديه . قيل : يارسولَ الله ، وكيفَ يَلعنُ الرجلُ والديه ؟

قال : « يَسُبُّ الرجلُ أبا الرجلِ ، فيَسُبُّ أباه ، ويَسُبُّ أمَّه . »

فسب الرجل والديه من أكبر الذنوب ، وأقبح الكبائر . ففى الوقت الذى ننتظر فيه من الابن أن يحسن إلى أبويه ويكون بارا بهما — نجد أنه يسىء إليهما ، ويجحد نعمتهما ، وينسى تربيتهما له ، وعطفهما عليه ، وعنايتهما به ، ورعايتهما له . وهذا يدل على دناءة نفسه ، وخسة طبعه . وإن الرجل الذى يسىء إلى أبويه لا يرجى منه الإحسان إلى أى إنسان ؛ لأنه مصدر فساد ، ومبعث شر ، ذنبه عظيم ، وإثمه شديد .

وقال صلى الله عليه وسلم : « ألاَ أُنَبِّئُكُمْ بأكبرِ الكبائرِ ؟ ألاَ أُنبِّئُكُمْ بأكبرِ الكبائرِ ؟ ألا أُنَبِّئُكُمْ بأكبرِ الكبائرِ ؟

قالوا : بلَى يارسول الله .

قال : الإشراكُ باللهِ ، وعقوق الوالدين . وجلس ، وكان متكئاً فقال : ألاَ وقولُ الزورِ . فما زال يكررها حتى قلنا : ليتَه سكتَ . »

فأكبر الكبائر :

(١) الإشراك بالله ، وعبادة الأوثان والأصنام .

(٢) وعقوق الوالدين وإيذاؤهما بالعمل والقول . ومن العقوق أن يشتمهما الابن أو يسبهما أو يقول لهما أف ، أو يعصى لهما أمرا ، أو يتلكأ فى قضاء مايريدانه ، أو يمد يده إليهما بسوء .

(٣) قول الزور ، وهو الباطل الذى ينافى الحق .

عن عبد الله بن مسعود قال : سألت النبى صلى الله عليه وسلم : أىُّ العملِ أحبُّ إلى الله ؟

قال : « الصلاةُ لوقتها . »

قال : ثم أىٌّ ؟

قال : « بر الوالدين . »

قال : ثم أى ؟

قال : « الجهاد فى سبيل الله . »

ويؤخذ من هذا الحديث أن أحب الأعمال وأفضلها وأرفعها درجة عند الله الصلاة فى أول أوقاتها المحددة . ويليها فى المرتبة بر الوالدين . و برهما يكون بإطاعة أمرهما ، والعناية بمصالحهما ، وحسن معاملتهما ، والإنفاق عليهما ، وقولك « ربِّ ارحَمْهما ، كما رَبَّيَانِى صَغيراً » ، فقد ربَّياك ، وعطفا عليك ، وأحباك ، وتعبا كثيراً فى سبيل راحتك ، وسهرا لتنام ، وشقيا لتكون سعيداً . وهذه الأمور كلها يجب أن تقابل بالبر لا بالجحود والكفران .

ويلى بر الوالدين فى المنزلة : الجهاد فى سبيل الله ، وفى سبيل دينه وهو الإسلام.

ويكون الجهاد ببذل كل ما يستطيعه الإنسان من نفس ومال ، ومركز وجاه ، وتفكير وقلم ولسان ، لإعلاء كلمة الدين ، والمحافظة عليه ، ونشر تعاليمه بين الشعوب ، والدفاع عن المسلمين ضد الاستعمار أو الاحتلال الذى لا يرعى إلاً ولا ذمة .

من الأخلاق الإسلامية : صلة الرحم .

إن الاسلام يحث على صلة الرحم ، وهى صلة الأقارب ، بإطعامهم إذا جاءوا ، وتأمينهم إذا خافوا ، وقضاء ما عليهم من دين ، وتفريج الغم عنهم ، والقيام بما يحتاجون إليه ، وزيارتهم ، وعمل كل ما يجلب محبتهم .

وقد حث الله جل شأنه على صلة الرحم ، ورغب فيها ، وحذر من قطعها ، وأعد الجنة لمن وصلها ، والنار لمن قطعها .

قال تعالى : « وأُولُو الأرحامِ بَعضُهم أَوْلَى بِبَعْضٍ فى كِتابِ الله . » أى أن الأقارب أولى من غيرهم بالصلة والمودة . وقال عز وجل فى الحث على صلة الرحم ، والنهى عن قطعها : « يأَيُّها النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خلَقَكم مِن نفسٍ وَاحِدَةٍ ، وخَلَقَ مِنها زَوْجَها ، وبَثَّ مِنهما رِجالاً كثيراً ونساءً ، واتَّقُوا اللهَ الَّذى تَساءلونَ بهِ والأرحامَ ، إنَّ اللهَ كانَ عليكُمْ رقيباً . »

فأمر بتقوى الله ، وعبادته وحده ، وحث على صلة الرحم ، وعدم قطعها ، فإن قطعها من أكبر الكبائر ، وصلتها تزيد فى العمر ، وتبارك فى الرزق . ولذا وصل عز وجل صلة الرحم بتقواه ، والله رقيب مطلع ، عليم بمن يمتثل أمره ومن لم يمتثل .

وقال جل شأنه : « الَّذين يُوفونَ بِعَهْدِ اللهِ ، وَلا يَنقضُونَ المِيثاقَ ، والَّذِين يَنقضُون عَهْدَ اللهِ مِن بعْدِ مِيثاقهِ ، ويَقْطَعُون ما أَمرَ اللهُ بهِ أن يُوصَلَ ، ويُفسِدُون فى الأرضِ ، أُولئك لهمُ اللَّعنةُ ، ولَهمْ سُوء الدَّارِ . »

فوضح سبحانه وتعالى ما أعده من الخير الجزيل لمن اتصفوا بهذه الصفات الحميدة ، والأخلاق الكريمة ، من الوفاء بالعهد ، وعدم نقض الميثاق ، ومن صلة الرحم التى أمر الله بها أن توصل .

وقد جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم صلة الرحم سبباً فى سعة الرزق ؛ وزيادة الخير ، حيث قال : « إنَّ أعجلَ الطاعةِ ثواباً صلةُ الرحِمِ ؛ حتى إنَّ أهلَ البيتِ ليَكونونَ فُجاراً فتَنمو أموالُهم ، ويَكثرُ عددُهم إذا وَصلوا أرحامَهم . » وقال عليه الصلاةُ والسلام : « مَن سرَّهُ أن يُمَدَّ لَه فى عمرِه ، ويُوسَّعَ له فى رزقِه فَلْيَتَّقِ اللهَ ، وليَصِلْ رَحِمَهُ . »

وقال عليه الصلاة والسلام : « الصدقةُ على المسكينِ صدَقةٌ ، وعلى ذِى الرحِمِ ثِنتان : صدقةٌ وصِلةٌ . » فصلة الرحم تطيل العمر ، وتوسع الرزق .

كل إنسانٍ مسئول عن رعاية المتصلين به :

عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « كلُّكم راعٍ ، وكلُّكم مسئولٌ عن رَعيتِهِ ، الإمامُ راعٍ ومسئول عن رعِيتِهِ ، والرجلُ راعٍ فى أهلِهِ وهو مسئولٌ عن رعيتِهِ ، والمرأةُ راعيةٌ فى بيتِ زوجِها ومَسئولةٌ عن رعيتِها ، والخادمُ راعٍ فى مالِ سيدِهِ ومَسئولٌ عن رعيتِهِ . قال : وحَسِبتُ أن قد قال : والرجلُ راعٍ فى مالِ أبيهِ وهو مسئولٌ عن رعيتِهِ ، وكلُّكمُ راعٍ ومسئولٌ عن رعيته . »

والراعى هو من يُترك إليه تدبير الشىء وحفظه ورعايته ، والرعية كل ما يشمله حفظ الراعى ونظره . وحسِبتُ : ظننت . والمعنى المراد : كل فرد منكم مسئول عن إجادة عمله و إتقانه ، مسئول عما ترك إليه من نفوس وأعمال ، ومصالح وأموال .

فالإمام أو الرئيس مسئول عن أمته ، و إعطاء كل ذى حق حقه ، مسئول عن كل فرد فيها ، وعن كل شيء يتعلق بمصالحها . والرجل مسئول عن أسرته وزوجته وأبنائه و بناته ، و إخوته وأخواته ، مسئول عن تأديبهم وتهذيبهم والإنفاق عليهم ، والتفكير فى شئونهم ، وحسن رعايتهم .

والزوجة مسئولة عن بيت زوجها ، وتربية أولادها ، و إرشادهم إلى ما يجب عليهم ، مسئولة عن تنظيم بيتها ، و إدارة مملكتها الصغيرة ، والعناية بشئونها .

والخادم مؤتمن على مال سيده ، ورعاية أهله وأولاده .

والولد راع فى مال أبيه ، مسئول عن استثماره وتنميته ، فلا يبذره ولا يبدده . وكل فرد منا راع ومسئول عن رعيته .

الإسلام يدعو إلى التربية الخلقية

إن الغرض الأسمى من التربية هو تربية الخلق ، وحسن السلوك ، وتهذيب الإرادة ، وتمييز الغث من السمين ، والحسن من القبيح ، واختيار الفضيلة ، وتجنب الرذيلة .

والغرض من التربية الخلقية تكوين رجال كريمى الأخلاق ، أقوياء العزيمة ، مهذبين فى أقوالهم وأفعالهم ، نبلاء فى تصرفاتهم وخلقهم ، ديدنهم الحكمة والفضيلة ، والأدب والإخلاص والطهارة ، فروح التربية والحياة ، وروح البيت والمدرسة ينبغى أن يوجه إلى تربية الأخلاق .

ولا نبالغ إذا قلنا إن التربية هى الوصول إلى المثل العالى من الخلق الكامل ، فى العادات والأحوال والآداب فى هذه الحياة . وقد أجمع علماء التربية وفلاسفتها على أن الغرض الخلقى الذى يجب أن يرمى إليه المربى هو الغرض الحقيقى من التربية

التي يصح أن يطلق عليها ذلك الاسم . وليس معنى هذا أن نقلل العناية بالتربية الجسمية أو العقلية ، بل معناه أن نعنى بالناحية الخلقية وتكوين الخلق ، كما نعنى بالناحية الجسمية والناحية العقلية والعلمية ، فالإنسان فى حاجة إلى قوة فى الجسم ، وسلامة فى العقل ، وكمال فى الخلق ، بحيث يعنى بجسمه، ويفكر بنفسه، ويبحث وراء الحقيقة ، و يقدر بحق جمال العالم الذى يحيط به ، ويقول الحق ، و يدافع عن الحق ، و يخلص فى عمله، ويراقب الله وضميره ، و يضحى بمصلحته فى سبيل المصلحة العامة ، و يقوم بالواجب و يشعر به ؛ ولله در شوقى حيث يقول :

و إنما الأمم الأخلاق مابقيت فإن هموذهبت أخلاقهم ذهبوا

و إننا نأسف أشد الأسف إذا قلنا إن التربية الخلقية مهملة فى البيت ، مهملة فى المدرسة ، مهملة فى المجتمع فى الوقت الذى قرر فيه المربون والمصلحون أن سعادة الأمم لا تتوقف على كثرة دخلها ، ولا على قوة حصونها أو جمال مبانيها، ولكنها تتوقف على عدد المهذبين من أبنائها، وعلى رجال التربية والعلم والأخلاق فيها. فهنا تكون سعادتها وقوتها ومقدرتها الحقة. ولا يمكننا أن ندعى أن المدرسة وحدها تستطيع أن تقوم بتربية النشء تربية خلقية كاملة، فهناك شركاء يشتركون مع المدرسة ، ولهم أثر كبير فى التربية كالبيت والمجتمع . فلكى نصل إلى المثل العالى من التربية الخلقية الرجل والمرأة يجب أن يقوم البيت بواجبه نحو التربية الخلقية ، ويجب أن يكون المجتمع كاملا لا يهدم ما يؤسسه البيت أو تبنيه المدرسة .

ولا نستطيع أن ننسى أن المدرسة قد أنشئت لغرض خاص هو تربية النشء تربية حقة . فهى تعمل باستمرار للوصول إلى هذا الغرض المقدس ، وهو تربية الفرد بطريقة خاصة للوصول إلى غرض معين ، وهو تكوين الخلق ، وتقوية الجسم ، و تربية العقل ، وتهذيب اليدوالقلب ، أما البيت والبيئة فيؤثران عرضاً فى

فترات خاصة فى تربية الطفل . وليس من السهل أن نتجاهل هذا الأثر ، وذلك التأثير ؛ فقد يكون حسناً ، وقد يكون سيئاً ، وقد يكون نافعاً ، وقد يكون ضاراً. ففى استطاعة المدرس أن يقوم بما يعجز الآباء عن القيام به ، فيساعد المتعلم فى معرفة نفسه ، وفهم العالم وما فيه ، و يفتح الأبواب والآمال فى وجهه ، و يمكنه من الانتفاع بمواهبه ، و يوحى إليه كثيراً من الأخلاق الفاضلة : كالصدق فى القول ، والأمانة فى العمل ، والعدالة فى الحكم ، والصراحة والشجاعة ، والإخلاص. ويبث فى نفسه حب العظمة والبطولة ، والابتكار والاختراع . وإذا لم يستطع البيت والمجتمع القيام بواجبهما نحو التربية الخلقية فعلى المدرس أن يقوم بواجبه ، ويصلح ما أهمله البيت والمجتمع . وإن التعليم الذى لا يؤدى إلى التربية والأخلاق لا يستحق أن يسمى تعليما .

وليس الغرض من التعليم حشو أذهان التلاميذ بالمعلومات ، بل الغرض تهذيب الأخلاق ، مع العناية بالصحة والتربية البدنية والعقلية والوجدانية والعلمية، وإعداد النشء للحياة .

ولا نبعد عن الحقيقة إذا قلنا إن الغرض الجزئى والكلى من التربية والتعليم يمكن أن يلخص فى كلمة واحدة هى : الفضيلة ، بإيجاد حياة طاهرة مقدسة ، ملؤها الإخلاص والطهارة . وإن التربية الحديثة توجب علينا أن نذكر دائماً أننا لسنا فى حاجة إلى العلم فحسب ، ولكننا فى حاجة إلى كثير من الأخلاق الفاضلة . وقد قال الرسول الكامل : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق . » وقد خاطب الله الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله : « وإنك لعلى خلق عظيم » قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه للرسول الكريم : « لقد طفت العرب ، وسمعت فصحاءهم ، فما رأيت ولا سمعت مثلك أحدا . فمن أدبك ؟

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » .

وكما أن الوقاية خير من العلاج فى عالم الطب ، فالمحافظة على الأخلاق خير من إصلاحها فى عالم الأخلاق. ومن المحافظة على الأخلاق منع الأبناء من الاتصال بالأشرار ، والاختلاط بأصدقاء السوء ، واللعب معهم ومجالستهم ، والمعيشة فى البيئة الفاسدة . ولا نقصد بالتربية الخلقية أن نلقن التلميذ الفضائل ومحاسنها ، والرذائل ومساوئها، بل نريد التفكير فى تهذيب أخلاق النشء حينما تبدو الفرصة عرَضاً فى حجرة الدراسة ، أو فى فناء المدرسة ، أو فى ملعب الألعاب الرياضية، أو فى المنزل ، أو الحديقة ، أو فى أى مكان يحل به .

نريد العمل على تقويم المعوج من الأخلاق بالقدوة الحسنة ، والتفاهم ، والتكلم على انفراد ، فيكون مثل المربى ، من أب وأم ومدرس ومدرسة مثل الطبيب الذى لا يعطى الدواء إلا عند المرض ، والأم الحكيمة التى لا تقدم لابنها الغذاء إلا فى وقته حينما يشعر بالجوع .

ولقد صرح « بستالوتزى السويسرى» بأن الطفل الذى تعلم الصّلاة والتفكير والعمل هو أكثر من نصف متعلم ، وأنه لم يكن غرضه من تعليم الطفل أن يعلمه من العلم مالم يعلم ، بل يعلمه الآداب والأخلاق وحسن المعاملة ، والاعتماد على النفس ، ومراعاة العدالة فى كل أمر، والمثابرة على العمل، ويمرنه على البر والتقوى، والصدق فى القول ، والوفاء بالوعد ، والإخلاص فى العمل ، وأداء الواجب ، ومساعدة الضعيف ، والمحافظة على الوقت . وقد سئل أحد الفلاسفة ذات مرة : هل تعلم الفضيلة ؟ فقال : لا . يقصد بذلك أن دراسة الفضيلة لا تستلزم التمسك بها ، ولكنها تشجع على التزامها والتحلى بها ، إذا كانت النفس مستعدة لها . وكانت الإرادة والعقل والعاطفة فى جانبها .

وقد سئل فيلسوف آخر هذا السؤال عينه وهو : هل تعلم الفضيلة ؟ قال :

نعم ، إن الفضيلة تعلم ، يريد بذلك أن بعض الناس يرتكبون الرذيلة أحيانا جهلا منهم بأنها رذيلة . فأمثال هؤلاء لو عرفوا الفضيلة والرذيلة لساعدتهم هذه المعرفة فى التحلى بالفضيلة ، واجتناب الرذيلة ، وبخاصة إذا كانت النفس كريمة طاهرة تميل إلى الخير ، وتنفر من الشر ؛ إذ لا تنفع العظة فى أرض سبخة ، أو نفوس شريرة .

والغرض من التربية الخلقية تكوين الأخلاق وتربية الروح ، ويجب أن يضع المربى هذا الغرض نصب عينيه دائما، فكل أب يجب أن يفكر فى الأخلاق، وكل أم يجب أن تفكر فى التربية والأخلاق ، وكل مدرس يجب أن يكون مدرس أخلاق ، وكل درس يجب أن يكون درس أخلاق ، وكل ناظر يجب أن يفكر فى الأخلاق قبل أى شىء آخر ، بحيث يفكر البيت والمدرسة معاً فى الأخلاق .

ولكى تثمر العظة يجب أن يكون المربى قدوة حسنة للنشء ، ومثلا عالياً للأخلاق الكريمة . وإننا نعتقد أن أكبر أمر يجب أن نفكر فيه فى كل وقت هو إيجاد رجال مهذبين ، وسيدات مهذبات ، وتكوين شعب مهذب مثقف ، كريم الأخلاق، للوصول بالمجتمع إلى الكمال الخلقى الذى نرجوه وننشده. فليست مشكلاتنا هى الجهل والفقر والمرض فحسب . ولكن مشكلة المشكلات هى الأخلاق وتهذيبها بين أطفال اليوم ورجال الغد .

وينبغى أن تبتدئ التربية الخلقية فى البيت أولا ، وفى المدرسة ثانيا ، لكى تبنى المدرسة على أساس متين من الأخلاق . ولا يكفى أن تقوم المدرسة بهذا النوع من التربية منفردة ، بل يجب أن يتعاون البيت والمدرسة معاً فى سبيل تربية الطفل تربية كاملة يشعر معها بأن الأخلاق عماد التربية، وأن الغرض من الحياة هو الأخلاق . وعلى المربى أن يذكر دائما أن الطفل يحاكى كل ما يراه

ويسمعه ، وما يفعل أمامه من تلقاء نفسه ، فواجب المربين أن يكونوا جميعاً قدوة طيبة للطفل .

وإن المثل السامى فى التربية الإسلامية والتربية الحديثة هو تكوين مجتمع كامل مكون من سيدات كاملات ، ورجال مهذبين ذوى شخصيات كبيرة ، ونفوس أبية ، وأخلاق عالية ، يعرفون الواجب ، ويقدرون حقوق الإنسانية ، ويحبون الخير ، ويكرهون الشر ، ويفكرون فى غيرهم كما يفكرون فى أنفسهم .

فإذا أرادت الأمة العربية أن تنهض وتعيد مجدها القديم وتتبوأ مكانها اللائق بها ، فعليها أن تفكر أولاً فى التربية وتعميمها ، والأخلاق وتهذيبها .
ولله در شوقى حيث يقول :

وليس بعامر بنيان قوم إذا أخلاقهم كانت خرابا

فالأمم لا ترقى بالمال أو الحصون ، ولكنها ترقى بالعلم والتربية والأخلاق . فبالعلم والتربية وحسن الخلق نستطيع أن نعيد مجد العرب القديم ، وحضارتهم الخالدة ، وعظمتهم التالدة ، ونتبوأ مركزنا اللائق بنا تحت الشمس . وإن الأمة التى ضعفت الأخلاق فيها ، وأصبح كل فرد فيها يفكر فى نفسه وفى شئونه الخاصة ، ولا يفكر فى أمته وشئونها العامة — أمة لا تستطيع تحقيق مثلها العليا التى تنشدها . ولا أبعد عن الحقيقة إذا قلت إن بالتربية والأخلاق تستطيع كل أمة أن تصل إلى قمة المجد والعظمة . وبالعلم والأخلاق والمثابرة والصبر والتعاون والاتحاد والتفكير فى المصلحة العامة ، نستطيع أن نصل إلى ما نريد من الكمال . فالعلم قوة دونها كل قوة ، والأخلاق النبيلة أكبر وسيلة للوصول إلى القوة والعظمة .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَكْثَرُ ما يُدخِلُ الناسَ الجنةَ تقوَى اللهِ وحسنُ الخُلقِ . » وقال : « أحسنُ الحسنِ الخُلقُ الحَسَنُ » . وقال : « أقربُكمْ منّي مجلساً أحاسِنُكم أخلاقاً ، الموطَّئُونَ أكنافاً ، الَّذِينَ يأْلَفون ويُؤلَفونَ . » .

وقال : « المؤْمِنُ إلفٌ مألوفٌ . ولا خيرَ فيمن لا يأْلَفُ وَلا يُؤلَفُ . »

وقال : « أكمَلُ المؤمنينَ إيماناً أحسنُهم خُلُقاً ، وألطفُهم بأهلِهِ . »

عظمة الإسلام تبدو فى مبادئه وآدابه المثالية

وسنكتفى بذكر شيء منها فنقول :

أدب الحديث فى الإسلام

كثيراً ما أدى اللسان إلى المصائب ، وجر الإنسان إلى المهالك . لهذا قد علمنا الإسلام كيف نخاطب الناس ، وكيف نتحدث معهم ، وكيف نحيِّيهم ، وكيف نسألهم ، وكيف نجيبهم . وأرشدنا أن نعقل اللسان إلا عن حق يوضحه ، أو باطل يدحضه ، أو حكمة ينشرها ، أو نعمة يذكرها ، ولا يتكلم به إلا بقدر الضرورة ، وأن يقتصر فى التكلم به على قدر مايقيم به حجته ، ويبلغ حاجته . وإذا سئل غيره فلا يجيب عنه . وأن يكلم كل إنسان بما يليق به ، ويخاطب الناس على قدر عقولهم . وألا يتكلم إلا إذا دعا داع إلى الكلام . وأن يجتنب فى محادثته ثلاثة أشياء ، وهى أبغض الأشياء لله ، وأقبحها عند الناس ، وهى : الكذب والنميمة ، والغيبة ، وألا يتكلم إلا فيما يعنيه ، وأن يضع الكلام فى موضعه . وألا يرفع صوته فوق صوت من هو أكبر منه سنا .

و إن عقل المرء مخبوء تحت لسانه . قال على بن أبى طالب كرم الله وجهه : لسان العاقل وراء قلبه ، وقلب الأحمق وراء لسانه .

وقال تعالى فى النهى عن التكلم فيما لا يعنى ، والسؤال عما يضر ولا يفيد : « يأَيُّها الذينَ آمَنوا لا تَسأَلوا عَن أَشياءَ إنْ تُبْدَ لَكم تَسُؤْكم . وإن تَسأَلوا عَنها حينَ يُنَزَّلُ القرآنُ تُبْدَ لَكمُ . عَفَا اللهُ عَنها . واللهُ غَفورٌ حليمٌ . »

فأرشدت الآية الكريمة إلى بيان تأديب الله تعالى عباده ، وتعليمهم الأدب معه ومع رسوله ؛ إذ نهاهم عن أن يسألوا عن وجوب ما لم يجب ، أو حرمة ما لم يحرم ؛ كى لا يكلفوا ما لا يطيقون . وهذا ما يؤخذ من قوله صلى الله عليه وسلم لسراقة بن مالك حين سأله عن وجوب الحج فى كل عام : « وَيحكَ ، ومايؤمنك أن أقولَ نعَم ، والله لو قلتُ نعم لوَجبَت ، ولو وَجبَت ما استطعتم . ولو تركتُم لكفرتُم . فاتركونى ما تركتكُم . فإنما هلكَ مَن كانَ قبلكم بكثرة سؤالِهم ، واختلافِهم على أنبيائِهم . فإذا أمرتُكُم بأمرٍ فخُذوا مِنه ما استطعتُم . و إذا نهيتُكم عن شيء فاجتنبوهُ . »

وقال عز وجل فى الحث على التكلم مع الناس بالحسنى ، واللين ، والرفق ، ومُجانبة الفظاظة فى القول ، والغلظة فى الحديث : « وَقُولوا للنَّاسِ حُسْناً . » أى كلموهم كلاماً طيباً عند محادثتكم لهم ، ومخاطبتكم إياهم . وليكن حديثكم معهم هيناً ليناً ، ليس بالمرتفع فيمج ، ولا بالمنخفض فيطلب المستمع إعادته .

وقد أرشدنا الله إلى حسن الأدب فى الكلام والمحادثة، والمجاملة فى التخاطب ، واجتناب الخشونة فى الحديث . حيث قال جل شأنه : « وقُلْ لِعبادِى يَقولوا الَّتى هىَ أحسنُ ، إنَّ الشيطانَ يَنزَغُ بَينَهم ، إنَّ الشيطانَ كانَ للإنسانِ عَدُوًّا مُبيناً . »

فقد أمر نبيه عليه الصلاة والسلام أن يذكر لعباد الله أن يقولوا فى محادثاتهم الكلمة الطيبة ، والكلام الحسن الذى لا خشونة فيه . فإنهم إن لم يفعلوا ألقى الشيطان بينهم العداوة والبغضاء .

وقال تعالى فى الحث على خفض الصوت عند المحادثة : « واغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ ، إنَّ أنكرَ الأصواتِ لَصَوْتُ الحميرِ . »

وقال جل شأنه : « وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ ، هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ، مَنَّاعٍ للخيرِ ، مُعْتَدٍ أثيمٍ . »

فبيَّن اجتناب المجالسة والمحادثة مع من لا خلق لهم من الناس ، وعدم طاعتهم فى كل ما يقولون . فهذه سبعة أوصاف كلها مثالب ومعايب نهى الله نبيه عن طاعة المتصفين بها . والحكمة فى النهى أن :

الحلَّاف — وهو الشخص الكثير الحلف، سواء فى الحق أو فى الباطل — قلما يتحرَّى الصدق فى أيمانه ، فهو عرضة للكذب والخطأ فيها .

والمهين : هو حقير الرأى والتدبير . وإن طاعته ربما أوردته المهالك ؛ لأنه يريد أن ينفع فيضر ، فطاعته مضرَّة .

والهمَّاز : هو العَيَّاب الذى يعيب الناس كثيرا ، فهو اليوم لهم، وغدا عليهم؛ لخسة فى أصله ، ولؤم فى طبعه .

والمَشَّاء بالنميم : هو النقَّال للحديث من قوم إلى آخرين ليفسد بينهم . لا همَّ له إلا الإيقاع بين الناس، و إلقاء بذور الشقاق فيما بينهم. ومثل هذا تحرم طاعته، وتكره مجالسته ؛ لأن فى طاعته ضررا ، وفى مجالسته خطرا . فكثيراً ما هلك وأهلك ، وأراق الدماء بين الناس .

والمنَّاع للخير : هو البخيل الممسك الذى لا خير فى صحبته وطاعته .

والمعتدى : هو الظالم الذى لا يؤمن شره ، ولا يؤمَّل خــيره . فهو أولى بالاجتناب ، وأحرى بنبذ طاعته سدا للباب .

والأثيم : هو كثير الإثم والمعصية ، لم يبال المجاهرة بمعصية خالقه ، فلا يبالى أن يجاهر صاحبه بعداوته . ومثل هذا تنبذ طاعته ، وتجتنب مخالطته .

وقال عز وجل فى النهى عن الـكذب فى القول : « إنَّ الذينَ يَفترُونَ عَلَى اللهِ الـكذِبَ لا يُفلِحون . » فبين قبح الـكذب ، وذمّ فاعله ، وأخبر عن الـكذابين بأنهم لا يفلحون ، ولا ينجحون .

ومن الآداب الإسلامية الـكريمة : التحية الحسنة ، والسلام ، قال تعالى : « وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا . »[1]

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يُسَلِّمُ الراكبُ علَى الماشى ، والماشى على القاعِدِ ، والقليلُ على الـكثير . »

عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رجلاً سأل النبى صلى الله عليه وسلم: أىُّ الإسلامِ خيرٌ ؟

قال : « تُطعِمُ الطعامَ ، وتقرأُ السلامَ على مَن عَرفْتَ وعلى مَن لَمْ تَعْرِفْ . »

وقال عليه الصلاة والسلام : « ليسَ مِنَّا مَن لَطَمَ الخدودَ ، وشَقَّ الجُيُوبَ ، ودَعَا بدعوَى الجاهليةِ . »

وكان رسول الله لا يحب المظاهر ، ولا يحب أن يمدحه أحد ، ولا أن يقف لمجيئه أحد . وكان يقول : « لا تُطْرونى كمَا أَطْرتِ النصارَى ابن مريم ، إنما أنا عبدُ الله ، فقولوا عبد الله ورسوله . »

---

(١) النساء : ٨٦

أدب المجالسة فى الإسلام

إن من آداب الإسلام أن يوسع الإنسان لجليسه إذا أقبل عليه، و يلتزم معه الأدب والوقار إذا كان أكبر منه سنا ، وخاصة إذا كان أبا أو أستاذا له ، وألا يبصق ولا يتمخط إلا فى منديل مواريا وجهه عن جليسه ، وأن يضع يده على فمه إذا تثاءب ، ولا يحدث صوتا عند تثاؤبه . وقد أشار الله إلى بعض هذه الآداب فى قوله تعالى : « يأيُّها الذينَ آمنوا إذا قيلَ لكم تفسَّحوا فى المجالِسِ فافسَحُوا يَفْسَحِ اللهُ لكم . » أى إذا قدم عليكم جماعة من الناس فوسعوا للقادمين مسرعين، سواء أكان المجلس مجلس تعليم أم عبادة ؛ لأن ذلك يكون سببا للتواد والتحاب .

وليس للقادم أن يقيم أحدا من مجلس ليجلس مكانه ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يُقيمُ الرجلُ الرجلَ من مجلسِهِ ، ولكن تفسَّحوا وتوَسَّعوا . » والغرض من التوسعة فى المجلس للقادم الحفاوة به ، والعناية بشأنه . لهذا حث الله على النهوض بسرعة للتوسعة للقادم ، فقال : « و إذا قِيلَ انشزُوا فانْشُزوا ، يَرفعِ اللهُ الذينَ آمَنوا مِنكم ، والذينَ أوتُوا العِلمَ درَجاتٍ ، واللهُ بما تَعملونَ خبيرٌ . » والمعنى : و إذا قيل لكم انهضوا للتوسعة للقادمين عليكم فى المجلس فانهضوا وأسرعوا ، ولا تتثبطوا ؛ فإنكم إن فعلتم ذلك يرفع الله الذين آمنوا منكم ، والذين أعطوا العلم درجات عظيمة ، جزاء امتثالهم لأمر الله تعالى فى توسعتهم لإخوانهم فى مجالسهم . ولا تخفى على الله خافية من أعمالكم ، فيجازيكم بالخير خيرا ، و بالشر شرا . وفى الآية أيضاً ما يدل على فضل العلم والعلماء .

وقد نهى الرسول عليه الصلاة والسلام أن يجلس الرجل بين الرجلين إلا بإذنهما . ومما ورد فى آداب المجالسة فى الإسلام قوله صلى الله عليه وسلم : « إذا

كُنْتُمْ ثلاثةً فلا يَتناجَ رجلانِ دون الآخَرِ ، حتَّى تختلِطوا بالنَّاسِ ، أَجْلَ ، إنَّ ذلِكَ يُحزِنهُ . » والحديث صريح فى أن المناجاة — أى الكلام سرا بين الاثنين دون الآخر — منهى عنها ؛ لأن التسار يدخل على قلب الجليس الثالث الوحشة والريبة ، فيتألم ويحزن . ومن هذا القبيل أن يتكلم اثنان جهرة بصوت مرتفع بلغة يجهلها الثالث ، مع اشتراكهم جميعاً فى معرفة لغة أخرى . هذا هو روح الإسلام ، ويبدو فيه الأدب الجميل ، والذوق الرفيع .

انظر إلى نبل الرسول العظيم فى حديثه النبوى : « يُسلِّمُ الصغيرُ علَى الكبيرِ ، والمارُّ على القاعِدِ ، والقليلُ علَى الكثيرِ ، والراكِبُ علَى الماشى . » تجد فيه كل نبل وذوق .

وذات يوم جاء الرسول فقام له أصحابه ، فقال عليه الصلاة والسلام : « لا تَقوموا كمَا تَقومُ الأَعاجِمُ يعظِّمُ بعضهم بعضا . »

من الآداب المثالية فى الإسلام

لقد قصد الإسلام أن يكون الإنسان مثلا صالحا ، محمود الخصال ، شريف الشمائل ، كريم الأخلاق ، إن تكلم صدق . وإن وعد وفى بوعده ، وإن اؤتمن فى أمر أدى الأمانة ولم يخن ، وإن تمكن من عمل محرم كان عفيفا ، وامتنع عنه . وإن رأى أمرا منكرا غيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه . وإن تكلم غض من صوته ، وإن مشى لم يكن مختالا فى مشيته . وإن رأى كبيرا وقره . وإن مر بلغو من القول أو الفعل تجنبه ، وهكذا من كل خصلة حميدة ، وصفة حسنة جميلة .

قال صلى الله عليه وسلم : « أدَّبنى ربى فأحسنَ تأديبى » وقال : « وَإِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتمِّمَ مكارمَ الأخلاقِ . » وقد خاطبه الله بقوله : « وإنكَ لعَلَى خُلُقٍ عظيمٍ . »

ومن الآيات الكريمة والأحاديث النبوية الآتية تبدو الآداب المثالية في الإسلام:

« وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ ، واغْضُضْ مِن صَوْتِكَ » .

« إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ مَن كانَ مُخْتالاً فَخُوراً . »

« والعَصْرِ ، إنَّ الإنسانَ لَفِي خُسْرٍ (أى ضلال وهلاك ونقص) إلاَّ الذِينَ آمَنوا وعَمِلُوا الصالحاتِ ، وَتَوَاصَوْا[1] بالحقِّ ، وتَوَاصَوْا بالصَّبْرِ . »

« يأيُّها الذِينَ آمَنوا لا تُبْطِلوا صدَقَاتِكم بالمَنِّ والأذَى . »

« آيةُ المنافِقِ ثلاثٌ : إذا حدَّث كذَبَ ، وإذا وعَدَ أخلفَ ، وإذا اؤتُمِنَ خانَ . » « أدِّ الأمانةَ إلَى مَنِ ائْتَمَنَكَ ، ولا تَخُنْ مَن خانَكَ . »

« مَن رأى مِنْكمْ مُنْكَراً فَلْيُغَيِّرْهُ بيدِه ؛ فإن لَمْ يَستَطِعْ فَبِلسانِه ، فإن لم يَستَطِعْ فبِقَلْبِهِ ، وذلك أضعفُ الإيمانِ »

« لا يُقيمُ الرجلُ الرجلَ من مَجْلِسِه ثمَّ يَجلسُ فيهِ ، ولكنْ تفَسَّحُوا وتوَسَّعُوا . »

« إذا نظَرَ أحدُكم إلَى مَنْ فُضِّلَ عليهِ في المالِ والخلْقِ فَلْينظرْ إلى من هو أسفَلُ منه . »

وقال تعالى : « ولَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ القلبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ . »

وقال : « هَلْ يَسْتَوِى الذينَ يَعلَمُونَ وَالذينَ لا يَعْلَمونَ ؟ »

وقال : « وَلا تَتَمَنَّوْا ما فَضَّلَ اللهُ بهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعضٍ . لِلرِّجالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا ، ولِلنِّساءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ . »

وقال : « لا يَسْتَوِى الخَبِيثُ والطَّيِّبُ ، ولَوْ أعجبَكَ كَثرةُ الخَبِيثِ . »

وقال : « ولا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاس ، ولا تَمشِ فى الأرضِ مَرَحاً ، إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ كلَّ مُختالٍ فَخُورٍ . وَاقصِدْ فى مَشيِكَ ، وَاغضُض مِن صَوْتِكَ ؛ إنَّ أنكرَ الأصواتِ لَصَوْتُ الحَمِيرِ . »

---

(١) أوصى بعضهم بعضاً بالإيمان ، والصبر على الطاعة ، وعن المعصية .

وقال : « إنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِم . »

وقال : «الَّذِينَ يَنقضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ، وَيَقْطَعُونَ ما أَمرَ اللهُ بهِ أَنْ يُوصَلَ، وَيُفسِدُونَ فى الأَرْضِ ، أُولئِكَ هُمُ الخاسِرُونَ . »

وقال : « قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ . »

عن عائشةَ رضى الله عنها قالت : « سُئِل رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : أَىُّ الأعمالِ أَحبُّ إلى اللهِ تعالى ؟

قال : أَدوَمُها وإن قَلَّ . »

وعن جابر رضى الله عنه قال : ما سُئِل النبىُّ صلى الله عليه وسلم عن شىء قط فقال لا . »

وعن أَنَس رضى الله عنه قال : خَدمتُ النبى صلى الله عليه وسلم عَشْرَ سنينَ ، فما قال لى أُفٍّ ، ولا لِمَ صَنَعْتَ ، ولا أَلاَ صَنَعْتَ . »

« لا تَباغَضُوا ، ولا تَحاسَدوا ، ولا تَدابَرُوا ، وكونوا عِبادَ اللهِ إخواناً . ولا يَحِلُّ لمسلمٍ أن يَهْجُرَ أَخاه فوقَ ثلاثةِ أيام . »

« مَثَلُ المؤمنينَ فى تَوادِّهِم وتَراحُمِهِم وتعاطفِهِم مَثَلُ الجَسَدِ ، إذا اشتكى منهُ عضوٌ تداعَى لهُ سائرُ الجسدِ بالسهَرِ والحمَّى . » أى إذا شكا منه عضو ، مرض بسبب مرضه بقية أعضاء الجسم؛ لتشارك العضو المريض فى أَلمه .

قال عليه الصلاة والسلام : « يَسِّرُوا ولا تُعَسِّرُوا ، وبَشِّرُوا ولا تُنَفِّرُوا . »

وعن أبى موسى رضى الله عنه قال : قالوا يا رسولَ الله ، أَىُّ الإسلام أَفضلُ ؟ قال : « مَن سَلِمَ المسلمونَ مِن لِسانِه ويَدِه . »

قال صلى الله عليه وسلم : « أَنزِلوا الناسَ مَنازلَهم . » « ارحَمُوا عزيزَ قومٍ ذَلَّ ، وغَنِىَّ قَوْمٍ افتقَرَ . »

« مَن لم يَرْحَمْ صغيرَنا ، ويَعرِفْ حقَّ كبيرنا فليسَ مِنَّا . »

وقال : « وَقِّرُوا علماء أُمَّتي ؛ فإنَّهم نجُومُ الأرضِ . »

وقال : « أكملُ المؤمنينَ إيماناً أحسنُهم أخلاقاً . »

وقال : « مكارمُ الأخلاقِ مِنْ أعمالِ أهلِ الجنَّةِ . »

وقال : « أحسنُ الحُسنِ الخُلقُ الحَسَنُ . »

وقال : « أكثرُ ما يُدْخِلُ الناسَ الجنَّةَ تقوى اللهِ ، وحسنُ الخُلُقِ . »

وقال : لا تزَالُ أُمَّتي بخَيرٍ مالَم ترَ الأمانةَ مَغنَماً ، والصدَقةَ مَغرَماً . »

وقال : « إذا أرادَ اللهُ بعبدٍ خيراً جعَلَ له واعظاً من نَفْسِه . »

وقال : « اليدُ العُليا خيرٌ منَ اليدِ السُّفْلَى . وابْدَأْ بمَنْ تَعولُ . »
أى اليد المتصدقة خير من اليد الآخذة، وابدأ بمن تَلزمك نفقته من عيالك .

وقال: «ثلاثٌ مُنْجِيَاتٌ، وثلاثٌ مُهلِكاتٌ: فأَمَّا المُنجِيات فَخَشيةُ اللهِ تعالَى فى السِّرِّ والعَلانيةِ ، والاقتصادُ فى الغِنَى والفقرِ ، والحُكمُ بالعَدْلِ فى الرِّضَا والغَضبِ . وأما المُهلِكاتُ ، فَشُحٌّ مُطاعٌ ، وهَوًى مُتَّبَعٌ ، وإعجابُ المرءِ بنَفْسِه . »

« ألاَ أُخبرُكُمْ بشَرِّ عبادِ اللهِ؟ الفَظُّ المستكبِرُ؟ ألاَ أُخبرُكُمْ بخَيرِ عبادِ اللهِ؟ الضعيفُ المستضعَفُ(١)، ذوالطِّمرينِ(٢) لا يُؤْبَهُ(٣) له، لوأقسمَ علَى اللهِ لأَبرَّهُ(٤) . »

---

(١) المستضعَف : من يتجبر عليه الناس لضعفه وفقره .

(٢) الطِّمر : الثوب الخلَق . (٣) لايهتم به.

(٤) لحقق له رغبته ، وصدقه فى حلفه .

وقال : « قد أفلحَ مَن أخلصَ قلبَه للإيمانِ ، وجعلَ قلبَهُ سليماً ، ولسانَه صادقًا ، ونَفسَه مُطمئنةً ، وخليقتهُ مستقيمة . »

وقال : « شَرُّ ما في الرَّجلِ شُحٌّ هالِعٌ[1] ، وجُبنٌ خالِعٌ[2] . »

وقال : « أربعٌ مَنْ كُنَّ فيهِ كانَ مُنافقاً خالصاً . ومَنْ كانَتْ فيهِ خَصلَةٌ منهنَّ ، كانت فيهِ خَصْلَةٌ من النِّفاقِ حتَّى يَدَعها : إذا اؤتُمن خانَ . وإذا حدَّث كذَبَ . وإذا عاهدَ غدَرَ . وإذا خاصمَ فجَر . »

وقال : « مَنْ كانَ يُؤْمنُ باللهِ واليوْمِ الآخرِ فلْيُكرِمْ ضَيْفَه . ومَن كان يُؤْمنُ باللهِ واليوْمِ الآخرِ فلْيُحْسِنْ إلى جارهِ . ومَنْ كانَ يُؤْمنُ باللهِ واليوْمِ الآخِرِ فليقُلْ خيراً أو ليَصْمُتْ . »

وعن أبي هريرة قال : قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « تَجِدُ مِنْ شِرارِ الناسِ يَوْمَ القيامةِ عنـد اللهِ ذا الوَجهَينِ ، الَّذي يَأْتي هؤُلاءِ بوَجْهٍ ، وهؤُلاءِ بوَجهٍ . »

وعن حُذَيفةَ قال : سمعتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم يَقولُ : « لا يَدخلُ الجنَّةَ قتَّاتٌ ، وفي رواية : نمَّامٌ . » والقتَّاتُ هو النمَّامُ ، والنمام الذي ينقل حديث الناس بعضهم إلى بعض للوشاية والسعاية والإفساد .

وقال : « الحياءُ لا يأْتي إلاَّ بخيرٍ . »

وقال : « لا يُلدَغُ المؤْمنُ مِن جُحْرٍ مرَّتَينِ . »

وقد بين جل شأنه أكمل الآداب التي يجب على الرجال والنساء التخلق بها ، والتحلي بحلاها ، فأمر بغض البصر ، وحفظ الفرج ، وعدم التبرج ، وعدم فعل أي شيء من دواعي الميول الحيوانية ، أو إثارة الفتنة ، سواء أكان ذلك للرجال

(١) مفزع . (٢) شديد .

أم للنساء . قال تعالى : « قُلْ للمؤمنين يَغُضُّوا مِنْ أبصارِهم ، ويَحفَظُوا فرُوجَهم ، ذلك أزكى لهم . إن اللهَ خبيرٌ بما يَصنعون . »

فأمر الرجال بغض أبصارهم عن النظر إلى الأجنبيات ، وحفظ فروجهم من التعدى على عرض غيرهم ؛ لأن النظر بالعين يزرع فى القلب الشهوة المهلكة لصاحبها . ولهذا كان حفظ العين من الأمور الهامة الدالة على قدر الإنسان .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إياكمْ والجلوسَ فى الطرُقاتِ . »

قالوا : يا رسول الله ، لا بدَّ لنا منْ مجالِسنا نقعدُ فيها .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فإنْ أبيتمْ إلاَّ المجالسَ فأعطُوا الطَّريقَ حقَّها . »

قالوا : وما حقُّ الطريق يا رسول الله ؟

قال : غَضُّ البَصرِ ، وكفُّ الأذَى ، ورَدُّ السلامِ ، والأمرُ بالمعروفِ ، والنَّهىُ عن المُنكرِ . »

وقد بينت الآداب الخاصة بالنساء فى قوله تعالى : « وقُلْ للمؤْمناتِ يَغضُضْنَ مِنْ أبصارِهنّ ، ويَحفظْنَ فرُوجَهُنّ ، ولا يُبدِينَ زينَتَهنّ إلاَّ ما ظَهَرَ منها ، وليَضْرِبْنَ بخُمُرِهنّ عَلَى جيُوبِهنّ ، ولا يُبدينَ زينَتَهُنّ إلا لبُعُولَتِهنّ أو آبائِهنّ ، أو آباء بُعولَتهِنّ ، أو أبنائِهنّ ، أو أبناء بُعولَتِهنّ ، أوْ إخوانِهنّ ، أوْ بَنِى إخوانِهنّ ، أوْ بَنِى أخوَاتِهنّ ، أوْ نِسائِهنّ ، أوْ ما مَلَكتْ أيمانُهنّ ، أو التابعين غيرِ أولى الإربةِ من الرِّجالِ أو الطِّفلِ الذينَ لم يَظهَرُوا عَلى عَوْراتِ النساء ، ولا يَضرِبْنَ بأرْجُلِهنّ ليُعلَمَ ما يُخفِينَ مِنْ زينَتِهنّ . وَتوبُوا إلى اللهِ جميعاً أيُّها المؤمنونَ ، لعلَّكمْ تُفلِحون . »

ومن هذه الآيات الكريمة يؤخذ أن الآداب الإسلامية الخاصة بالنساء هي أن يغضضن أبصارهن، ويمنعنها النظر إلى غير أزواجهن، ولا يظهرن شيئا من زينتهن للأجانب إلا ما ظهر منها ، ولا يمكن إخفاؤه كالثياب الظاهرة ، وأن يلقين على صدورهن ونحورهن مقانع ليسترنها عن أعين الناظرين، فلا يرون منها شيئا . ولا يظهرن زينتهن إلا لأزواجهن ، أوآبائهن ، أو آباء أزواجهن، أو أبنائهن، أو أبناء أزواجهن ، أو إخوانهن ، أو بني إخوانهن،أو بني أخواتهن، أو نسائهن المختصات بخدمة أو صحبة ، أو ما ملكت أيمانهن من الإماء . — أما الذكور فلا يجوز إبداء الزينة لهم — والأجراء والأتباع الذين ليسوا أكفاء ولا حاجة لهم إلى النساء ، أو الأطفال الذين لا يميزون — فهؤلاء لا بأس من ظهور الزينة أمامهم .

وإن الحكمة في عدم إبداء الزينة ما يترتب على ذلك من المفاسد والمضار حتى نهى الشارع المرأة أن تضرب الأرض برجلها ، ليعلم ما خفي من زينتها . « وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ » .

المثل العالية في الآداب الإسلامية

إن من يتتبع القرآن الكريم والأحاديث النبوية يجد كثيراً من المثل العليا في الأخلاق الإسلامية . فالإسلام يدعو إلى السمو والنبل في الخلق ، وحسن المعاملة ، والتسامح في غير ضعف ولا ذلة ، والعفو عند المقدرة ، وكظم الغيظ ، وضبط النفس ، والصبر عند الشدائد ، والترفع عن النقائص ، والعدالة في الحكم ، والإحسان إلى المحتاجين ، والتعاون على البر والتقوى . وينهى عن الظلم والأثرة والغدر ، والتجسس ، والغيبة ، وسوء الظن ، وأكل مال اليتيم .

وسنكتفي هنا بذكر أمثلة من الآيات والأحاديث التي تتمثل فيها المثل العليا في الإسلام :

« أُدعُ إلى سَبيلِ ربِّكَ بالحكمةِ والموعظةِ الحسنةِ ، وجادِلهُمْ بالّتي هيَ أحسنُ . »(١)

« اِدفعْ بالّتي هيَ أحسنُ السيئةَ ، نحنُ أعلمُ بما يَصِفُون(٢) »

« والكاظِمينَ الغيظَ ، والعافينَ عَنِ النَّاسِ ، واللهُ يُحِبُّ المحسنين . »

« وإنْ عاقَبتُمْ فعاقِبوا بِمِثلِ ما عُوقِبتُمْ بهِ . ولَئِنْ صبَرْتُمْ لَهُوَ خيرٌ للصابرين(٣) . »

« وبَشِّرِ الصابرينَ الَّذينَ إذا أصابتهُمْ مُصيبةٌ قالوا إنَّا للهِ ، وإنَّا إليهِ راجعونَ . »

« ويُؤْثِرُونَ على أنفُسِهم ، ولو كانَ بهم خصاصةٌ . »

« يَسألونكَ ماذا يُنفِقُون ؟ قُلْ ما أنفقتُمْ منْ خيرٍ فلِلوالدَيْنِ والأقرَبين واليتامَى والمساكينِ ، وابنِ السبيلِ ، وما تفعَلوا مِنْ خيرٍ فإنَّ اللهَ بهِ عليمٌ . »(٤)

« قولٌ معروفٌ ومغفرةٌ خيرٌ منْ صدقةٍ يتبَعُها أذًى ، واللهُ غنيٌّ حليمٌ . يأيها الَّذين آمنوا لا تُبطلوا صدقاتِكم بالمَنِّ والأذى ، كالذى يُنفقُ مالَهُ رئاءَ الناس ولا يُؤمنُ باللهِ واليومِ الآخرِ(٥) . »

---

(١) النحل ١٢٥ .

(٢) المؤمنون ٩٦ .

(٣) النحل ١٢٦ .

(٤) البقرة ٢١٥ .

(٥) البقرة : ٢٦٤ .

« وتعاونوا على البرِّ والتقوى، ولا تعاونوا على الإثم والعدوانِ، واتقوا اللهَ، إنَّ اللهَ شديدُ العقابِ . »

« يأيها الذينَ آمنوا اجتنِبُوا كثيراً مِنَ الظَّنِّ ؛ إنَّ بعضَ الظنِّ إثمٌ . ولا تجسَّسُوا ، وَلا يَغتَبْ بعضُكم بعضاً. أيُحِبُّ أحدُكُم أنْ يأكُلَ لحمَ أخيهِ مَيْتاً ؟ »

« إنَّ الذين يأكُلون أموالَ اليتامَى ظُلماً إنَّما يأكلُون فى بُطونِهم ناراً ، وسيَصْلَوْن سعيراً . »

« ولا تقربُوا مالَ اليتيمِ إلاَّ بالَّتى هىَ أحسنُ . »

« لن تنالوا البرَّ حتَّى تُنفِقوا مما تُحِبُّون . »

« إنَّ اللهَ يأمرُ بالعدلِ والإحسانِ وإيتاءِ ذِى القُرْبَى، ويَنهَى عن الفحشاء والمنكرِ والبغْى ، يَعظُكم لعلَّكم تذكَّرُون . »

« ولمن صبرَ وغفَرَ إنَّ ذلكَ لمِنْ عَزمِ الأُمورِ . »

الفصل الثالث

السلام روح الإسلام

الدعوة إلى الإسلام:

إن صاحب الشريعة الإسلامية هو محمد بن عبد الله الأمى العربى ، الذى أرسله الله تعالى إلى الناس بشيراً ونذيراً ، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيراً ، ليجمع بهديه القلوب المتفرقة،والنفوس القاسية، ويزيل التنازع بين الناس ، ويأمر بطاعة الله وتوحيده ، وينهى عن معصيته والإشراك به ، ويعرفهم ما يتعلق بحقوق العباد لتقديرها واحترامها ، فيتبعوا فى شأنها شرعه المسموع ، وينقادوا إلى دينه المتبوع ، دين الفطرة والعقل والمنطق والبساطة واليسر .

ولما جاء رسول الله قومه برسالته كان موقفهم منه موقف الأمم السالفة من أنبيائها ورسلها ، فصدقه فريق هداه الله . وكذبه فريق حقّت عليه الضلالة ، وقيل له ما قيل للرسل من قبله . وكانوا حينما بلغهم أن أهل الكتاب كذبوا رسلهم ، قالوا : لعن الله اليهود والنصارى ، لوأتانا رسول لنكونَنّ أهدى من إحدى الأمم.«فلمّا جاءهم نَذيرٌ مازادَهم إلاَّ نُفوراً ، استِكباراً فى الأرضِ ، ومكرَ السَّيِّىء » .

وكيف يخضع أبوجهل أو عتبة بن ربيعة أو غيرهما من كبار قريش إلى محمد ابن عبد الله، ذلك الفتى اليتيم الفقير الذى لايملك كفاف أهله ؟ وكيف يصبحون منقادين إلى شريعته وهم سادة قومهم وقادتهم ، وذوو الكلمة العليا فيهم ، وهو لاجاه له ، ولامال ولاسلطان ، ولاسليقة فى الشعر ، ولاشىء مما يكسبه المكانة

والمهابة حتى يرقى إلى مستوى الآمر الناهى ، الذى يأمر وينهى ؟ وهل يليق بهم أن يتدينوا بدين يسوى بين الملوك والسوقة ، والأغنياء والفقراء فى الحق ؟ بل عجبوا أن جاءهم فى زمنهم ، واستدلوا بكونه إنسانا من البشر على كذبه فى ادعاء الرسالة ؛ لاعتقادهم أن الرسول لا يكون إلا ملكا .

ولما تقدم إليهم بمعجزته التى لا مثيل لها — وهى القرآن الكريم — قالوا: «إنْ هٰذا إلاَّ إفكٌ افتراهُ وأعانَه عليه قومٌ آخَرون ..» وقالوا : « أساطيرُ الأوَّلينَ اكتَتبها ، فهيَ تُمْلَى عَليه بكرةً وأصيلاً . » « وقالَ الَّذين كفَروا للحقِّ لمَّا جاءهم إنْ هٰذا إلا سِحرٌ مُبينٌ . » « وإذا قيلَ لهم اسجُدوا للرحمنِ قالوا : وما الرحمنُ ؟ أنسجُدُ لِما تَأمرُنا ؟ وزادهم نفُوراً . »

وقد تحداهم الرسول الأمين بأن يأتوا بسورة من مثله، فأعجزهم ، ولم يستطيعوا، وعلموا حق العلم أن القوة البشرية دون مكانته من البلاغة . فكان من الواجب عليهم أن يعدوا هذا العجز دليلا على أن القرآن من عند الله ، جاء على لسان رسول الله ، محمد بن عبد الله ، لكنهم لم يفعلوا ، ولم يعترفوا بإعجاز القرآن، « بل قالوا أضغاثُ أحلامٍ ، بل افتراهُ ، بل هوَ شاعر . »

وقد عومل رسول الله صلى الله عليه وسلم معاملة كلها قسوة وغلظة فى بدء دعوته ، فحماه عمه أبو طالب ، وحمى دعوته . وبعد أن توفى عمه أبو طالب اضطر إلى أن يعرض نفسه على القبائل لإيوائه وحمايته ، حتى أمره الله بالهجرة إلى أهل غير أهله ، ودار غير داره ، بعد أن أجمع أعداؤه من قريش وتآمروا على قتله ، ليستريحوا منه ، فلم يفلحوا . ومع ذلك كله لم تكف قريش عن إيذائه ، وطلبه وتتبعه حيثما كان ، بل غاظهم كثيراً أنه وجد دارا يهاجر إليها ، فأعدوا العدة لقتاله فى دار هجرته ، ليخرجوه منها كما أخرجوه من مكة . فما الذى يصنعه رسول الله وموقفهم منه هو هذا ؟ ألا ينبغى عليه — وقد صار فى عز ومنعة ،

ومال وقوة — أن يفكر فى العودة إلى مكة ، ليخضع قريشا بعد أن أذن الله له فى القتال، وأمره بالصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ؟

لكن رسول الله لم يهاجم ، ولم يقف موقف الهجوم ، ولكنه وقف موقف المدافع فقط ، حتى جاءته قريش فهاجمته ، وعند ذلك فقط قام ليدافع عن نفسه وقومه ودعوته . وهذا هو الجهاد المشروع فى الدين الإسلامى . وتتسع دائرته فيكون لحماية الدعوة الإسلامية ، والمستجيبين إليها مطلقا ، ولو كانوا فى السجون بمكة يعذبون ليعبدوا اللات والعزى ، والأصنام والأوثان . « وَمالكم لا تُقاتِلون فى سَبيلِ اللهِ وَالمستَضْعَفين من الرجالِ والنِّساءِوالولدان الذين يَقولون: ربَّنا أَخرِجنا مِن هذهِ القريةِ الظالِمِ أَهلُها، وَاجْعَلْ لنا مِنْ لدُنْكَ وَليًّا، وَاجعَلْ لنا مِنْ لدُنْكَ نصيراً . »

وتتسع دائرة الجهاد فى الإسلام فتشمل إزالة العقبات من طريق الدعوة ، حتى تأخذ طريقها المشروع لها ؛ لأن الدعوة الإسلامية دعوة حق وعدل و إنصاف ، يجب ألا يحول بينها و بين الناس حائل . و يمكننا أن نقول : إن موقف المسلمين من مخالفيهم فى العقيدة الدينية لم يكن عدائيا ، ولكنه كان موقف دفاع لا موقف هجوم .

ولم يكن القتال أساسا للعلاقات بين المسلمين وغيرهم ، ولكن السِّلم كان هو الأساس . و إن إذن الله تعالى للمسلمين بالقتال لم يكن لإكراه الناس على العقيدة الإسلامية ، بل لحماية الدعوة إلى الإسلام وأصحابها فقط . ولو لم يَثر المشركون من قريش فى وجه الدعوة ، و يؤذوا الرسول ومن تبعه من المسلمين ، و يهاجموا محمدا حيث هو — ماشهر عليهم المسلمون سيفا ، ولا أراقوا دما .

أما اليهود من أهل المدينة فقد عاهدهم الرسول عندما دخل المدينة ، وأمنهم

على أنفسهم وأموالهم ودينهم ، فنقضوا العهد ، وخانوا الميثاق ، وحسدوا رسول الله على ما آتاه الله من فضله ، وزعموا أنهم شعب الله المختار ، وأنهم أبناء الله وأحباؤه ، فكانوا يريدون أن يكون الرسول منهم ، ولا يصح في زعمهم أن يكون من غيرهم . ومن أجل ذلك لم يطيقوا كتمان ما أضمروه له من العداوة ، بل جاهروا بالعداء في مواضع شتى ، فانتهكوا حرمة الدين ، ونقضوا المعاهدة ، في شخص امرأة باعتدائهم علنا على مسلمة قصدت سوقهم لمصلحة ، وخانوا الميثاق، فدبّروا مؤامرة لقطع دابر المسلمين في شخص نبيهم ، وأرادوا اغتياله ، ونقضوا العهد بتحريض الأحزاب ضده ، أو الانضمام إليهم لمحاربة رسول الله.

ومن ذلك يتبين أن القتال في الإسلام كان تدبيرا وقتيا لأسباب خاصة محدودة ، وأن المسلمين اضطروا إليه اضطرارا، وحملوه تحميلا . وإن الإسلام يأبى على المسلمين أن يقتلوا من يخالفهم في العقيدة والدين لمجرد هذه المخالفة، ويأبى عليهم أن يُكرِهوا الناس حتى يكونوا مؤمنين .

مبادئ الإسلام في إقرار السلام :

لقد اعتُدِي على الإسلام في بدء الدعوة إليه ، مع أنه رسالة من الله ، نزلت لتطهر قلوب الناس من آفات الشرك وعبادة الأوثان . فإذا رماه المتعصبون من خصومه بأنه كيف يشرع الحرب في الوقت الذي يدعو فيه إلى تخليص القلوب من الميول العدوانية ، فليس لذلك من رد إلا أن الحرب التي شرعها الإسلام دفاعا أو هجوما — كانت أمراً طبيعيا ، تدعو إليه الغاية التي جاء من أجلها : لأنه لم يكن دعوة خاصة كغيره من الأديان ؛ ولأنه جاء لإقرار السلام والطمأنينة في العالم عن طريق الإيمان بدين واحد ، وهو دين الله الذي ارتضاه لعباده ، فإنه إذا توحدت المذاهب والأغراض والغايات أمن الناس بعضهم بعضا ، وعاشوا جميعا سعداء في ظل السلام والمحبة والوئام .

وليس أدل على ذلك مما عليه العالم اليوم من تناحر ، فهذه كتلة الأمم الشرقية لها مذاهبها ومبادئها ، وهذه الدول الرأسمالية ، التى تسير على مبدأ استعمار الشعوب الضعيفة ، وسلب خيراتها ، ونهب محصولاتها . كتلتان متناقضتان كل التناقض ، والعالم بينهما فى شد وجذب ، وقلق واضطراب ، إحداهما تدعو إلى السلام ، والأخرى تدعو إلى الحرب ، ولن يصلح حال الناس فى الأرض والعالم إلا بسيادة المحبة والسلام .

ومن أجل ذلك جاء الإسلام لينشر مبادئ السلام ، وروح المحبة والوئام . فلما قاومته السلطة المسيطرة على مصاير الناس فى العالم فى ذلك الحين ، وصدته عن سبيله اضطر إلى تحكيم السيف تحقيقا للسلام . فالإسلام لا يعرف الحرب العدوانية القائمة على مبادئ التوحش والبربرية ، وهى التى تقوم بها اليوم دول الاحتلال أو الاستعمار للتحكم فى الشعوب ، والاستيلاء على ما فيها من خيرات وموارد بأبخس الأثمان . فلم تكن الحرب التى شنها الإسلام من أنواع تلك الحروب الاستعمارية ، التى تفرضها الدول القوية الاستعمارية على غيرها من الأمم الصغيرة الضعيفة ، وإنما كانت حربا تستهدف الإصلاح الاجتماعى الشامل ، وإقرار مبادئ السلام بين الناس ، وصد كل من تحدثه نفسه بالاعتداء على الإسلام ؛ ولذلك رضى الإسلام من أهل الديانات الأخرى أن يظلوا على دينهم ، على أن يدفعوا الجزية ، حتى تكون دليلا على المسالمة ، وعدم التفكير فى الاعتداء .

وإن من يتأمل الآيات الشريفة التى نزلت فى تشريع القتال يجد فيها مايوصى وصاة مؤكدة بوجوب العدل فى الحرب، وعدم التمادى فى العدوان وتعقب المهزومين. قال تعالى : « وإن جَنَحوا[1] للسَّلْمِ فَاجنحْ لهَا ، وتوَكَّلْ عَلَى اللهِ . »

(١) جنح : مال .

وقد روى أن أسامة بن زيد تعقب مهزوما فى إحدى الغزوات ، حتى صعد وراءه فى الجبل ، فلما رأى الرجل السيف يكاد يهوى عليه نطق بالشهادتين : « أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله » ، ولـكن أسامة لم يلتفت إلى إسلام الرجل فى هذا الموقف ، ثم قتله .

و بلغ الخبر النبى صلى الله عليه وسلم ، فاستقدم أسامة. ولامه لوماً شديدا على ما فعله ، فقال أسامة : يارسول الله ! إنه نطق بالشهادتين خوفا من السيف ؛ لـكى ينجو بنفسه .

فقال النبى منـكرا عليه قوله : « يا أسامة ! أشققت عن قلبه ؟ » فهذه الرواية دليل على أن روح الإسلام هى إيثار السلام دائما ، فقد عنف النبى أسامة لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يرى أن مجرد النطق بالشهادتين يعصم دم الرجل .

وشن الإسلام الحرب من أجل احترام العهود والمواثيق ، قال جل شأنه : « وإِنْ نـكثوا أَيْمانَهم مِن بَعدِ عهدِهم ، وطَعَنوا فى دينِـكم ، فقاتِلوا أَئِمةَ الـكُفْرِ ، إنهمْ لا أَيْمانَ لهم ، لعَلَّهم يَنْتهون . »

لقد كانت حرب الإسلام لتقرير السلام الدائم الذى يسعد الناس فى ظله ، فتنصرف عقولهم إلى الإبداع ، والابتـكار والإنتاج من أجل السلام ، والدليل على ذلك أن العالم بعد انتشار الإسلام غمرته موجة من السلام والأمن والطمأنينة ؛ فقد استقرت الأوضاع الاجتماعية فى الأمم ، وتمتع الناس جميعا بحقوقهم المشروعة. ولا ينـكر هذه الحقيقة التاريخية إلا كل جاحد مكابر متعصب .

الإسلام يدعو إلى السلام

لم تقم دعوة الإسلام على السيف :

لا يمكن أن يشك إنسان منصف فى أن الدين الإسلامى دين يدعو إلى السلام ، ولم يكن دين حرب وقتال بالمعنى الذى يفهمه أعداء الإسلام ، بدليل أنه حينما دعا محمد صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام فى مكة كان يعتمد فى دعوته إلى العقل والمنطق والأدلة الإقناعية . وقد سلك الرسول الكريم هذا الأسلوب حينما أمر بالجهر بالدعوة فى قوله تعالى فى سورة الحجر : « فاصدَعْ بما تُؤمر ، وأعرضْ عن الجاهلين» فأعلن لقومه الدعوة إلى الله وتوحيده ، وأخذ يدعو قومه فى لين ورفق . ويقرأ عليهم القرآن ، ويطالبهم بالدخول فى دين الله ، مبينا لهم أنه دين الحق والفطرة السليمة ، وأن الله تعالى هو الذى خلق الخلق ، وهو القادر على إعادته بعد الموت . «وهوَ الَّذِى يبدَأُ الخَلْقَ ثمّ يُعيدُه ، وهو أهْوَنُ عَليه » أما الأصنام التى تعبدونها فإنها لا تملك لكم من الله شيئا ، ولم يترك صلوات الله عليه بابا من أبواب الإقناع والمجادلة الحسنة إلا طرقه ، ولكن قومه عموا عن الطريق المستقيم ، وصموا عن الحق ، وأصروا على معارضتهم ، واستكبروا استكباراً ، وأمعنوا فى إيذائه بكل الوسائل ، حتى كانت الهجرة من مكة إلى المدينة ، وابتدأ الإسلام ينتقل من عهد إلى عهد ، فأصبح فى المدينة دعوة ودولة معاً .

ولم يكن الإسلام كغيره من الأديان السابقة كاليهودية مثلا ؛ فقد كانت اليهودية عقيدة دينية ، تعصب لها أهلها ، وكرهوا أن يشاركهم فيها غيرهم .

أما الإسلام فقد نشأ فى وطن عربى يعتز بحريته ، فلا سيطرة لأجنبى عليه . ولم يكن ديناً خاصا ، بل كان دعوة عامة لجميع البشر ، لذلك جاء بالأصول التى

لا بد منها لإصلاح معايش الناس ، و إقامة نظام جديد من المعاملات ، تحترم فيه حقوق الناس ، و إنشاء مجتمع يقوم على إقرار دعائم الأمن والنظام ، والحرية والمساواة ، وكان ذلك بعد مدة طويلة من التاريخ مرت بالعالم ضاعت فيها العدالة ، وانتشرت المظالم ، وضاعت الحقوق ، واستعبد الأقوياء الضعفاء من الأمم والأفراد .

لقد اضطر رسول السلام إلى الالتجاء إلى السيف كي ينتصر الإيمان والحق على الباطل . فليس وضوح دعوة الإيمان وسلامتها من الناحية العقلية والمنطقية بكاف في إلزام العقول المكابرة بالتسليم؛لذلك كان لا بد من قتال كفار قريش الذين حاربوا دعوة الرسول ، وآذوه ، وأكرهوه على الهجرة ، ومن أجل ذلك شرع القتال . وقد بنى القتال في الإسلام على مبدأين سليمين :

(١) الدفاع عن النفس عند التعدى .

(٢) الدفاع عن الدعوة إذا وقف في سبيلها معتد أثيم ، أو حاول الاعتداء على من اعتنقوا الإسلام راضين مختارين ، أو منع من يريد الدخول في الإسلام ، أو وقف في طريق صاحب الدعوة إلى الحق ، وحال بينه و بين العمل على نشر دعوته .

و إن أول آية نزلت في الإذن بالقتال والجهاد قوله تعالى في سورة الحج : « أُذِنَ للذينَ يُقاتَلونَ بأنَّهم ظُلِموا ، وإنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِم لَقَديرٌ ، الَّذينَ أُخرِجُوا مِنْ ديارِهِمْ بغَيْرِ حَقٍّ ، إلاَّ أَنْ يقولوا : ربُّنَا اللهُ ، ولوْلا دفْعُ اللهِ النَّاسَ بعضَهمْ ببعضٍ لهُدِّمتْ صَوامعُ وَبِيَعٌ وَصَلواتٌ ومساجدُ يُذْكَرُ فيها اسمُ اللهِ كثيراً . ولَينصُرَنَّ اللهُ مَنْ ينصرُه ، إنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عزيزٌ . الَّذين إنْ مكنّاهُمْ في الأَرْضِ أَقامُوا الصلاةَ ، وآتَوُا الزَّكاةَ ، وأمرُوا بالمعرُوفِ ، ونَهَوْا عن المُنكَرِ ، ولله عاقبةُ الأُمورِ . »

ويتضح من هذه الآيات الكريمة أن الله تعالى أذن للمؤمنين فى القتال، وبيّن السبب فى ذلك ، وهو أن الكافرين قد ظلموهم ، وأخرجوهم من ديارهم بغير حق، إلا قولهم ربنا الله ، يعنى أنهم لم يظلموا أهل مكة إلا بسبب اعتقادهم فى الله . ثم أوضحت الآيات بعد ذلك أنه لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت أماكن العبادات على اختلاف أشكالها ونحلها، من صوامع للرهبان، وكنائس المسيحيين، ومعابد لليهود ، ومساجد المسلمين يذكر فيها اسم الله كثيراً ، وتنقطع العبادات بخرابها . ولينصرن الله من ينصر دينه وهو الإسلام . ثم وصفت الآيات المؤمنين الذين أذن الله لهم فى القتال بأوصاف ، منها : أنهم هم هؤلاء الذين إذا نصرهم الله أقاموا الصلاة ، وأعطوا الزكاة لمستحقيها ، وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر .

والآية الثانية قوله تعالى فى سورة البقرة : « وقاتِلوا فى سبيلِ اللهِ الّذين يُقاتِلونكم ، ولا تَعتدُوا ؛ إنّ اللهَ لا يُحبُّ المُعتدين . واقتُلوهمْ حيثُ ثَقِفتُموهم[1] ، وأَخرِجُوهم مِنْ حيثُ أَخرَجوكم ، والفِتنةُ أشدُّ مِن القَتلِ . ولا تُقاتلوهُم عند المسجِد الحرامِ حتّى يُقاتِلوكم فيه ، فإنْ قاتلوكُمْ فاقتلوهُم ، كذلكَ جزاء الكافرين . فإنِ انتهَوْا فإنّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ . وقاتلوهُمْ حتّى لا تكونَ فِتنةٌ ويكونَ الدِّينُ للهِ ، فإنِ انتهَوْا فلا عُدْوانَ إلاّ علَى الظالمينَ . الشّهرُ الحرامُ بالشهرِ الحرامِ ، والحرُماتُ قِصاصٌ ، فمنِ اعتدَى علَيكُمْ فاعتدُوا عليه بمثْل ما اعتدَى عليكم ، واتّقوا اللهَ ، واعلمُوا أن اللهَ مَع المتّقينَ[2] . »

وقد أوضحت هذه الآيات الكريمة أن القتال الذى أذن الله فيه ، وسمح به، إنما هو قتال أولئك الكفار الذين بدءوا قتال المسلمين ، وأخرجوهم من ديارهم ،

(١) وجدتموهم .

(٢) سورة البقرة : ١٩٠ — ١٩٤ .

وعملوا على أن يفتنوهم فى دينهم، بما صبوه عليهم من صنوف الأذى والظلم والتعذيب، كما بينت أن الغاية من القتال هى أن يكون الدين كله لله، ومعنى هذا أن يكون الإنسان حرا فى دينه، لا يدين به إلا لله، لا خوفا وطمعا، ووضحت أن الفتنة أشد من القتل؛ لأن فيها اعتداء على العقيدة والوجدان، وذلك من شر ما يكون من بنى الإنسان من اعتداء. وقد نهت الآيات عن الاعتداء والظلم، وبينت أن الله لا يحب المعتدين الظالمين، وهم الذين يبدءون غيرهم بالشر والعدوان، كما بينت أن تأديب المعتدى لا ينبغى أن يتجاوز الحد الذى وصل إليه من عدوان، « فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ». وهذا مثل للعدالة الإسلامية المطلقة. « وَاتَّقُوا اللَّهَ » إذا انتصرتم، ولا تعتدوا على من تنتصرون عليهم.

ومن الواضح أن الله أمر رسوله الكريم بقتال قريش، كما يظهر واضحا من آيات سورة الحج، فلما انضم يهود المدينة الذين نقضوا عهودهم، وخرجوا عليها، أمر الله تعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بقتال المشركين واليهود معاً، يقول الله تعالى فى سورة التوبة :

« قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ[1] وَهُمْ صَاغِرُونَ. »

ولما اتفق أعداء الرسول جميعاً من مشركى مكة والقبائل العربية التى تظاهر أهل مكة — على محاربة المسلمين أمر الله تعالى الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين جميعاً أن يقاتلوا المشركين كافة. قال تعالى : « وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا

(١) قدرة .

يقاتلونكم كافّةً . واعلموا أنّ اللهَ مع المتّقين.» فالعلة فى الأمر بالقتال هنا هى اتحادهم على المسلمين ، ووقوفهم فى نشر الدعوة الإسلامية .

ومما تقدم يتضح كل الوضوح أن القتال لم يشرع لإكراه الناس على اعتناق الإسلام ، بدليل تلك الآيات الكثيرة التى وردت فى القرآن الكريم ، وتدل فى صراحة على النهى عن الإكراه فى الدين ، وتحث على اتباع الأساليب السلمية فى نشر الدعوة الإسلامية . قال جل شأنه يخاطب الرسول المصطفى : « أدعُ إلى سَبيلِ ربِّك بالحكمةِ والموعظةِ الحسَنةِ ، وجادِلْهم بالّتى هىَ أحسنُ » . وقال تعالى :

« إدفَعْ بِالّتى هِىَ أحسنُ ، فإذا الّذى بَيْنَك وبَيْنَهُ عَداوةٌ ، كأنّه ولىٌّ حميمٌ . »

وقال : « لا إكراهَ فى الدِّينِ ؛ قد تبَيَّن الرُّشْدُ مِنَ الغَىِّ[1] » .

وقال تعالى : « فإن تَوَلَّوْا فإنّما عَليكَ البلاغُ ، وعلينا الحِسابُ » .

وقال : « يأيُّها الّذين آمنوا عَليكمْ أنفُسَكم ، لا يَضُرُّكم مَنْ ضَلَّ إذَا اهْتَدَيتمْ . »

وقال : « مَنْ كَفَرَ فعليه كُفْرُه . »

وقد وصفت الآيات المكية ما تحمله الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه من أذى شديد ، وما تذرع به صلوات الله عليه من صبر طويل ؛ رجاء أن يهتدوا ، وأن يدخل الإيمان فى قلوبهم ، ولكنهم كانوا يقابلون هذا الصبر الجميل ، والتسامح الكثير ، والعفو والمغفرة ، والصفح عن الأذى بالمبالغة فى العدوان والإيذاء .

---

(١) تكلمنا عن هذا فيما مضى عن الحرية ص ٢٥ و ٢٨ .

فمنطق الآيات المكية يوضح أن منهج الرسول الكريم فى دعوة قومه إلى الحق كان قائماً فى أول الأمر على الأخذ بالعفو، والأمر بالعرف، والإعراض عن الجاهلين. وقد حاول كفار مكة أن يعرضوا على الرسول نوعامن المصالحة، فقد قالوا: يامحمد، تعبد آلهتنا سنة، ونعبد إلهك سنة، فرفض الرسول إجابتهم إلى طلبهم فى رفق . يقول الله تعالى فى سورة الكافرين : «قُلْ يأيُّها الكافِرونَ، لا أعبُدُ ما تَعبدُونَ، ولا أنتم عابِدُونَ ما أعبُد، ولا أنا عابدٌ ماعبدتُم، ولا أنتم عَابِدُونَ ما أعبُد، لكُمْ دينُكم وَلِيَ دينِ». وفى هذا ما يدل دلالة قاطعة على أن منطق الدعوة إلى الدين الإسلامى كان قائماً على البرهان والإقناع بالدليل والمجادلة الحسنة، لا بالسيف والحرب . وغنى عن التعريف أن محمدا صلى الله عليه وسلم كان لا يعتمد فى دعواه إلا على العقل والمنطق، والإقناع بالحكمة والموعظة الحسنة .

فالمنصفون من الباحثين يرون أن الإسلام لم ينتشر بالسيف، ولم يأمر بإراقة الدماء، كما يتضح من الآيات القرآنية المتعددة . وعجيب أن يدعى المتعصبون انتشاره بالسيف، مع أن الرسول حين دعا إلى الدين الإسلامى كان وحيداً لا أحد معه، ولا سلطان له، وقد عاداه وآذاه أقرب الناس إليه . ولكنه صلى الله عليه وسلم صبر وثابر، واستمر يدعو الخلق إلى الطريق المستقيم، وإلى الدين الحق بالحسنى، وأثبت لهم بالعقل والمنطق محاسن الإسلام، فأقبل من هداهم الله على دينه طائعين مختارين، واثقين مؤمنين، لم يخفهم أحد، ولم يرهبهم شىء .

ولم يدخل محمد فى حرب إلا مضطراً . وقد روى عن عائشة رضى الله عنها : «ما خُيِّرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثما، فإن كان إثما كان أبعد الناس عنه» . وقد بين الله ذلك فى قوله : «وَلا تُلقُوا بأيدِيكُمْ إلى التهلُكةِ».

المبادئ التي أقرها الإسلام لتوطيد أركان السلام

كان الإسلام حريصاً كل الحرص على تضمين جميع تعاليمه الحكيمة ، ومبادئه السامية — العمل على نشر ألوية السلام في العالم ، ومن يتأمل آيات القرآن الكريم ، وأحاديث الرسول ، وما أثر عن السلف الصالح يدرك كل الإدراك أن الإسلام لم يكن داعيا إلى الحرب ، وإنما جاء يدعو إلى السلام والمحبة ، فهؤلاء العرب قبل أن يدينوا بالإسلام كانوا في اضطراب شامل ، وحرب مستمرة ، وتقاطع وتدابر ، وأحقاد وفتن ، وكانت الجزيرة العربية مسرحاً للمعارك الدامية ، والمذابح المستمرة ، فما كادوا يدينون بالإسلام حتى استحالت حالهم في الجزيرة من نزاع مستحكم ، وسلب ونهب ، إلى حال من السلام والوئام ، والاتحاد والألفة . وقد كان ذلك لأن الدين الإسلامي جمع قلوبهم على الإخلاص والمودة والألفة والحب والسلام ، بما اشتملت عليه أصوله ومبادئه من حب الخير للناس ، والصفح عنهم ، وعدم ظلمهم ، والعفو عن سيئاتهم ، والسعي فيما يصلح أمورهم ، حتى يكونوا جماعات متعاونة متآلفة ، متحدة غير متخالفة .

يقول الله تعالى في سورة الأنفال : « ولا تَنَازَعوا فتَفْشَلوا وتَذهبَ رِيحُكم . » أي قوتكم .

ويقول في سورة الحجرات : « إنَّما المؤْمنونَ إخوَةٌ ، فأَصْلِحُوا بينَ أخوَيْكُم[1] . »

ومن يرجع إلى صحائف تاريخ الأمة العربية يجد ما يؤيد ذلك ، أما في بقية أجزاء العالم فقد حاول الإسلام إنشاء علاقات بين جميع الأمم ، تقوم على أسس من التفاهم والتعاون ، ولكي يصل إلى ذلك أباح التزوج من الكتابية ، وهي

(١) قد بحثنا ذلك بالتفصيل في موضوع : التضامن والتعاون في الإسلام .

التى تدين بغير الإسلام من الأديان السماوية ، وأمر زوجها المسلم بالإنفاق عليها، وبألا يمنعها من مزاولة التعبد بدينها .

ولم يفرق الإسلام فى الحقوق الزوجية بين المسلمة والكتابية ؛ فقد نظر إلى الاثنتين نظرة واحدة ، وكان يستهدف من وراء هذه المصاهرة بين المسلمين وأهل الكتاب إيجاد علاقات من النسب تقوى الأواصر بين الفريقين ، وتدعو إلى أنواع من التعاون والمساعدة ، كما أن إطلاق حرية العقيدة من أقوى الأسباب التى تدعو إلى إزالة الأحقاد من الصدور ، والقضاء على الفتن التى هى من أقوى عوامل الحروب .

وقد وقف الإسلام من الأمم التى كان يدعوها الى اعتناق الإسلام موقفا سلميا رائعاً ، كان له أثر عظيم فى قلوب العقلاء من هذه الأمم ، أما ذلك الموقف الحكيم فهو أن الإسلام كان يرضى بمصالحة هذه الأمم على أساس أن تدفع الجزية فى مقابل أن تكون لها الحرية المطلقة فى أن تظل على عقائدها ، وكانت الغاية التى يسعى إليها الإسلام من دعوة غيره من الأمم إلى الدخول فى دين الله هى للعمل على إيجاد وحدة دينية متكافلة ، وكتلة سياسية متساندة ، فإن وحدة العقائد والأفكار والمبادئ تؤدى إلى نوع من السلام الدائم فى العالم كله .

وما كان للإسلام أن يرغم الأمم الأخرى على الدخول فى طاعته ، بدليل أنه رضى منهم أن يدفعوا الجزية على أن يستمروا على عقائدهم كما يشاءون . أما الجزية التى فرضها فكان الغرض منها أن تكون رباطا لعلاقات الود والصداقة وعدم الاعتداء ؛ ولذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « من آذى ذمياً فأنا خصمه ، ومن كنت خصمه خاصمته يوم القيامة » .

وإن الإسلام يأبى على المسلمين أن يقاتلوا من يخالفهم فى العقيدة لمجرد هذه

المخالفة ، ويأبى عليهم أن يكرهوا الناس حتى يكونوا مؤمنين ؛ لأنه علمهم أن العقيدة محلها القلب ، ولا سلطان للقهر والإكراه على القلوب . وإنما تبنى العقيدة على الإقناع بالحجة البالغة ، والاقتناع بالدليل والبرهان ، فى طمأنينة وهدوء ، وتفكير حر ، وروية غير مضطربة . وإن إكراه الناس على اعتناق الإسلام والسيوف مصلتة على رقابهم ، لا يحدث إلا رفاقا أهل نفاق ، يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم خوفا ليس غير . ومن ذا الذى يرضى أن يكون من شيعته منافقون لا يخلصون إليه ؟

ولو كان القتال فى الإسلام لحمل الناس على اعتناقه ما نهى رسول الله عن قتل الأطفال والنساء والصبيان ، والشيوخ والمرضى والرهبان . فالقتال كان للدفاع ولم يكن للهجوم .

فقد خاطب الله نبيه الكريم بقوله :

« إنكَ لا تَهْدِى مَنْ أَحبَبْتَ ، ولـكنَّ اللهَ يَهْدِى مَنْ يَشَاء . وهُوَ أعلمُ بالمهتَدِينَ . »

فالإسلام لم ينشر بالسيف ، ولكنه نشر بالإيمان والعقيدة ، والثقة والتصديق ، وحرر الشعوب المظلومة التى كانت تئن من جراء الظلم والعسف والجبروت . وفى معاملة الأسرى كان الرسول يقول لأصحابه :

« استوصُوا بهم خيراً » .

بماذا نستدل على أن الإسلام لم ينشر بالسيف ؟

فى تاريخ الإسلام أدلة ناطقة، وشواهد كثيرة ، على أن خلفاء المسلمين فى كل عصر ، كانوا يوصون أتباعهم بحسن معاملة غير المسلمين ، واحترام عباداتهم وكانوا يأمرون جنودهم بالمحافظة على أماكن عبادتهم ، وعدم التعرض للنساء والأطفال ومن فى حكمهم .

كما حث الإسلام الأبناء الذين أسلموا ولم يسلم آباؤهم على ألا يقطعوا صلتهم بآبائهم ، وأن يعاملوهم بالمعروف ، ويقدموا إليهم المساعدات ، وأن يجمعوا بين الاحتفاظ بعقيدتهم ، وحسن معاملة آبائهم .

يقول الله تعالى : « وإنْ جاهَدَاكَ عَلَى أنْ تُشْرِكَ بِى ما ليسَ لكَ بِهِ عِلْمٌ ، فلا تُطِعْهُمَا، وَصَاحِبْهُمَا فى الدُّنيا مَعرُوفًا ، وَاتَّبِعْ سَبيلَ مَنْ أنابَ إلَىَّ ، ثمَّ إلَىَّ مَرْجِعُكُم ، فَأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنتم تَعملون . »

ومن هذا كله يتضح أن طبيعة الدين الإسلامى مبنية على التسامح والرفق والرحمة ، وحسن معاملة الأعداء ، وهو يترك أمر الناس فيما يتعلق بسرائرهم وعقائدهم إلى الله سبحانه وتعالى . ومن مبادئه أنه يجير من استجار به ممن لا يدين بالإسلام ، ويرعاه ويحميه ، ولا يخفى ما فى ذلك من حب الخير للناس ، واقتلاع ما فى نفوسهم من عوامل الحقد والعداوة والبغضاء ، حتى يعيش الناس جميعاً فى محبة وسلام ، وصفاء ووئام .

هذا روح الإسلام، وهذه مبادئه فى إقرار السلام. فإذا تأملت موقف المدنية الغربية اليوم من السلام ، وقد وصلت إلى أعلى قمتها ، تبين لك أن أعرق الدول فيما يسمونه النظام (الديمقراطى) تسخر علماءها وما لديها من موارد فى إثارة حرب

عدوانية على الأمم الضعيفة، لا لنشر مبدأ من المبادئ السامية، ولا لحماية الأخلاق الفاضلة ، ولكن للاستعمار ، والاستيلاء على خيرات الضعفاء ، واستلاب حريتهم ، والتصرف فى شئون بلادهم . إنهم يشهرون هذه الحرب ، ويهددون بها الأمم الضعيفة فى كل وقت ؛ حتى تسير فى ركبهم خاضعة ذليلة ، يملكون لها مالا تملك لنفسها .

هذه مدنية الدول الغربية اليوم ، وفى مقدمتها إنجلترا وفرنسا والولايات المتحدة بأمريكا و بلجيكا وهولندا ، وذلك موقفها جميعاً من السلام ، تعبئ الأساطيل فى البحار ، وتملأ الجو بالطائرات ، وتبعث بالجيوش الجرارة على الأرض، لإذلال الناس و إخضاعهم واستعبادهم ، وحرمانهم حقهم فى الحياة والحرية ، يقتلون الشيوخ والشبان، والنساء والأطفال ، و يعاملونهم معاملة وحشية بربرية، لا لذنب جنوه ، بل ليكونوا عبيداً للاستعمار والمستعمرين ، والرأسماليين والإقطاعيين .

فأين هذه الحروب من حرب الإسلام ؟ كان الإسلام يحارب لإصلاح مافسد من ضمائر الناس، ولحماية العقيدة السليمة، والنظام الاجتماعى الذى يحقق الخير للناس، أما الحرب الحديثة التى تثيرها الأمم الاستعمارية اليوم فهى حرب ظالمة، لا يقصد منها إلا التقتيل والتخريب والتعذيب ، وحرمان الناس حقوقهم ، و إخراجهم من بلادهم وديارهم ، والاستيلاء على أراضيهم وأملاكهم كما حدث فى فلسطين ، و إكراههم على السجود أمام قوى العسف والظلم والطغيان .

فهل لهؤلاء الكتاب المتعصبين الذين يرمون الإسلام بأنه دين حرب وقتال أن يرجعوا إلى أممهم الكبرى كأمريكا و إنجلترا وفرنسا و بلجيكا التى تستبيح القتل لاغتصاب الأراضى فى البلاد الصغيرة ، واحتلال ديار المقتولين بعد تعذيبهم وسجنهم وقتلهم ؛ ليسألوها : لماذا تفعل هذا ؟ ولماذا ترتكب هذه الجرائم الوحشية ؟ ثم كيف يفسرون ما حدث فى الجزائر ، وعمان ، والكونجو

وكوبا؟ وكيف يفسرون العدوان الثلاثى الغاشم على مصر فى ٢٩ من سبتمبر سنة ١٩٥٦ ؟ هل لهذه المجازر البشرية من سند يرجع إلى القانون أو الدين أو الإنسانية؟ إنهم لن يجدوا إلا سنداً واحداً هو الاستعمار . وبعد ذلك فهل لهم أن يوازنوا بين حرب الإسلام والحرب التى تريدها الأمم الديمقراطية التى تمثل العالم الحر المزعوم ؟

إنهم لو فعلوا ذلك ، وكانوا عادلين مع أنفسهم ، بعيدين عن التعصب ، لأدركوا كل الإدراك أن الإسلام كان يحارب من أجل السلام ، وإقرار مبادئ العدالة والحرية والأخوة والمساواة ، وأنه كان يشن هذه الحرب على الطغاة والظالمين والمستبدين الذين كانوا يسخرون الناس ويظلمونهم ، ويغرسون بذور الفتن التى تهدد السلام فى العالم .

ولا يستطيع أحد أن ينكر موقف الرسول صلى الله عليه وسلم بالنسبة للحرب والقتال ؛ فإنه كان يكره الاعتداء كل الكره . وقد عاش صلوات الله عليه أربعين عاما فى بيئة جاهلية تسودها الأحقاد والفتن والحروب ، ولم يعرف عنه فى هذه المدة الطويلة من حياته أنه نازل أحداً فى قتال ، أو وجه ضربة لأى إنسان . وكيف يكون منه ذلك وهو المفطور بطبيعته على حب السلم ؟ ومما يؤيد هذا الروح السلمى العظيم أنه قبل شروط صلح الحديبية ، وكانت شروطاً مجحفة بالنسبة للمسلمين ، بالرغم من أنه صلى الله عليه وسلم كان على استعداد لمنازلة أعدائه، ولكنه فضل الصلح على الحرب ، على ما فى الصلح من انتقاص لحقوقه . ولم يفعل الرسول ذلك خوفاً من عدوه ، أو ضعفاً منه ، ولكنه أراد أن يضرب المثل لقريش فى حبه للتسامح ، وحبه للسلام ، ولكن حينما وجد العدو يستغل تسامحه ، وأن الدعوة أصبحت فى خطر ، حمل السلاح للدفاع عن المسلمين ، وقاد أصحابه مرغماً .

ومما لاريب فيه أن محمداً صلى الله عليه وسلم كان يحب السلم ، ولم يكن حبه له كحب الجبان للدعة والأمن والاطمئنان ، ولكنه كان يحبه لأنه الحالة الطبيعية التى يجب أن تستقر فى العالم ، فإذا قاوم أصحاب السيطرة من الطغاة والمستبدين فكرة السلام شنها الرسول الكريم عليهم حرباً شعواء ؛ حتى يعترفوا بحقوق الضعفاء ، وعندئذ يسود السلم العالم كله .

ولا يفوتنا أن نقول إنه بعد فتح مكة أسلم أبو سفيان ، وشهد شهادة الحق بعد كلام وحوار وجدال ؛ فقال العباس بن عبد المطلب : يارسول الله ؛ إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئاً .

فقال عليه الصلاة والسلام : « مَن دخل دارَ أبى سُفيان فهو آمِنٌ ، ومَن أغلق عليه بابَهُ فهو آمِنٌ ، ومَن دخل المسجدَ فهو آمن . »

وهذا مثل يدل على عظمة الرسول ، وأن الدعوة الإسلامية لم تقم على السيف ، ولكنها قامت على الإيمان الكامل ، والعقيدة الراسخة ، والحرية فى النقاش ، والمنطق السليم ، والرغبة القلبية ، والهداية الإلهية .

الفصل الرابع

التسامح روح الإسلام

الإسلام يدعو إلى التسامح :

إن الإسلام دين يدعو إلى التسامح ، والعفو والصفح عند المقدرة . وإن من يتسامح فى حقه و يعفو و يصفح عن المسىء إليه يكون نبيل الخلق ، عظيم النفس ، متسامياً عن الدنايا . انظر إلى قوله جل شأنه :

« اِدفعْ بالَّتى هىَ أحسنُ السيئةَ ، نحنُ أعلمُ بما يَصِفُون[1] »

وقوله تعالى : « وَلا تَسْتَوِى الحَسَنَةُ ولا السيئَةُ ، اِدفـعْ بِالَّتى هِىَ أحسنُ ، فإذا الَّذِى بَيْنَك وبَينَهُ عدَاوَةٌ كأنَّهُ وَلِىٌّ حميم[2] . ومَا يُلَقَّاها[3] إلاَّ الَّذِين صَبَرُوا ، وما يُلَقَّاها إلاَّ ذُو حَظٍّ عظيمٍ[4] . »

فالإسلام يقول : إن أساء إليك رجل فاعف عنه واصفح ، وقابل السيئة بالحسنة . وإن ذمك أحد فامدحه ولا تذمه ، وبذلك يصير كأنه صديق قريب إليك ، معتنٍ بأمرك ، مهتم بشأنك . ولا تتاح هذه الخلة الثمينة ولا يعمل بها إلا مَن اتصف بالصبر وقوة العزيمة ، وثبات القلب ، وكان له نصيب موفور من سعادة الحظ ، وكرم الخلق . فنحن مطالبون بأن نقابل الإساءة بالإحسان ، والذنب بالصفح والغفران ، والغضب بالحلم .

---

(١) المؤمنون : ٩٦ . (٢) قريب .
(٣) أى ولا يقبل هذه الوصية . (٤) سورة فصلت : ٣٤ .

وقال تعالى : « وإنْ عاقبتُمْ فعاقِبوا بمثلِ ما عُوقبتُمْ بهِ . ولئِنْ صبرْتُمْ لَهُوَ خيرٌ للصابرين[١] . »

وقال : « وَاصبِرْ وَما صَبْرُكَ إلاَّ باللهِ . »

فقال الرسول : « بَل نَصْبِرُ . »

وقال عزَّ وجل : « وَإذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا[٢] . »

فالإسلام يجيز أن ترد السوء بالمثل ، فتعاقب المسيء بمثل ما أذاك به ، ولكن المثل الأسمى فى الإسلام ، أن تُحسن إلى من أساء إليك ، وتضبط شعورك ، وتعفو عمن ظلمك ، وتحيِّي من حياك بتحية أحسن منها ، أو مثلها .

قال جل شأنه : « وَجزاءُ سَيئةٍ سَيئةٌ مثلُها . » ثم قال بعد ذلك :

« فمنْ عَفَا وأصلحَ فأجرُهُ عَلَى اللهِ . إنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمينَ . ولَمَنْ صَبرَ وغفَر إنَّ ذَلكَ لَمِنْ عَزمِ الأُمورِ[٣] . »

فالإسلام يجيز المعاملة بالمثل ، ولكنه يشجع العفو والمغفرة ، وضبط النفس عند المقدرة . وهذا هو النبل وكرم الخلق ، والعظمة الإنسانية ، والتسامح فى المعاملة ، وليس فى ذلك شيء من الضعف مطلقاً .

العفو والصفح عمن يتوب إلى الله :

وقال عز وجلّ يحث على العفو عن المذنب ، والصفح عن التائب من الناس :
وَلا يأْتَلِ[٤] أُولُو الفَضْلِ منكُمْ والسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا[٥] أُولِى القُرْبَى ، والمسَاكينَ

(١) سورة النحل : ١٢٦ . (٢) سورة النساء : ٨٦ .
(٣) الشورى : ٤٠ — ٤٣ . (٤) ولا يحلف .
(٥) أن يُعطوا .

والمهاجرينَ في سبيلِ اللهِ. وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا . ألاَ تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ واللهُ غَفُورٌ رحيمٌ . »

فبين وجوب صلة الرحم والأقرباء ، والمساكين والمهاجرين ، مهما ارتكبوا من الذنب ، ونهى عن أن يحلف أولو الفضل أن يمنعوهم ما كانوا يحسنون به عليهم ، وأمرهم بالعفو عن المذنب ، والصفح عن التائب منهم ؛ فإن ذلك سبب لعفو الله ومغفرته .

لين الجانب

وقد أمر الله نبيه بلين الجانب ، وحسن المعاملة ، والتواضع للمؤمنين لتقويم ما اعوج من أخلاقهم ، كما أمره بالتبرؤ من عملهم إن عصوه ، فيما أرشدهم إليه ، وما حثهم عليه . وهذا هو المراد من قوله تعالى :

« واخفضْ جَنَاحَكَ[1] لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِن المؤمنين . فَإِن عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىءٌ مما تَعْمَلُونَ »

ولذا يجب أن نعامل الناس جميعا بالرفق واللين والتواضع ، سواء المطيع منهم والعاصى ، والمحسن منهم والمسىء .

نبل المصطفى صلى الله عليه وسلم فى تسامحه :

وحينما استشهد عم النبى وهو حمزة بن عبد المطلب فى غزوة أحد مثل به المشركون ، وأراد المسلمون أن يمثلوا بمن قُتل من المشركين ، فمنعهم الرسول النبيل العظيم من التمثيل بهم . ولما آمن قاتل حمزة وهو: وحشى الحبشى ، عفا عنه النبى ، ولم ينتقم منه ، بل جعله من أصحابه . وقد مثلت هند بجسد عمه حمزة ، وأخرجت كبده ، ولشدة حقدها أرادت أن تأكلها ، ثم جاءت إلى النبى متنكرة

(١) كن لين الجانب .

واعتنقت الإسلام ، ثم أظهرت وجهها ، فعرفها الرسول ، وصفح عنها ، ولم يعاتبها على ما حدث منها ، تسامحاً ونبلا ؛ لأن التسامح صفة للمصطفى صلى الله عليه وسلم.

التسامح وحسن معاملة الأعداء فى الإسلام

انظر إلى خطبة رسول الله يوم أن فُتحت مكة ، وهو واقفٌ على باب الكعبة يخاطب أهل قريش : « يا معشرَ قريش ، إنّ اللهَ قد أذهبَ عنكم نَخْوَةَ[1] الجاهلية ، وتَعَظُّمَها بالآباء . الناسُ من آدمَ ، وآدم خُلق من تراب . » « يأيها النَّاسُ إنا خلقناكم مِن ذَكَر وأُنْثى ، وجعلناكم شعُوباً وقبائِلَ لتعارَفُوا ، إنّ أكرَمكم عندَ اللهِ أتقاكم ، إنّ اللهَ عليمٌ خبيرٌ . »

يا معشرَ قريش ، ما تَظُنُّون أنى فاعلٌ بكم ؟

قالوا : خيراً . أخٌ كريمٌ ، وابنُ أخٍ كريم .

قال : فإنى أقول لكم كما قال أخى يوسفُ : « لا تثريبَ[2] عليكمُ اليومَ يَغفرُ اللهُ لكم ، وهوَ أرحمُ الرَّاحمينَ . »

ثم قال : إذهبوا فأنتمُ الطُّلَقاء[3] . »

ومن هذه الخطبة ترى العدالة والمساواة والتسامح وحسن معاملة الأعداء فى الإسلام .

ثم انظر إلى وصية أبى بكر — رضى الله عنه — لأسامة بن زيد[4] وجيشه حينما سَيَّرَه إلى أُبْنَى — وهو موضع بمشارق الشام — حيث يقول : « يأيها الناس ،

---

(١) النخوة : الكبر ، والعظمة والافتخار .

(٢) التثريب : الشدة فى اللوم ، وتقبيح الفعل .

(٣) الأسرَى الذين أطلق سراحهم ، وخُلِّىَ سبيلهم .

(٤) أورد العقد الفريد هذه الوصية ، وذكر أنها وصية من أبى بكر ليزيد بن أبى سفيان .

قفوا أوصيكم بعشر فاحفظوها عني : لا تخونوا ، ولا تَغلّوا[1] ، ولا تَغدروا[2] ، ولا تُمثِّلوا[3] ، ولا تقتلوا طفلا صغيراً ، ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ، ولا تقطعوا نخلا ، ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ، ولا بقرة ولا بعيراً إلا للطعام . وسوف تمرّون بأقوامٍ قد فرّغوا أنفسهم في الصوامع ، فدعوهم وما فرّغوا أنفسهم له . وسوف تَقْدَمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام ، فإذا أكلتم منها شيئا بعد شيء ، فاذكروا اسم الله عليها » .

ومن هذه الوصية ترى كيف كان المسلمون يعاملون الأعداء ، وكيف كانوا يعاملون الصغار والشيوخ والنساء ، ويتركون للرهبان والقسس الحرية في التدين والعبادة . فروح الإسلام ، روح الإنسانية والنبل ، والرأفة والرحمة ، يتمثل في معاملة المسلمين للأعداء في أثناء الحرب .

وترى أن الصديق أبا بكر — رضي الله عنه — نهى عن الخيانة ، والحقد ، وفعل أي شيء يستوجب الاعتذار ، وعن تعذيب الأعداء والتمثيل بهم ، وعن قطع النخل وحرقه ، وقطع الأشجار المثمرة ، وعن ذبح الشاة والبقرة والبعير إلا ما يحتاج إليه للطعام . وفي هذه الوصية تتمثل الناحية الإنسانية في معاملة الأعداء في أثناء الحرب في الإسلام .

في هذه الوصية يبدو روح الإسلام ، وهو التسامح والنبل والعطف والشفقة .

وازن بين ما كان يفعله المسلمون مع الأعداء ، وما ارتكبه الفرنسيون في القرن العشرين من تعذيب الجزائريين لا لذنب اقترفوه ، أو جرم ارتكبوه ، بل لأنهم طالبوا بالحرية والاستقلال ، وطرد المغتصبين لبلادهم ، المتمتعين بخيراتها ، وتحرير وطنهم من الفرنسيين والأجانب المعتدين على الأبرياء من عرب الجزائر ، المستغلين لها . لقد عذبوهم بكل ألوان التعذيب ، وقتلوهم من

---

(١) لا تحقدوا . (٢) لا تفعلوا شيئاً يجلب المعذرة .

(٣) مثّل به : كمثّل : نكل به وعذبه .

غير ذنب ، وسجنوهم من غير جريمة ، ونفوهم من أرضهم ، ولم يفرقوا فى التعذيب والقتل والسجن بين كبير وصغير ، ورجل وامرأة ، وعذبوهم بطرق قاسية تدل على الإجرام والوحشية ، فى وقت يدّعون فيه أنهم متمدنون ، وأنهم حماة الحرية ، والمدافعون عنها فى العالم الحر .

وازن بين ما كان يفعله المسلمون مع الأعداء ، وما كان يفعله الإنجليز فى عهد الاحتلال البريطانى لمصر فى مذابح دنشواى ، وفى قتل المتظاهرين من المصريين الذين كانوا ينادون بحرية بلادهم واستقلالها ، وسجن الوطنيين ، وتعذيبهم ، وتشريدهم ، ونفيهم لا لسبب إلا المناداة بتحرير وطنهم من المستعمرين المستغلين المستبدين، المعتدين على الأبرياء.

ولا عجب ؛ فقد بنيت الدعوة إلى الإسلام على الإقناع بالعقـــل والمنطق والبرهان ، والموعظة الحسنة . ولو كان هناك إكراه أو إجبار على التدين بالإسلام ما حرم قتل النساء والصبيان ، والقسس والرهبان ، والشيوخ والعميان ، والمبتلى والمرضى من الـكفار .

قال تعالى : « وَجَادِلْهُم بالتى هِىَ أحسنُ . »

وقال جل شأنه : « لا إكراهَ فى الدِّين ؛ قد تبَيَّنَ الرُّشْدُ من الغَىِّ . » أى اتضح الحق من الباطل .

وقال عز وجل : « ولَوْ شاءَ ربُّكَ لآمَنَ مَن فى الأَرضِ كلُّهم جميعاً . أفأنْتَ تُكْرِهُ الناسَ حتى يكونُوا مؤْمنِين . »

فالله سبحانه وتعالى نفى الإكراه على الدين الإسلامى ، وأنـكر إكراه الناس حتى يـكونوا مؤمنين .

وإن الأساس فى الدين الإسلامى الإيمان بالقلب والعقيدة . وليس من الممكن تـكوين هذا الأساس بالسيف والقهر والإكراه ، بل يـكوّن بالحجة والتفكير

المنطقى ، والإقناع العقلى . وكيف نكوّن الاعتقاد والإيمان — وهما بالقلب — بالإكراه ؟ وكيف يصل السيف إلى القلوب ؟ فالدعوة إلى الإسلام ، وعبادة الله وحده ، طريقها الحجة والإقناع لا السيف والإكراه .

ولو امتنع الكفار عن إثارة الفتن ضد المسلمين ، وتركوهم أحرارا فى دعوتهم إلى توحيد الله ما حارب المسلمون أحدا ، وما شهروا سيفا على أحد .

فالإسلام لم يقم بالسيف ، ولم يأمر بسفك الدماء ، أو الاعتداء على الضعفاء . وقد شهد علماء الإفرنج بأن الأمة الإسلامية كانت أرحم الأمم بالعجزة والضعفاء ، وأن الإسلام رحمة عامة للعالمين .

ولا يستطيع منصف أن ينكر أن الإسلام دين التسامح والسلام ، دين الرحمة والعفو والعدالة ، لا دين القسوة والغدر والتعذيب والمثلة[1] والإتلاف والظلم والاغتيال والتقتيل .

وقال عليه الصلاة والسلام : « ألاَ مَن ظلمَ معاهَداً أو كلَّفه فوْقَ طاقته ، أو انتقَصَهُ أو أخذَ منه شيئًا بغيرِ طيبِ نَفْسِه فأنا حجيجه[2] يومَ القيامة . »

الإنسانية فى الإسلام

وقد عنى الإسلام بالمرضى والجرحى من الأعداء ، والمحافظة على الأطباء منهم ، ومن يساعدهم من الممرضين والممرضات ، ونهى عن قتل الوصفاء وهم المملوكون ، والعسفاء وهم المستخدَمون للتمريض وإسعاف الجرحى ، والقيام بتخفيف آلامهم وحاجاتهم فى العلاج . وقد نهى الرسول الكريم عن الغدر وتعذيب العدو ، وقال : « لا تعذبوا عباد الله » . ونهى الإسلام عن قتل العزّل

(١) يقال مثَلْتَ بالقتيل مَثْلا من بابى قتل وضرب : إذا جدعته وظهرت آثار فعلك عليه تنكيلا ، والتشديد مبالغة . والاسم المُثْلة وزان غرفة . والمَثُلةُ : العقوبة .

(٢) خصمه .

وإحراق الأحياء أو الموتى بالنار ، وإحراق بيوت الأعداء وأمتعتهم ، وإفساد ثمارهم وحاصلاتهم الزراعية . ونهى عن قطع نخيلهم ، أو تسميم مياههم . فالإسلام لا يسمح بالتعذيب والتمثيل بالعدو ، وإتلاف أى شىء من غير ضرورة .

وقال عمران بن حصين : ما خطبنا رسول الله خطبة إلا أمرنا بالصدقة ، ونهانا عن المُثْلة . » فالإسلام ضد إزهاق الأرواح ، وتعذيب عباد الله ، والتنكيل بهم . وفى الغزوات والحروب لم يقصد إلا دفع شرور المعتدين ، وحماية المسلمين من العدوان ، وظلم الكفار للمسلمين ، وإخراجهم من ديارهم وأموالهم بغير حق ، فأذن الله للمسلمين بالقتال دفاعا عن أنفسهم .

قال تعالى : « أُذِنَ للذين يُقاتَلون بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا . وإن اللهَ عَلَى نَصرِهِمْ لَقَدِيرٌ . »

المساواة بين الذميين والمسلمين أكبر دليل على التسامح

وأكبر دليل على التسامح فى الإسلام أنه قرر المساواة بين الذميين[1] والمسلمين ، فإن للذميين ما للمسلمين ، وعليهم ما عليهم . وقد كفل الحرية للذميين . وأمر المسلمين أن يتركوهم وما يدينون به من الأديان. وألا يتعرضوا لهم فى العقيدة التى يعتقدونها . وكان اليهود والمسيحيون يقيمون مع المسلمين فى بلادهم ، يبيعون ويشترون ، ويتاجرون ، ويتساوون معهم فى عقوبة القصاص المأخوذة من قوله تعالى :

(١) الذِّمة : العهد والأمان والضمان . وقد سمى المعاهَد ذِمِّياً نسبة إلى الذمة بمعنى العهد .

« وكَتَبْنَا عَلَيهم فيها أنَّ النَّفْسَ بالنَّفْسِ ، والعَينَ بالعينِ ، والأنفَ بالأنفِ ، والأُذنَ بالأُذنِ ، والسِّنَّ بالسِّنِّ ، والجُروحَ قِصاصٌ . »

وكان المسلمون يعاملون غيرهم ممن يخالفونهم فى الدين أحسن معاملة . ويعاشرونهم أحسن عشرة ، و يعطفون عليهم ، ويحسنون إليهم ، و يعدلون فى الحكم عليهم . وقد أباح الإسلام للمسلمين طعام أهل الكتاب ، وأحل لهم ذبائحهم ، وأباح مصاهرتهم والتزوج منهم .

قال الله تعالى : «وطَعامُ الذينَ أوتُوا الكتابَ حِلٌّ لَكُمْ ، وطَعامُكُم حِلٌّ لهم . وَالمُحْصَناتُ منَ المؤْمِناتِ ، والمُحْصَناتُ منَ الّذِينَ أُوتوا الكِتابَ مِنْ قَبلِكُمْ . »

وللزوجة التى لا تدين بالإسلام من الحقوق على زوجها ما للزوجة المسلمة . وقد نهى الله عن مجادلة أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن .

قال تعالى : « وَلا تُجَادِلوا أَهْلَ الكِتابِ إلاَّ بالَّتى هِىَ أَحسن[1] . »

كالدعاء إلى الله بآياته ، والتنبيه على حججه . وللمسلم أن يتبادل مع غير المسلم الهدايا والضيافة ، فينزل الأول ضيفا على الثانى ، والعكس .

وفى البلاد الإسلامية يتمتع غير المسلمين بالحرية فى العقيدة ، والحرية فى العبادة . فلا يتعرض لهم أحد فيما يعتقدون وما يعبدون . وهم أحرار فى إقامة الشعائر الدينية فى كنائسهم و بيعهم ومعابدهم .

وقد عاش اليهود والمسيحيون مع المسلمين فى البلاد الإسلامية مئات السنين يتمتعون بالعدالة الإسلامية ، والرحمة الإنسانية ، لا يشكون ظلما ، ولا يحسون ضيما ، ولا يبخسهم مسلم حقا من حقوقهم ، ولا يعتدى عليهم أحد . ولا عجب

(١) سورة العنكبوت : ٤٦ .

فروح الإسلام كله تسامح وعفو وصفح ، وعطف وعدل ومساواة، روح تتمثل فيه الإنسانية الكاملة .

تسامح المسلمين :

ولنذكر هنا عهد خالد بن الوليد لأهل دمشق بعد فتحها لترى كيف كان المسلمون متسامحين :

« بسم الله الرحمن الرحيم : هذا ما أعطى خالد بن الوليد أهل دمشق يوم فتحها ،أعطاهم أماناً على أنفسهم وأموالهم،وكنائسهم،وسُور مدينتهم لا يُهدَمُ ولا يُسكَنُ شيء من دُورهم . لهم على ذلك عَهدُ الله وذمةُ رسوله صلى الله عليه وسلم والخلفاء والمؤمنين ، لا يُعرَضُ لهم إلا بخير إذا أعطَوا الجزية . »

وفى هذا العهد مايثبت وفاء المسلمين وتسامحهم ، وحسن معاملتهم ، حتى وجد اليهود والمسيحيون من المسلمين مالم يروه ممن كانوا يدينون بدينهم . فقد عاهدهم خالد أن يطمئنوا كل الاطمئنان على أرواحهم وأموالهم ومعابدهم، وألا يُهدم لهم بيعة ولا كنيسة ولا دار من دورهم ، ولا قصر من قصورهم ، على أن يعطوا الجزية .

وفى عهده لأهل الحيرة عاهدهم على ماذكر ، وعلى ألا يمنعوا من ضرب النواقيس ، وعلى أن يُضيِّفوا من مرَّ بهم من المسلمين مما يحل لهم من طعامهم وشرابهم ، وشرط عليهم ألا يعينوا كافرا على مسلم سواء أكان من العرب أم من العجم ، ولا يدلوهم على عورات المسلمين ، وجعل لهم أيما شيخ ضعف عن العمل، أو أصابته عاهة من العاهات أو كان غنيا فافتقر ، وصار أهل دينه يتصدقون عليه أعفى من دفع الجزية ، وأعطى إعانة تكفيه وتكفى عياله من مال المسلمين مادام مقيما بدار الإسلام .

ثم انظر إلى ما كتبه عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — إلى أبى عبيدة بن الجراح يوصيه بحسن معاملة المشركين بعد أن هزموا حيث يقول : « وامنع المسلمين من ظلمهم ، والإضرار بهم ، وأكل أموالهم إلا بحقها . ووفِّ لهم بشرطهم الذى شرطت لهم فى جميع ما أعطيتهم . »

فالإسلام يسالم من لايدينون به ماداموا غير معتدين على المسلمين . و ينادى بالمساواة بين المسلمين وغيرهم فى الحقوق والحريات ، والبر والعدالة وتبادل الحاجات . ولا يمنع أى دولة إسلامية من تبادل علاقات تجارية وسفراء ومعاهدات مع دولة غير إسلامية ، مادام العدل سائدا بين الدولتين .

تسامح صلاح الدين الأيوبى :

وانظر إلى ما فعله صلاح الدين الأيوبى حينما دخل بيت المقدس .

لقد دخل جيش صلاح الدين بيت المقدس مقتصراً على الأعداء، ولـكنه لم يقتل إنسانا ، ولم يأسر أحدا ، ولم تنهب جيوشه بيتا من البيوت ، فقد أمَّنَ الجميع على أموالهم وأمتعتهم ، وعامل الـكل بالرأفة والرحمة ، فدهش الأعداء كثيراً لعدله وشفقته ، وحسن معاملته .

وحينما كان ماشيا فى طرقات بيت المقدس تقدم إليه رجل مسيحى كبير السن ، يعلق صليبا ذهبيا فى رقبته ، وقال له :

أيها القائد العظيم ، لقد كتب لك النصر على أعدائك ، فلماذا لم تعذبهم ؟ ولماذا لم تنتقم منهم ، وتفعل معهم مثل مافعلوا معـكم ؟ وأنت تعلم حقا أنهم أتَوْا كثيرا من الفظائع ، ونهبوا الأموال ، وقتلوا النساء والأطفال والرجال ، حينما فتحوا بيت المقدس .

فقال له صلاح الدين : أيها الشيخ ، إن ديني يمنعني من تعذيب أي إنسان ، وضميري يمنعني من الانتقام . ولن أفعل مثل مافعلوا .

فقال له الشيخ : وهل دينكم يمنعكم من الانتقام من قوم بدءوكم بالعداوة ، وعذبوا قومكم بكل أنواع العذاب ؟

فقال له صلاح الدين : نعم إن ديننا يمنعنا أن نفعل مثل أعدائنا في عنادهم ، ويأمرنا أن نكون أوفياء بوعودنا ، وأن نعفو عمن أساء إلينا ، ونصفح عمن أذنب عند المقدرة .

فقال الشيخ : نعمَ الدين دينكم ، وإنني أحمد الله على أن هداني إلى ما فيه خيري في أيامي الأخيرة من هذه الحياة . ثم سأل : وماذا يفعل من يريد الدخول في دينكم ؟

فقال له صلاح الدين : يؤمن بأن الله واحد ، ومحمدا — صلى الله عليه وسلم — رسوله ، ويفعل ما أمر الله به ، ويبتعد عما نهى الله عنه . وعند ذلك أسلم الشيخ ، وحسن إسلامه ، وأسلم معه كثير من أبناء قومه برغبتهم ، ومن تلقاء أنفسهم ، عن إيمان وثقة وعقيدة .

وقد كان من بين الأسرى في حروب صلاح الدين فتاة فرنسية ، فتقدمت جهة صلاح الدين ، وقالت له . « لقد قتلت أبي في الحرب ، أيها المجرم القتّال ، وأسَرتَ أخوين لي ، وأخذتَ أملا كنا التي كنا نملكها ، فلم يبق لي من ينفق عليّ ، ولم يبق لي ما آكل منه . وإنك اليوم تمنّ على بجعلي حرة ؛ لكي يزداد تعبي وعذابي . »

فضبط صلاح الدين نفسه وشعوره ، ولم يتأثر من تلك الشتائم المُرّة ، بل عفا عنها ، وابتسم في وجهها ، وسألها : ما اسم أخويك ؟ فذكرت له اسميهما .

فأرسل جنديا ليحضرهما ، فحضرا ، وحضر معهما القائد الذي كان الأخوان .

من نصيبه ، فطلب إليه صلاح الدين أن يبيعه هذين الأسيرين . فامتنع القائد عن أخذ الثمن عندما عرف غرض سيده ، وتركهما حرين يتمتعان بالحرية ، ثم ردّ لهما ما كانا يمتلكانه من الأموال ، ثم أتى جهة الفتاة وسألها :

هل مازلتِ عند رأيكِ من أننى مجرم قتّال ؟

فقالت الفتاة : عفوا ياسيدى ، فإنما هى شدة الحزن على أبى ، وفقدِ من كان ينفق علىّ ، وضياع مالى ، وخوفى مما تأتى به الأيام ، وما كنتُ أسمعه فى بلادى خطأ عن ظلم المسلمين ، كل هذا جعلنى أنطق بأشياء لا أفهمها . وإننى مع هذا لستُ يائسة من صفحك ، وكرم عفوك . ولما قامت وأرادت الانصراف ، سألها صلاح الدين : إلى أين أنت ذاهبة ؟

فأجابت إلى بلادى.

فسألها : وماذا ستقولين لقومك ؟

أجابت : سأقول للمتعصبين منهم كلمة الحق فى الإسلام والمسلمين، ثم تركت بيت المقدس هى وأخواها ، بعد أن أسلموا . فلما وصلت إلى قومها أخذت تدعو الناس إلى الإسلام ، وتذكر لهم محاسنه وعدالته ، وتحكى ما رأته بنفسها من حسن معاملة المسلمين لها ، وشفقة صلاح الدين وعظمته ، ونبله وإنسانيته . فلم تعجبهم هذه الدعوة من فتاة منهم ، واتفقوا فيما بينهم سرًّا على قتلها ، وقتلوها ظلما ؛ لأنها تقول الصدق ، وتدعو إلى الحق ، وتنادى بالإسلام . فماتت شهيدة مجاهدة فى سبيل الله ، وإعلاء كلمته .

وذات يوم كان صلاح الدين جالسا فى خيمته ، يحكم بين الناس بالعدل والإحسان ، فوقفت أمام الخيمة سيدة مسيحية ، تصيح والحزن يخنق صوتها ، حتى ارتمت على الأرض ، فأبعدها الحراس عن الخيمة ، ولكن صلاح الدين

الطيب القلب ، النبيل الخلق، سمع صوتها ، فأمر بإدخالها فى الحال . فلما وقفت بين يديه سألها : ماذا أصابك أيتها السيدة الحزينة الباكية ؟

فأجابت . لقد اختطف اللصوص ولدى ، وأسِر زوجى فى الحرب ، وهو الذى ينفق علىّ .

فتألم صلاح الدين ، وحزن كثيراً لحالها ، وأمر فى الحال بإخراج زوجها من بين الأسرى ، ثم طلب من جنوده أن يبحثوا عن الغلام المسروق ، فبحثوا عنه حتى وجدوه، فأحضروه لأمه ، ففرحت السيدة حتى بكت من شدة الفرح ، وأخذت تمدح صلاح الدين ، وتدعو له بأن يبارك الله فى عمره .

فقال صلاح الدين : نحن لم نفعل أيتها السيدة إلا ما أمرنا به ديننا الكريم .

قالت السيدة : هل يأمر دينكم يا مولاى بالرحمة والعطف على الأعداء ، ومساعدة المنكوبين والضعفاء ؟

قال صلاح الدين : نعم يا سيدتى ، فالإسلام دين الله فى هذه الدنيا ، وهو رحمة للناس جميعاً ، وسلام لكل الأمم .

قالت السيدة : وكيف أستطيع يا سيدى أن أكون مسلمة ؛ فإنى قد أحببت هذا الدين السمح الكريم من صفاتكم الجميلة ، وأخلاقكم النبيلة ؟

قال صلاح الدين : طريقة الإسلام سهلة ،تشهدين أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله .

فنطقت المرأة بالشهادتين ، ودخل نور الإسلام قلبها ، ثم تلفتت وراءها ، فوجدت زوجها الذى كان أسيراً يقول مثل قولها . وأسلمت المرأة ، وأسلم معها زوجها ؛ لما فى الإسلام من منطق وعدالة وإنسانية ، ورحمة وتسامح ومدنية .

وقد كان الحكام من المسلمين فى الأندلس متسامحين كل التسامح مع

المسيحيين ، فقويت الصلة والعلاقة بين المسيحيين ، والمسلمين . وسمى المسيحيون أبناءهم وبناتهم بأسماء عربية ، وحلت اللغة العربية محل اللغة اللاتينيـــة فى جميع أنحاء أسبانيا، حتى أهملت اللاتينية ونسيت فى القرن الحادى عشر الميلادى فى تلك البلاد. ولكثرة المعاشرة والاختلاط بالمسلمين ثابر المسيحيون على تعلم اللغة العربية وآدابها ، لغة القرآن الكريم والدين . ولهذا لا نعجب إذا رأينا مؤلفاً مثل (ألفار Alvar) معروفاً بعدائه للإسلام ، وتعصبه ضد الدين الإسلامى يعترف بأن لغة القرآن عذبة جميلة فصيحة جذبت حتى المسيحيين ، فأخذوا يقرءونه ، ويعجبون به كل الإعجاب[1] .

الإسلام يدعو إلى حسن المعاملة

إن الإسلام دين اللين واللطف ، دين الرفق والعطف ، يدعو إلى حسن المعاملة والملاطفة ، والرقة ولين الجانب ، حتى مع الخصوم والأعداء ، قال جل شأنه مخاطباً موسى وأخاه هرون عليهما السلام حينما أمرهما بالذهاب إلى فرعون ليدعواه إلى عبادة الله :

« اِذهَبْ أَنْتَ وأَخوكَ بآياتِي ، ولا تَنِيا في ذِكْرِي . اِذْهَبا إلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى . فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى . »

فالله تعالى يقول لنبيه موسى عليه السلام : اِذهبْ إلى فرعونَ أنتَ وأخوك هرون، وادعواه إلى عبادتى وتوحيدى ، ومعكما آياتى ومعجزاتى . ولا تَنِيا : ولا تُقصِّرا فى ذِكرى وعبادتى . اذهبا إلى فرعون إنه طغى وتمرد وتجبر، وادَّعى أنه رب وإله،

---

(١) ارجع إلى كتاب :
The Teaching of Islam, by J. W. Arnold

فقولا له قولا ليناً لا خشونة فيه ولا عنف ، كله رفق ولين ، حتى يطيع ويمتثل ، ويتذكر ويتعظ ، ويخاف الله ، ويؤمن به .

وقد روى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال لأبى مريم السلولى — وكان هو الذى قتل أخاه زيد بن الخطاب — : « والله إنى لا أحبك حتى تحب الأرض الدم » .

قال السلولى : أفيمنعنى ذلك حقاً؟

قال عمر العادل : لا .

قال السلولى : فلا ضيرَ ؛ إنما يأسى على الحب النساء .

فانظر إلى حسن المعاملة ، والرفق ، والعدالة المطلقة، حتى مع الأعداء والعصاة.

وفى الآيات القرآنية الكريمة الآتية قد بين سبحانه وتعالى كيف يكون حسن المعاملة ، وكيف يكون سوء المعاملة ، وكيف نعامل الناس بتأدية مالهم من الحقوق ، ووضح الله ما أعده لمن أحسن هذه المعاملة من النعيم المقيم ، وما أعده لمن لم يحسنها من العذاب الأليم .

« والذينَ يُوفُونَ بعهدِ اللهِ ، ولا يَنقضُونَ الميثاقَ ، والذينَ يَصِلونَ ما أمرَ اللهُ بهِ أنْ يُوصَلَ ، ويَخشَوْنَ ربَّهُمْ ، ويَخافونَ سُوءَ الحِسابِ . والذينَ صَبَرُوا ابتِغاءَ وَجهِ ربِّهم ، وأقاموا الصَّلاةَ ، وأنفقوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وعَلانيةً ، ويَدْرَءونَ بالحَسَنةِ السَّيِّئةَ ، أولئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ . جنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلونها ومَن صَلَحَ مِنْ آبائِهم وأزْواجِهِم وذُرِّيَّاتِهِمْ ، والملائكةُ يَدْخُلونَ عليهِمْ مِنْ كلِّ بابٍ . سَلامٌ عَليكمْ بما صَبَرْتُمْ ، فنِعْمَ عُقْبَى الدارِ . والَّذِينَ يَنقضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثاقِهِ ، ويَقطَعُونَ ما أمرَ اللهُ بهِ أنْ يُوصَلَ ، ويُفسِدُونَ فى الأرْضِ ، أولئِكَ لَهُم اللَّعْنَةُ ، ولَهمْ سُوءُ الدَّارِ . »

فالله جل شأنه قد بين فى هذه الآيات ما أعده من الثواب الجزيل لمن أحسن المعاملة معه سبحانه وتعالى ، ومع المؤمنين من عباده ، وما أعده من العقاب الشديد لمن لم يحسن معاملة الله والمسلمين .

وقد وضح الله أن حسن المعاملة يكون بسبعة أشياء وهى :

الأول : الوفاء بعهد الله ، وامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه . هذا بالنسبة لله . ويكون الوفاء بالنسبة للخلق بإنجاز الوعد ، فإذا عاهد الإنسان أحداً على القيام بأمر من الأمور وفَى بعهده . وإذا حدث صدق فى حديثه . وإذا اؤتمن حافظ على أداء الأمانة .

الثانى : صلة ما أمر الله به أن يوصل ، ونهَى أن يقطع؛ بأن يراقب الله دائماً فى السر والعلانية ، ويحسن إلى المحتاجين على قدر طاقته ، ويشفق على المؤمنين ، ويدفع الضرر عنهم ، ويعود المرضى منهم ، ويصل الرحم من أقاربه ، ويطعمهم ، ويساعدهم ، ويقضى عنهم ما عليهم من دين ، ويزورهم ، ويواسيهم ، ويفرج غمهم وحزنهم .

الثالث : الخوف من الله فى جميع الأحوال ، والخوف من سوء الحساب فى فى الدار الآخرة ؛ حتى يوطن قلبه على طاعة الله ، وإرضائه فى السر والعلانية ، فيما يقول وما يفعل .

الرابع : الصبر عن المحرمات ، ونبذ المنكرات ، واحتمال المشاق فى نصرة الله ودينه . ولا غرض من ذلك سوى طلب مرضاة الله ، وابتغاء وجه ربه .

الخامس : إقامة الصلاة ، وأداؤها فى أوقاتها المحددة لها .

السادس : التصدق مما رزقهم الله فى السر والعلانية على المحتاجين من الفقراء والمساكين ، والأرقاء والمدينين ، والمسافرين ، وعلى كل من تجب لهم

الصدقة ، والإنفاق ـ مما تفضل الله به عليهم ـ على الزوجات والأقارب والأجانب .

السابع : درء السيئة بالحسنة أى دفعها بها ؛ فإذا آذاهم أحد قابلوه بالحسنة والجميل ، وصبروا على الإيذاء ، وصفحوا عن المسىء المؤذى . وإن أساء إليهم شخص عفوا عنه ، وإن حدثت منه هفوة أغضوا عنها . وهذا هو المثل السامى فى الأخلاق الإسلامية .

ثم بين سبحانه وتعالى مايترتب على حسن المعاملة من السعادة الأبدية بقوله :

«أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ، جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدخُلُونَها . »ويقيمون فيها ، ويخلدون بهـــا ، هم والصالحون من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ، وتدخل عليهم الملائـكة من كل باب من أبواب الجنة ، ويسلمون عليهم ، ويهنئونهم بما أنعم الله به عليهم من الإقامة فى دار السلام، جزاء حسن معاملتهم ، وصلتهم بالله وخلقه .

وبعد أن بين جل شأنه حال السعداء ، وما أعده لهم من النعيم المقيم أتبع ذلك ببيان أحوال الأشقياء ، وما أعده لهم من العذاب الأليم ، وهم الذين لم يحسنوا المعاملة مع الله ، ومع عباده فقال :

« والَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِن بَعْدِ مِيثاقِهِ ، ويَقْطَعُون مَا أَمرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ، أُولَئِكَ لَهمُ اللَّعنةُ ، ولَهُمْ سُوءُ الدَّارِ . »

الفصل الخامس

الإســــــلام يدعو إلى الحرية

الإسلام كفل الحرية الشخصية للأفراد :

لقد كفل الإسلام للأفراد الحرية الشخصية ، وأعطى الإنسان الحرية في أن يتصرف في شئونه الخاصة به ، وجعله آمنا من الاعتداء عليه في نفسه أو ماله أو عرضه أو مسكنه ، أو أي حق من حقوقه ، بشرط ألا يكون في تصرفه عدوان على غيره .

وإن الإسلام قد منح المسلم الحرية الشخصية بأنواعها المختلفة، وهي: حرية الفرد ، وحرية المسكن ، وحرية التملك ، والحرية في الرأي ، والعقيدة ، والتعليم، والحرية السياسية ، والحرية المدنية. فالحرية التي بسط الإسلام لواءها على الناس — هي الحرية الكاملة في أوسع مظاهرها .

ففي حرية الفرد حماه من إيذاء غيره له ، وجعله مطمئنا على نفسه من أي اعتداء . قال تعالى : « لا عُدوانَ إلا علَى الظالِمين » . فنهى عن العدوان إلا على الظالم . وفي الوقت نفسه قد أمر الله أن يكون الاعتداء على الظالم مماثلا لاعتدائه بغير زيادة ؛ حتى تتحقق العدالة الإسلامية . وفي هذا يقول جل شأنه : « فمَنِ اعتدَى عَليكم فاعتَدُوا عَليه بمثلِ ما اعتدَى عَليكم . »

وفي حرية المسكن جعل الإسلام للبيوت التي يقيم فيها المسلمون حرمة وآدابا خاصة ، تؤخذ من قوله تعالى :

« يأيُّها الَّذِينَ آمَنوا لا تَدْخُلوا بُيوتًا غيرَ بُيوتِكمْ ؛ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا[1] »

---

(1) أي حتى تستأذنوا .

وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ. فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَداً فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ. وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا، هُوَ أَزْكَى لَكُمْ. وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ. »

وقوله صلى الله عليه وسلم: « إذا استأذنَ أحدُكم ثلاثاً فلمْ يُؤذنْ له فليَرْجِعْ. »

فآداب الاستئذان ومراعاة حرمة البيوت التى تنادى بها المدنية الحديثة فى القرن العشرين قد نادى بها الإسلام منذ أربعة عشر قرنا تقريبا .

ولم يقرر الإسلام عقوبة النفى والإبعاد عن المسكن إلا جزاء لمن يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا .

قال جل شأنه : « إنَّمَا جزَاءُ الذينَ يُحارِبُونَ اللهَ وَرَسولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِى الأَرْضِ فَساداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِنْ خِلَافٍ، أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الأَرْضِ . ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِى الدُّنْيا . وَلَهُمْ فِى الآخِرَةِ عَذابٌ عَظِيمٌ . »

وفى حرية التملك قد منح المسلم الحرية فى امتلاك العين أو الانتفاع بها ، أو التصرف فيها ببيعها وتأجيرها لغيره . فهو حر فى أن يتصرف فيما يملك ما دام هناك رضا واختيار .

قال تعالى : « يأيها الذينَ آمَنوا لا تَأْكلُوا أَموالَكُمْ بينَكُمْ بالباطِلِ ، إلا أنْ تَكونَ تجارةً عنْ تَرَاضٍ منكُمْ . »

وفى القرآن الكريم والسنة المحمدية نهى فى عدة مواضع عن التعدى على ملك الغير بدون حق .

قال جل شأنه : « ولاَ تأْكلُوا أموالَكم بينَكمْ بالباطل ، وتُدْلُوا بها إلى الحكامِ ، لتأْكلُوا فريقاً من أمْوَالِ الناس بالإثم وأنتم تعلَمون . »

وقال تعالى : « إن الَّذين يأْكلُون أموالَ اليتامَى ظُلماً إنمَّا يأْكلُون في بُطونِهم ناراً وسَيَصلَوْن[1] سَعيراً[2] . »

وقال عليه الصلاة والسلام : « لا يَحِلُّ لأَحدٍ أن يأْخذَ متاعَ أخيهِ لاعِبًا ولا جادًّا . فإنْ أخذَهُ فليَرُدَّهُ عليْه . »

وقال : « على اليدِ ما أَخذتْ حتَّى تردَّ . »

وقد قرر الإسلام معاقبة السارق ليضمن حرية التملك .

قال تعالى : « والسَّارقُ والسارِقةُ فاقطَعوا أَيديَهُما . »

ومما يؤيد احترام الملكية تقرير حق الشفعة لدفع الضرر عن الجار من الملاك .

الإسلام وحرية العقيدة :

إن الإسلام قد ترك لكل إنسان الحرية في اختيار الدين الذى يعتقده ، ويؤمن ويثق به ، على حسب ما يميل إليه عقله وتفكيره ، ولم يجبر أحدا على أن يسلم ويعتنق الإسلام .

وقد ترك للناس الحرية في اختيار الدين الذى يتدينون به . قال جل شأنه : « لا إكراهَ في الدِّين، قد تبَيَّنَ الرُّشْدُ من الغَيِّ» أى قد تبين الحق من الباطل . وقال تعالى : أفأَنْتَ تُكرِهُ النَّاسَ حتى يكُونوا مُؤمِنين؟ » وقال: « لكم دِينُكم ولِيَ دينِ » .

(١) من صَلَيت اللحم : شَويتُه (٢) السعير : النار

فالإسلام ينادي بالحرية في العقيدة ، والإيمان بعد البحث والنظر والتفكير والرجوع إلى العقل والمنطق ، ولا يقول بالمحاكاة والتقليد والإكراه في الدين .
ويؤيد هذا قوله تعالى للرسول الكريم يأمره بالتذكير والموعظة الحسنة ، في الدعوة إلى الإسلام ، لا بالسيطرة والإجبار : « فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ، لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ » .

وقد حث القرآن الكريم الناس على النظر في ملكوت السموات والأرض ، وما خلق الله حتى يهتدوا إلى الإيمان الكامل، والدين الحق ، وهو الإسلام .

قال تعالى : « إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ ، واختلافِ الليلِ والنَّهارِ ، والفُلْكِ التي تجري في البحرِ بما ينفعُ النَّاسَ ، وما أنزلَ اللهُ من السَّماءِ من ماءٍ ، فأحيا بهِ الأرضَ بعدَ موتِها ، وبثَّ فيها مِنْ كلِّ دابَّةٍ ، وتصريفِ الرِّياحِ والسَّحابِ المُسَخَّرِ بينَ السَّماءِ والأرضِ ، لآياتٍ لقومٍ يعقلون . »

وقال عز وجل : « أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ ، وَمَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ ؟ »

وقال : « يأيُّها النَّاسُ اعبُدوا ربَّكمُ الذي خلقكمْ والَّذينَ من قبلِكمْ لعلَّكم تتَّقونَ . الَّذِي جَعَلَ لكمُ الأرضَ فِراشًا ، والسَّماءَ بِناءً ، وأنزلَ من السَّماءِ ماءً ، فأخرجَ بهِ مِنَ الثَّمراتِ رِزقًا لكمْ . فلا تجعلوا للهِ أنداداً وأنتم تعلمون . »

ولكي يبين لهم أن الخالق للسموات والأرض إله واحد لا شريك له .
قال تعالى :

لَو كانَ فيهما آلِهَةٌ إلاَّ اللهُ لَفَسَدَتا » .

ولما جاء به الإسلام من الحرية فى العقيدة ، والرجوع إلى العقل والمنطق قد انتشر انتشارا عظيما فى مدة وجيزة .

وقد نعى القرآن الكريم على من يؤمن بطريق محاكاة الآباء فى دينهم من غير نظر وتفكير .

قال جل شأنه : « بلْ قالوا إنَّا وَجَدْنَا آباءنا على أُمَّةٍ ، وإنَّا علَى آثارهم مُهتَدُون » . والأمة هى : الملة والطريقة .

وقد منح الإسلام المسيحيين واليهود الحرية الكاملة فى إقامة الشعائر الدينية فى الكنائس المسيحية ، والمعابد اليهودية . قال عليه الصلاة والسلام فى معاملة الذميين : « لهم ما لنا وعليهم ما علينا . » وفى جميع العصور الإسلامية كان المعاهدون من الكفار يعطون العهود على التأمين على أنفسهم وأموالهم ، والحرية فى عقائدهم ، وإقامة شعائرهم . ومما قيل فى عهد عمر رضى الله عنه لأهل إيليّا . « أعطاهم الأمان لأنفسهم وأموالهم ، وكنائسهم وسائر ملتهم . لا تسكن كنائسهم ، ولا ينقص منها ولا من خيرها ، ولا من صلتهم . ولا يكرهون على دينهم ، ولا يضار أحد منهم » .

فلا ريب أن الإسلام قد أعطى كل إنسان الحرية فى البحث والتفكير فى تكوين العقيدة التى يعتنقها ، وترك أصحاب كل دين وما يدينون به . ولم يكره أحدا على اعتناقه . ولم يحاول الإسلام — ولو مرة واحدة — الحجر على العقول أو التضييق عليها ، بل أفسح لها المجال فى التفكير لاختيار العقيدة الدينية التى تثق بها ، ومما يدل على احتفال الإسلام بالعقول وإطلاقها من قيودها أنه جعل التفكير فى الكائنات عبادة من أشرف العبادات ، وقد كفل الإسلام الحرية الدينية

بصورة لم تتهيأ لدين آخر ، وله فى ذلك مبادئ سامية هى غاية ما وصل إليه التفكير الحر .

فالمبدأ الأول هو ألا يكره أحد على الدخول فى العقيدة الإسلامية . وذلك بعد أن رسخت قواعد الدين الإسلامى فى النفوس ، وثبتت أصوله فى القلوب . وقد سار المسلمون فى حروبهم على هذا المبدأ ، فحين فتحوا مصر لم يرغموا أهلها من القبط على الدخول فى الإسلام ؛ بل تركوا لهم الحرية الكاملة فى اتباع دينهم ؛ وغاية ما فعلوه أنهم فرضوا الجزية على من لم يدخلوا الإسلام ، ليكون لهم ما للمسلمين من الحقوق ، ومن الأمن على نفوسهم وأرواحهم وأموالهم .

وأما المبدأ الثانى فهو أمر المسلمين بمحاولة غيرهم من أهل الأديان الأخرى بالمنطق والعقل ، وبأن يكون عماد المناقشة الحجة البينة ، والعظة الخالصة ، وتلك هى المناقشة الدينية الحرة التى ينطق بها كتاب الله الكريم :

« ولا تُجادِلوا أهلَ الكِتابِ إلا بالَّتى هِىَ أحسنُ . » أى لا تجادلوهم إلا بأحسن الطرق للمجادلة .

وأما المبدأ الثالث فهو أن يكون الإيمان عن اقتناع ظاهر ، لا عن محاكاة ، ولذلك نعى القرآن الكريم على أولئك الذين لا يستعملون عقولهم فى اختيار الدين الصحيح ، واتباع العقيدة السليمة ، والاقتصار على محاكاة آبائهم فى عقائدهم . قال تعالى فى وصف من ضلوا ، وغفلوا عقولهم .

« وإذا قيلَ لهمُ اتَّبِعُوا ما أنزلَ اللهُ ، قالُوا بَلْ نَتَّبِعُ ما أَلْفَينا[1] عليهِ آباءَنا ، أَوَ لَوْ كانَ آباؤُهمْ لا يَعقِلون شيئاً ولا يَهتَدُون[2] . »

---

(١) وجدنا .　　(٢) سورة البقرة .

الإسلام وحرية الرأى والفكر :

إن الإسلام يؤيد حرية الرأى ، ويقرر حرية التفكير ، مادام الرأى معتمداً على الأصول الدينية والأدلة الصحيحة . والموضوع الذى يفكر فيه المسلم عادة ، قد يكون غير متصل بالدين ، وقد يكون دينيا متصلا به . فإن كان غير دينى فلكل إنسان الحرية فى أن يبدى رأيه فيه بحسب ما يراه وما يصل إليه تفكيره واستنباطه. وقد حدث فى إحدى الغزوات أن أشار الرسول صلى الله عليه وسلم على من معه أن ينزلوا فى مكان معين وفى جهة حددها لهم. فسأله أحد الصحابة: أهذا منزل أنزلكه الله ، أو هو الرأى والحرب والمكيدة ؟

فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : « بل هو الرأى والحرب والمكيدة »

فقال الصحابى للرسول : ليس هذا المكان صالحا للنزول به ، وأشار بإنزال المسلمين فى جهة أخرى عينها لهم . فقبل الرسول رأيه ، وأخذ بمشورته ، وتحول الرسول ومن معه ، واتجهوا إلى المكان الذى نصح به الصحابى . وهذا يدل على أن الرسول العظيم لم يكن مستبدا برأيه مطلقاً ، بل كان المثل الأعلى للديمقراطية الإنسانية .

وإذا كان الموضوع دينيا متعلقاً بالشئون الدينية فلكل مجتهد أن يبدى الرأى الذى يراه ويصل إليه باجتهاده ، مادام رأيه فى حدود أصول الدين ، وقواعده ونصوصه الصحيحة ؛ لأن الإسلام قد جعل القياس مصدراً من مصادر التشريع . والقياس هو أن يلحق المجتهد من العلماء الأشباه بالأشباه ، والنظائر بالنظائر ؛ لاستنباط الأحكام التى لم ينص عليها . وفى هذا الاستنباط مجال متسع للبحث والنظر والتفكير للوصول إلى الرأى الذى يتفق مع الدين كل الاتفاق . وهذا هو الاجتهاد .

عن عمرو بن العاص رضى الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «إذا حكَمَ الحاكِمُ فاجتهَدَ ثمَّ أصابَ فلَهُ أجْرَانِ ، و إذا حكَمَ فاجتهدَ ثمَّ أخطَأَ فلَهُ أجْرٌ . »

فالحرية الفكرية كانت من المبادئ الأساسية التى قام عليها الإسلام ، بل هى روحه ولبه ، ولذلك لم يرض الإسلام بالإيمان التقليدى ، وحث على التفكير الصحيح لاختيار العقيدة السليمة ، التى لاتنا فى العقل .

وقد ورد فى سنة رسول الله أن كل مجتهد مأجور . إن أخطأ فله أجر ، و إن أصاب فله أجران . فالمثوبة على الاجتهاد للوصول إلى الأحكام الشرعية الصحيحة أكبر دليل على أن الإسلام يشجع الحرية فى إبداء الرأى كل التشجيع ، سواء أكانت النتيجة خطأ أم صوابا .

ولقد تمسك المسلمون بالحرية فى الرأى ، تلك الحرية التى حكمت العقل والمنطق فى الدين والإيمان ، وفى كل شىء . قال جل شأنه : « وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً ، صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ . » وفى تفسير هذه الآية يقول المرحوم الإمام الشيخ محمد عبده : « إن الآية صريحة فى أن التقليد بغير عقل ولا هداية هو شأن الكافرين . و إن المرء لا يكون مؤمنا إلا إذا عَقَلَ دينه ، وعرفه بنفسه حتى اقتنع به . فمن ربى على التسليم بغير عقل ، والعمل ولو صالحا بغير فقه ، فهو غير مؤمن . »

والحق أن الإسلام قد أحدث طفرة كبيرة فى التفكير ؛ فقد جاء بمبادئ مثالية تتمثل فيها الإنسانية والرجوع إلى العقل والمنطق فى العقائد الدينية . وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول: «الدين هو العقل . ولا دينَ لمن لا عقلَ له .» فالدين هو العقل نفسه ، ولا يكلف الإنسان شيئا إلا إذا كان عاقلا متصفا بالعقل . والمجنون الذى لا عقل له لا دين له .

الإسلام أطلق الحرية للعقول .

فالإسلام قد أطلق الحرية للعقول ، فأباح التفكر في ملكوت السموات والأرض ، بل حث عليه ، وأغرى به ، ولذلك أثنى القرآن الكريم على المفكرين الذاكرين الذين يستعملون عقولهم ، ونعى على الغافلين الضالين الذين ينسون عقولهم ، فقال تعالى :

« إنَّ في خَلْقِ السَّمٰوَاتِ والأرضِ ، واختِلافِ اللَّيْلِ والنَّهارِ لآياتٍ لأُولي الألْبَابِ ، الَّذينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِياماً وَقُعُوداً وعَلَى جنُوبِهِمْ ، ويَتَفَكَّرُونَ في خَلْقِ السَّمٰوَاتِ والأرضِ ، رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هٰذا باطِلاً ، سُبْحَانَكَ ، فَقِنَا عَذابَ النَّارِ[1] . »

ومن الحرية الفكرية : حرية الرأى ، وكانت مكفولة فى الإسلام فى كل عصر من عصوره ، وتتصل حرية الرأى بالحرية العلمية ، ويقصد بها النظر فى ظواهر الطبيعة المختلفة ، من حيوان ونبات وجماد ، وتقرير ما يراهُ العقل ، وما تثبته التجارب ، وتؤيده النظريات ، ولذلك خدمَ الإسلام العلم ، وجاء القرآن الكريم حافلاً بكثير من الآيات الشريفة التى فيها إشارة وتلميح إلى كثير من النظريات الكونية ، التى أثبتها العلم الصحيح ، وعلى كل من يمارى فى ذلك أن يطلع على الكتاب الحكيم ، فإنه يراه قد وضع أبلغ دستور علمى للتفكير والبحث .

ويجد القرآن يحترم العقول ، ويكثر من توجيه الخطاب إليها ، ويجعلها أساس التكليف ، ومحطّ الثواب والعقاب .

يقول الله تعالى : « أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا[2] . »

يقرع أولئك الذين لم يفكّوا عقولهم من أغلالها ، ولم يُطلِقوها من قيودها .

كما يقول جل شأنه : « وكَأَيِّ مِنْ آيَةٍ في السَّمٰوَاتِ والأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيها ، وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ[3] . »

---

(١) سورة آل عمران ١٩٠ — ١٩١ (٢) سورة محمد . (٣) سورة يوسف .

ويقول تعالى : « وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ . »

ويقول تعاظم وارتفع : « أَفَلاَ يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ، وإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ، وَإِلَى الجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ، وإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ[١] . » سطحت : بُسطت ، فيستدلون بها على قدرة الله تعالى .

ويقول عز شأنه : « وآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ، والشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لهَا ، ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . وَالقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنازِلَ حَتَّى عَادَ كالعُرْجُونِ الْقَدِيمِ . لاَ الشَّمسُ يَنْبَغِي لهَا أَنْ تُدْرِكَ القَمَرَ ، وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ، وكُلٌّ في فلَكٍ يَسْبَحُونَ[٢] . »

نسلخ : نفصل . والعرجون القديم : عود الشماريخ الرقيق المتقوس المصفر . يسبحون : يسيرون .

ويقول عز وجل : « وَمِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّمٰوَاتِ والأَرضِ ، واخْتِلاَفُ أَلسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ، إِنَّ فى ذَلِكَ لآياتٍ لِلْعَالِمِينَ . ومِنْ آياتِهِ مَنامُكُمْ باللَّيْلِ وابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ ، إِنَّ فى ذَلِكَ لآياتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ . وَمِنْ آياتِهِ يُرِيكُمُ البَرْقَ خَوْفاً وطَمَعاً ، ويُنَزِّلُ مِنَ السَّماءِ مِنْ مَاءٍ فيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، إِنَّ فى ذَلِكَ لآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلونَ . »

والقرآن الكريم وهو يخاطب العقول ، حريص فى أسلوبه على ألا يفرض على تلك العقول نظرية معينة ، بل يحثها على التفكير والتأمل فى خلق الله ، وللعقول أن تقرر ما تهتدى إليه من البحث . وعلى هذا النمط من إطلاق الحرية للعقل ، جرى الإسلام فيما يتعلق بالإيمان ، فأطلق للإنسان الحرية فى أن يختار العقيدة الدينية بعد إقناع و بحث .

---

(١) سورة الغاشية . (٢) سورة يس ٣٦ — ٤٠ .

الإسلام وحرية التعلم :

إن الإسلام دين علم ونور ، لا دين جهالة وظلمة ؛ فأول آية نزل بها الوحى فيها أمر للرسول بالقراءة ، وتنويه بشأن العلم والتعليم ، نلمسه فى إسناد التعليم إلى الله تعالى : « اقرأ باسم ربك الذى خلق، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرمُ الذى علَّم بالقلم ، علَّم الإنسان ما لم يعلمْ » . وقوله تعالى مخاطباً نبيه محمدا : « وقُلْ ربِّ زِدْنى عِلماً » .

وقد نوه القرآن الكريم بشأن العلماء ، وما لهم من منزلة رفيعة ، ومكانة سامية ، فقال : « قُلْ هَلْ يَستَوى الذينَ يَعلَمُون والذينَ لا يَعْلَمونَ . » وقال: « يَرْفَع اللهُ الَّذين آمَنُوا مِنكمْ والذِينَ أُوتُوا العِلْمَ دَرجَاتٍ . »

فالعلم مقدس فى نظر الإسلام ، وهو أسمى شىء فى الحياة لدى المسلمين .

وللعلماء العاملين منزلة فى الإسلام تلى منزلة الأنبياء . قال الرسول الكريم : « العلماء ورثة الأنبياء » .

وقد دعا الرسول صلى الله عليه وسلم إلى التعليم وأوجبه ، فقال: « علموا أولادكم فإنهم مخلوقون لزمان غير زمانكم » .

ولم يفرق الإسلام فى طلب العلم بين الأبناء والبنات ، فقد قال عليه الصلاة والسلام : « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » من غير تفرقة بينهما .

فالإسلام يطالب المسلم والمسلمة بالتعلم ، وطلب العلم ، والعمل به ، ويدعو إلى الاستمرار فى التعلم والبحث والاطلاع .

قال الرسول : « لا يزال الرجل عالما ما طلب العلم ، فإذا ظَنَّ أنه قد علِمَ فقد جهل » .

وكان صلى الله عليه وسلم يشجع التعليم بعمله وقوله ؛ فقد كان يطلق سراح

الأسرى المتعلمين من الكفار إذا علموا بعض المسلمين القراءة والكتابة، حرصا منه عليه الصلاة والسلام على ذيوع التعليم ونشره بين جميع المسلمين .

ولم يفته أن يعطى المرأة حظها و نصيبها فى تعلم القراءة والكتابة ؛ فقد سأل الشفاء العدوية أن تقوم بتعليم زوجه السيدة حفصة القراءة والكتابة ، ضاربا بذلك أحسن الأمثال لأمته فى وجوب تعليم البنات والسيدات .

وحسبك أن العلم فى نظر الرسول الكريم قوام الدنيا ، وقوام الدين ، حيث قال : « من أراد الدنيا فعليه بالعلم ، ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم ، ومن أرادهما معاً فعليه بالعلم » .

فالإسلام يشجع نشر العلم والتعليم ، وتقبل العلوم المختلفة . وإن ما ترجم إلى العربية من علوم الفرس واليونان فى عهد المنصور والرشيد والمأمون دليل على تقدير الإسلام لحرية العلم وتأييده للتعليم .

فالإسلام ينادى بحرية العلم ، ويفرضه على كل مسلم ومسلمة .

قال صلى الله عليه وسلم :

« يُبعَثُ العالم والعابد ، فيقال للعابد : ادخل الجنة ، ويقال للعالم : اتّئِدْ حتى تشفعَ للناسِ ».

الإسلام والحرية السياسية :

إن الحرية السياسية قد كفلها الإسلام حين قرر مبدأ الشورى فى الحكم، فقال تعالى مخاطباً نبيه الكريم : « وشاوِرْهم فى الأمر » . وسنتكلم بإسهاب فى هذا الكتاب عن « المشاورة فى الإسلام » على أنها أساس هام من أسس (الديمقراطية) الإسلامية .

والحرية المدنية هى التى يقصد بها أن يكون الشخص كامل الأهلية لأن يباشر بنفسه جميع الالتزامات التى يجب أن يقوم بها ، باعتباره إنسانا حراً ، فله حق التملك ، ومباشرة عقود البيع والشراء ، والرهن والإجارة ، والوصية والزواج. وهذه الحرية من حق كل مسلم متى بلغ سن الرشد والتمييز . والحرية المدنية بهذا المعنى من حق كل مسلم حر بالغ . ولولى الأمر الحق فى أن يتدخل فى الملكية إذا كانت مشوبة باستغلال النفوذ أو السلطان ؛ كأن يستغل المالك ما لديه من السلطة ، فيتضاعف ما يملكه ، لما له من سيطرة فى الحكم . والأمثلة على ذلك كثيرة فى التاريخ الإسلامى .

فالإسلام هو دين الحرية الصحيحة ، سبق (الديمقراطية) الحديثة بأزمنة طويلة إلى تقرير هذا المبدأ الإنسانى ، فنشره فى العالم عدلا شاملا ، وحقا كاملا ، حتى رسخت أصوله ، ونمت فروعه ، فاطمأن الناس ، وعكفوا جاهدين دائبين على الإنتاج العلمى لسعادة البشرية وصلاحها ، فكان من المسلمين الصادقى الإيمان جموع زاخرة من العلماء الأعلام ، بحثوا وألفوا كتبا كثيرة ، وقدموا للإنسانية خيراً عميما . وعلى أساس هذا التراث العلمى الخالد الذى تركوه استيقظت أوروبة من سباتها العميق ، فكان من ثمرات هذا البعث تلك المدنية التى تدعى الآن فى زهو وخيلاء أنها هى التى كفلت حقوق الإنسان فى الحرية ، ولولا التعصب الأعمى ما أنكرت الفضل على ذويه .

ومن علماء المسلمين الذين كانت لهم الزعامة فى العلم والأدب والتأليف ، وكان لهم فضل كبير على العالم كله على سبيل المثال :

(١) أبو بكر محمد بن زكريا الرازى (٨٦٥ — ٩٢٦ م) وكان يعد دائرة معارف علمية ، ومرجعاً فى الطب والكيمياء والطبيعة والعلوم .

(٢) وأبو على الحسين بن عبد الله بن سينا (٩٨٠ — ١٠٣٧ م) وهو الطبيب والفيلسوف والمربى والعالم بالتحليل النفسى .

(٣) وأبو على الحسن بن الهيثم (٣٥٤ هـ — ٤٣٠ هـ) وهو العالم الطبيعى، والمهندس الرياضى، ومؤسس علم الضوء .

(٤) وأبو نصر الفارابى (٧٨٠ — ٩٦٠ م) وكتابه إحصاء العلوم أشبه بدائرة معارف عامة ، فى النحو والمنطق ، والرياضيات والإلهيات ، والطبيعيات ، والأخلاق ، والقانون . وكان يجيد الموسيقا.

(٥) وجابر بن حيان (١٠٠ — ١٦١ هـ) وهو أبو الكيمياء العربية ، وله كتب متعددة فى الكيمياء . وقد انتفع الأوروبيون بها فى بحوثهم الكيميائية .

(٦) وأبو الريحان البيرونى (٣٦٢ — ٤٤٨ هـ) المؤرخ الجغرافى ، الفلكى الرياضى ، العالم بالطبيعة والفلك ، ومن مؤلفاته : « الآثار الباقية عن القرون الخالية »

(٧) أبو عثمان عمرو بن بحر (١٥٩—٢٥٥ هـ) أديب العلماء، وعالم الأدباء، الكاتب الفيلسوف ، معلم العقل والأدب ، ومؤسس فن البيان : الجاحظ ، ومن مؤلفاته : البيان والتبيين ، والحيوان . وهما ذخيرتان فى الأدب والعلم .

(٨) وابن خلدون (٧٣٢ — ٨٠٨ هـ) مؤسس علم الاجتماع ، وواضع قواعد التحقيق التاريخى ، وعالم كبير فى الاقتصاد ونواميس العمران. ومن مؤلفاته: « كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر » ، ومقدمة ابن خلدون .

(٩) أبو عبد الله ياقوت الحموى (٥٧٥ — ٦٢٦ هـ) الرحالة الأديب الجغرافى، ومن مؤلفاته : معجم البلدان ، ومعجم الأدباء .

وغيرهم كثير من العلماء والأدباء والمؤرخين والفلاسفة من المسلمين . (ارجع إلى سلسلة « أعلام الثقافة العربية ونوابغ الفكر الإسلامى[1] » .

---

(١) ثلاثة أجزاء للمؤلف وشريكه الأستاذ أبو الفتوح محمد التوانسى ، بمكتبة نهضة مصر بالفجالة بالقاهرة .

الإسلام ضد الرق

تمهيـــد :

الرق هو الضعف أو العجز الناشيء عن حرمان الإنسان حقه الفطرى فى الحرية التى منحه الله إياها . وقد كان الرق شائعا بين جميع الشعوب فى العصور القديمة ، ثم زال فى العصور الحديثة تقريبا ، بسبب انتشار النهضة الفكرية ، والناحية الإنسانية ، والشعور بالعدالة بين المجتمع الإنسانى ، والتقدير التام لحقوق الإنسان وواجباته .

وفى قديم الزمان كانت إرادة الأقوياء هى القاعدة فى الحياة والسلوك والأخلاق .وكان القوى يتحكم فى الضعيف ، والضعيف يخضع للقوى ، بين الأمم والأفراد على السواء، فنشأت التفرقة وعدم المساواة فى النواحى الاجتماعية والجسمية والعقلية بين الجنس البشرى ، وحدث الرق والعبودية ، وسيطر الإنسان على أخيه الإنسان، وامتلكه ، وصار له الحق فى التصرف فيه بالبيع ، واستخدامه فى العمل والزراعة والحقول وخدمة البيوت .

و إن الرغبة فى الانتفاع بالقوة الجسمية التى يتمتع بها شخص آخر هى أساس الرق والاستعباد ، وهى قديمة كقدم الطبيعة الإنسانية . وفى القوانين القديمة كان يقال : « بعرق جبينك ستأ كل الخبز حتى تموت » . فبالعمل أو العرق الذى يقدمه الفقير للغنى ، والضعيف للقوى كان الشخص يجد قوته الضرورى لحياته . و بغير العمل والعرق كان الفقير لا يستطيع أن يعيش .

لهذا نشأ الرق والاستعباد ؛ وافتخر الإنسان القوى بسيطرته على أخيـــه الإنسان الضعيف . ولا نبالغ إذا قلنا إن الرق قد وجد منذ وجد الإنسان ، و إن من يطلع على تاريخ الأمم القديمة يجد علامات الرق فى كل عصر ، وكل شعب ، و يرى أن جراثيم الرق والعبودية تنتشر فى المجتمعات المتوحشة ، وتقل حتى تزول وتنقرض فى المجتمعات المتمدنة التى تشعر بحقوق الإنسان ، وتنادى بها، وتدافع عنها بما أوتيت من قوة .

الرق قبل الإسلام :

كان المصريون القدماء ، والآشوريون والعبرانيون والإيرانيون والهنود والصينيون والإغريق والرومان ، والألمانيون قديما يستخدمون الأرقاء والعبيد فى أعمالهم ، ولكنهم كانوا يختلفون فى معاملتهم .

١ — الرق عند قدماء المصريين :

فقدماء المصريين ، والملوك والكهنة ورجال الجيش من الفراعنة كانوا يتخذون أسرى الحرب عبيداً لهم ، ينتفعون بهم فيما تحتاج إليه الدولة من الأعمال ، ويفخرون باستخدامهم لديهم ، ويتخذونهم لمظاهر الأبهة والعظمة ، وقد خالفوا غيرهم من الأمم فى أنهم على غير العادة كانوا يعاملونهم معاملة إنسانية كلها شفقة ورحمة . وكانت دياناتهم تسمح لهم بأن يتزوج الحر رقيقة ، ويجعلها زوجا له ، وتحرم عليهم قتل الرقيق ، ومن قتل عبداً حكم عليه بالقتل قصاصا منه .

٢ — الرق عند الآشوريين :

وقد اعتاد أهل آشور استخدام العبيد من قديم ، وكانت قصور الآشوريين مملوءة بالجوارى من النساء ، والخدم من الأرقاء للخدمة ومظاهر السيطرة .

٣ — الرق لدى العبريين :

وكان الاسترقاق عادة لدى العبريين قديما ، وكان العبيد من مصادر الغنى والثروة.

ولهم حقوق محددة ، منها الراحة سبعة أسابيع فى السنة ، ومنع ضربهم ضربا مبرحا . ومن فعل ذلك عوقب عقابا شديداً ، ومن كسر لعبد سنا أو عضوا من أعضائه عوقب عقابا مماثلا لذنبه . فالرقيق كان يعامل معاملة الحر ، فيتزوج بنت سيده إذا لم يكن له أبناء من الذكور .

وكان للسيد أن يتزوج أمته ، ويتخذ سرارى من جواريه . وقد ورد فى

شريعة موسى أن العبد إذا استحق العقوبة ، حوكم أمام القضاء، رحمة به، ومحافظة عليه من انتقام مولاه .

وكان الإسرائيلي يعاقب بالرق والعبودية إذا ارتكب ذنبا من الذنوب ، أو لم يف بما عليه من الديون ، ثم يعطى حريته بعد التكفير عن ذنبه ، أو سداد ما عليه من الديون .

٤ — الرق عند الفرس :

وفى إيران كان الأرقاء يتخذون رعاة ، و يستخدمون فيما تحتاج إليه البيوت من الزينة والعمل . وكان لهم أوقات للراحة وأوقات للعمل . و إذا ارتكب الرقيق ذنبا عوقب عقابا معتدلا ، فإذا ارتكبه مرة أخرى فلسيده أن يعاقبه بما يشاء ، وله أن يقتله .

٥ — الرق عند الهنود القدماء :

وكان لدى الهنود القدماء طبقتان : طبقة الأشراف وهم البراهمة ، وطبقة العمال ، وهى الطبقة الدنيا التى تستخدم فى الأعمال ، وتعامل معاملة قاسية كلها قسوة وظلم . وللطبقة الأولى السيادة والسيطرة ، وعلى الطبقة الثانية وهى طبقة الأرقاء ـ الطاعة والخضوع . ويستمر الرقيق خادما طوال حياته . وكانت القوانين التى يحاكم بها جائرة ، فإذا اعتدى رقيق على برهمى حكم على الرقيق بالقتل. و إذا سبه بلفظ بذىء قطع لسانه .و إذا احتقره عوقب بوضع خنجر محمى بالنار فى فمه . و إذا جرؤ ونصح لبرهمى نصيحة تتصل بواجبه أمر الملك بوضع زيت ساخن فى أذنه وفمه . و إذا اغتصب برهمى شيئا من الرقيق حكم عليه بدفع غرامة مالية . و إذا سرق عبد شيئا من برهمى حكم عليه بالإحراق . وكانت الأعمال النجسة تترك للعبيد ليقوموا بها ، والأعمال المقبولة يقوم بها الخدم .

٦ — الرق عند الصينيين قديما .

وكان الفقراء من الصينيين القدماء يبيعون أبناءهم وبناتهم لشدة فقرهم

وحاجتهم . وكان للسيد الحق فى بيع من لديه من الأرقاء وأولادهم . وقد عرف الصينيون بالذكاء والحكمة والرقة والمروءة والإنسانية . وكانوا يعاملون الأرقاء معاملة فيها الشفقة والرحمة ، لاعتقاد إمبراطور الصين (كوانجون [١]) أن الإنسان أفضل المخلوقات ، وكان من أوامره : من قتل عبده قتِل ، ومن كواه بالنار عوقب ، وأصبح المكوى وطنيا حراً .

فالرقيق فى الأمم الشرقية كان يعامل بعطف وشفقة ورحمة ، إلا فى بلاد الهند القديمة ، فإنه كان يعامل فيها بقسوة وشدة .

٧ — الرقّ عند الإغريق القدماء :

كان الرق منتشراً لدى قدماء اليونانيين ، وكانت أثينا سوقاً لبيع العبيد وشرائهم . وفى إسبرطة كان الأرقاء يعاملون بكل قسوة . قال (بلوتارك) المؤرخ اليونانى : « إن الحرّ فى إسبرطة كان يتمتع بكل حرية ، والعبد كان أكثر العبيد استرقاقاً » . وقد أجاز الفيلسوف اليونانى أرسطو الرق ، وقسم الجنس البشرى قسمين : أحرار وعبيد . والأرقاء لدى اليونان نوعان مختلفان : أحدهما سكان البلاد التى هزمت فى الحرب ، وهم يُعَدُّون جزءاً من الأرض . والآخر أرقاء اشتراهم سادتهم بأموالهم ، فلهم السيطرة المطلقة عليهم . ومعظمهم من هذا النوع .

وقد اعتاد قدماء الإغريق السير فى البحار ، وخطف من يجدونه من سكان السواحل . وكانت قبرص وصاقس وسامس والمستعمرات اليونانية أسواقا كأثينا يباع فيها الأرقاء ويشترون . وكان العبيد يعملون لمواليهم ولأنفسهم ، ويدفعون لسادتهم مقداراً محدداً من المال كل يوم . وكان اليونان يشترون العبيد لتأجيرهم لمن يحتاجون إليهم . وتعد هذه العملية من وسائل تثمير المال . وكان فى كل

(١) قد عاش ٣٥ سنة بعد المسيح .

منزل بأثينا عبد للقيام بالخدمة ، مهما يكن صاحبه فقيراً ، وكان المولى حر التصرف فيمن يملكهم من عبيد .

وكان الرقيق إذا أخطأ عوقب بالجلد بالسوط وكلف القيام بطحن الحبوب على الرحى . وإذا هرب كوى على جبهته بالحديد المحمى فى النار .

وكانت الدولة تستخدم بعض الأرقاء فى حراسة المدن ، والمحافظة عليها ، وتستعين بهم على توطيد الأمن . وأحيانا كان اليونان فى أثينا يعتقون بعض العبيد ، وفى نظير عتقهم وتحريرهم يشترط عليهم الولاء لسادتهم مدى حياتهم ، ويكلفون القيام ببعض الواجبات ، ويعيشون فى أثينا كأنهم غرباء .

وكان إعدام الرقيق محرماً إلا إذا صدر بحكم قضائى . وكانت معاملة اليونانيين القدماء للأرقاء أخف من معاملة الرومان لهم كما سترى .

٨ — الرق لدى الرومان القدماء :

كثرت الحروب الرومانية ، واتسع الرومان فى الفتح والغزو ، واعتمد الأغنياء بعد أن انتشرت المدنية — على الأرقاء فى حرث الأرض وزرعها ، وحصد المحصولات فى الحقول ، والعمل بالأيدى فى المصانع ، والمعامل الفنية .

وكان الرومان يحصلون عادة على الأرقاء من أسرى الحروب ، وأولاد العبيد ، وأولاد الأحرار الذى حكم عليهم القانون بأن يكونوا عبيدا ، كالمدينين الذين صعب عليهم الوفاء بديونهم .

وفى أثناء الحرب كان النخاسون الذين يتجرون فى الرقيق يلازمون الجيوش ، وكان الأسرى يباعون بأثمان زهيدة . وأحيانا كان النخاسون من الرومان يسرقون الأطفال ويبيعونهم ، ويسرقون النساء للاتجار بأعراضهن .

وكان الرقيق فى رومة يقف على حجر فى السوق ، ويدلل عليه البائع ، ويباع

بالمزايدة . وقد تعجب إذا عرفت أن الراغب فى الشراء كان يطلب أحيانا رؤية العبد وهو عريان لمعرفة مابه من عيوب .

وكان هناك فرق كبير فى الثمن بين العبد المتعلم والعبد الجاهل، و بين الجارية الحسناء والجارية الدميمة . وكانت الجارية الحسناء تباع بثمن غال ، ولهذا انتشر الفساد الخلقى ، وانتشرت الرذيلة فى رومة . وقد كان الاتجار بالجوارى الجميلات من أسباب الثراء .

وكان الأرقاء قسمين : قسم ينتفع به فى المصالح العامة كحراسة المبانى، والقيام بأعمال السجان فى السجن ، والجلاد فى المحكمة للمساعدة فى تنفيذ حكم القاضى . وحال هذا النوع أحسن من سواهم ، وقسم ينتفع به فى المصالح الخاصة كالعبد الذى يتخذه مولاه لقضاء الأعمال فى البيت والحقل ، والجارية التى يجعلها سيدها لتربية الأولاد .

وكان القانون ينظر إلى الرقيق كأنه لاشىء، فهو ليس له أسرة ، ولا شخصية، ولا يملك شيئا . والعبد وما ملكت يداه لسيده . و يتبع الرقيق أمه حين الوضع ، فإذا كانت حرة كان حرا ، وإذا كانت رقيقة كان رقيقا .

وكان لمالك الرقيق الحرية المطلقة فى التصرف مع عبده كما يتصرف فى الحيوانات التى يملكها؛ فإذا أخطأ عاقبه بما شاء ، وقيده بالسلاسل ، وكلفه القيام بأعمال شاقة ؛ كأن يحرث الأرض أو يزرعها وهو مكبل بالحديد . وكثيراً ما كان يجلد بالسوط بلا رأفة ولارحمة حتى يموت ، أو يعلق من يديه ، وتربط الأثقال برجليه ، أو يحكم عليه بمصارعة الحيوانات الجائعة المتوحشة ، ومقاتلتها حتى يقضى عليه وحش من الوحوش وكان القانون الرومانى يبيح لسيده أن يقتله ؛ لأنه مملوك له .

فمعاملة الأرقاء كانت معاملة كلها قسوة وشدة ، وفظاظة وغلظة ، لارأفة فيها ولارحمة .

٩ — الرق في القرون الوسطى والعصور الحديثة :

في القرون الوسطى كان الأرقاء لدى سكان فرنسا وإيطاليا الشمالية والجزر البريطانية وأسبانيا القديمة — يكلفون القيام بالأعمال الزراعية من حرث وزرع وحصد ؛ لأن الأعمال اليدوية في نظرهم كانت محتقرة لايقوم بها الأحرار ، بل يقوم بها العبيد. وكان الأرقاء في جرمانيا القديمة — وهي ألمانيا الحالية — يقدمون إلى سادتهم مقادير معينة من القمح أو الماشية أو الملابس . وكان لكل عبد مأوى يقيم فيه ، ويدبر أحواله كيف يريد .

وكان الفرنج — وهم الألمان الذين يقيمون في بطائح نهر الرين الأسفل يعاملون الأرقاء أقسى معاملة ، فإذا تزوج حر رقيقة أجنبية صار رقيقا مثلها ، وإذا تزوجت حرة رقيقا أصبحت رقيقة ، وفقدت الحرية التي كانت تتمتع بها.

وفي لمبارديا كانت الحرة إذا تزوجت رقيقا حكم عليها بالإعدام .

ولدى الأنجلوسكسون — وهم الأمم الجرمانية التي تناسل منها الإنجليز — كان الأرقاء ينقسمون قسمين : قسم كالمتاع يجوز بيعه ، وقسم كالعقار يقوم بحرث الأرض وزرعها ، ويباح لهم جمع مال يدفعونه لسادتهم كي ينالوا حريتهم .

وفي ١٧ من مارس سنة ١٦٨٥م صدرت في فرنسا قوانين خاصة بالأرقاء والمستعمرات الفرنسية حكم فيها على الرقيق بأنه لا روح له ، ولا نفس ، ولا إرادة . وتنص تلك القوانين على أنه : إذا اعتدى زنجي على سيده أو على حر من الأحرار ، أو سرق أي شيء كان القتل جزاء له .

وإذا هرب عوقب بقطع أذنه فى المرة الأولى ، وكُوِى بالحديد المحمىّ فى المرة الثانية ، وقتل فى الثالثة . وإذا قتل المالك رقيقه فللقاضى الحق فى أن يحكم ببراءة المالك .

ولا يجوز لغير البيض الذهاب إلى فرنسا للتعلم وكسب العلم والمعرفة...

معاملة الأرقاء فى أمريكا قبل الرئيس (أبراهام لنكولن) :

وفى الولايات المتحدة بأمريكا كان الأرقاء يعاملون بكل شدة وقسوة ، فقد كان للسيد الحق فى بيع عبده ورهنه وتأجيره ،ولا يجوز له أن يخرج من المزرعة إلا بإذن من سيده .ولا حق له فى الخروج والذهاب كيف يشاء . ولا يجوز أن يجتمع من العبيد فى الطريق العام أكثر من سبعة أشخاص . ولا تقبل شهادتهم على الأحرار ، ولكن تقبل على أمثالهم من الأرقاء . وإذا اعتدى أبيض على زنجى ، فدافع الزنجى عن نفسه ، وفى حالة الدفاع قَتَل من اعتدى عليه عد مذنبا ومرتكبا جريمة القتل .

ولا يجوز له أن يسافر ، ولا يُعطى جواز سفر . ومن نصح الأرقاء بالعصيان أو حرضهم على عدم الطاعة ، أو ألف رسالة أو كتابا فى الطعن على الاسترقاق عوقب أشد عقاب .

هذه أمثلة من القوانين التى كان يعامل بها زنوج أمريكا قبل أن يثور الرئيس المصلح (أبراهام لنكولن) على نظام الرق والعبيد ، ويقوم بتحرير العبيد فى الولايات المتحدة الأمريكية . وقد انتهت الحرب بنيل الزنوج حريتهم ، ولكنهم لا يزالون يعانون ألوانا من الاضطهاد فى بعض الولايات الأمريكية ، بسبب التفرقة العنصرية ، وكان الراحل الرئيس (جون كيندى) يدافع عن حقوقهم ، ويعمل لإزالة هذه التفرقة ، ولكنه مع الأسف قد اغتيل وهو فى مدينة دالاس بولاية

تكساس فى ٢٢ من نوفمبر سنة ١٩٦٣ ، فحزن عليه العالم كله أشد الحزن .

وإن الزنوج فى أمريكا يرسفون فى قيود ثقيلة ، فالأبيض الأمريكى مع ما أوتى من العلم يملك الأمة السوداء ، ويولدها البنين ، ومع ذلك لا يعدها أم ولد كما فى الإسلام ، بل إن ولده الأبيض له الحق فى أن يبيع تلك الأمة ، ويبيع ذرية أبيه منها ، وهم إخوته . ولو ذهبنا نستقصى أساليب الرق وأسبابه عند كل أمة قديمة أو حديثة لا تستظل براية الإسلام لم نجد لذلك سببا إلا تحكم القوى فى الضعيف ، بإذلاله وتسخيره لشهواته .

وما زالت الأمم التى ترفع صوتها باسم (الديمقراطية) والحرية تعامل عباد الله الأحرار الذين تسميهم الأجناس الملونة معاملة خاصة ، فيها إذلال وسخرية ، وعنف واحتقار ، أما الإسلام فكانت له طريقة فريدة فى محاربة الرق ؛ فقد قضى على الفكرة الأصلية للاسترقاق ، وهى استعباد الأقوياء للضعفاء . ولم يجز الرق إلا فى حالة واحدة ، وهى حالة اعتداء غير المسلمين على المسلمين اعتداء صارخا يهدد كيان الإسلام . فإذا ما تغلب المسلمون على أعدائهم وأسروا فريقا من أولئك الطامعين فى هدم دينهم ، فلهم فى هذه الحالة فقط أن يسترقوا الأسرى ، ولكن الدين الإسلامى بالرغم من ذلك أباح للمسلمين أن يفكوا هؤلاء الأسرى ، وأن يفتدوهم بغيرهم من أسرى المسلمين .

الاسترقاق فى الدين المسيحى والموسوى :

ليس فى الإنجيل نص صريح ضد الرق والعبودية ، ولم يقل أحد من رجال الكنيسة بتحريم الاسترقاق ، وكل ما جاء به الإنجيل أن الناس كلهم يعدون إخوانا ، وأنه يجب عليهم أن يحب بعضهم بعضا ، بل أوصى القديس بولس الأرقاء فى رسالته أن يطيعوا مواليهم مع الخوف والرعب . كما يطيعون

للمسيح ، وأوصاهم القديس بطرس أيضاً بأن يكونوا خاضعين لمواليهم، وأن يخشوهم. وقد تبعهما آباء الكنيسة فى هذه التعليمات ، وأجازوا الرق والاسترقاق ، حتى أفتى بعض علماء اللاهوت بأن الطبيعة خصصت بعض الناس ليكونوا أرقاء .

وقد ورد فى الإصحاح الحادى عشر من سفر الخروج فى العهد القديم ما يدل على وجود الجوارى والعبيد : « لكى تعلَموا أن الربَّ يُميزُ بين المصريين وإسرائيل ، فَيَنْزِلُ إلىَّ جميعُ عبيدِكَ هؤلاء ويسجدون لى . . . » ٧ — ٨ .

وقد أقر رجال الكنيسة الاسترقاق ، وقالوا بصحته ، وعدوا النِّخَاسة تجارة مباحة ، والاسترقاق من النظام المسيحى ، وسلموا بأنه نظام مشروع .

فالديانة المسيحية ليس فيها نص يدل على تحريم الاسترقاق . ومن الناحية العملية لم تلغ الرق بل أقرت صحته ، ورضيت به رضاءً تامًّا حتى اليوم ، ولم تَسْعَ فى إلغائه . وكل ماحدث أن الثورة الفرنسية نادت بالمساواة بين الناس أمام القانون .

ولم تحتجّ الديانة المسيحية على الرق والعبودية ، ولم تدافع عن الأرقاء والعبيد ، ولم تطالب بإزالة هذا الظلم ، أو تخفيف هذه القسوة ، ولم تستقبح نظام الرق ، بل قالت بخضوع العبد خضوعا مطلقا لإرادة سيده أوسيدته . واستمر العبيد خاضعين لسيطرة من يملكونهم فى البلاد المسيحية . وكان لسادتهم الحق فى إحيائهم أو إماتتهم . وكانوا منبوذين يُعذَّبون ، ويضربون بالسياط ، إذا ارتكبوا أى خطأ ، ولو كان تافها .

ولم تنجح الديانة المسيحية فى إلغاء الرق أو إزالة مظالمه . أو تخفيف مضاره . وقد كان لدى الكنيسة نفسها عبيد . واعترفت صراحة بأن الرق أمر يجيزه القانون . وأصر المسيحيون على أن الرق مفيد لأنه يمنع السرقة والسؤال .

والمسيحى الأبيض لا يعترف بمساواة الزنجى الأسود له فى هذه الحياة .

والتفرقة العنصرية سائدة بين المسيحيين فى جنوب أفريقية وغيرها . وإن المعاملة القاسية التى يعامل بها الزنوج يأباها الدين وتأباها الإنسانية .

وقد وقفت الديانة الموسوية من الرقيق موقفاً غريباً ؛ فقد أقرته وحتمته ، فجاء فى سفر التكوين (إصحاح ٩ عدد ١) «أن الله حتّم العبودية على أولاد كنعان ابن حام .» وجاء فى سفر التثنية (إصحاح ٢٠ عدد ١٠) : «أمر الرب أن كل محاربة إذا انتصر عليها اليهود يكون جميع أهلها من رجال ونساء وأطفال عبيداً لهم ، يسخرونهم لهم إلى الأبد بدون قيد أو شرط ».

الإسلام قد قضى على الاسترقاق :

وقد قضت الديانة الإسلامية على الرّق والعبودية من أساسهما وجذورهما ، حينما نادت بالمساواة بين الإنسان وأخيه الإنسان فى الحقوق والواجبات والمعاملات.

وليس من الإسلام أن تخلق طائفة لتَحكُم وتسيطر ، وتُخلق أخرى لتُحكَمَ وتُستَعبَد ، ويُخلَق بعض الناس ليكونوا سادة ، وبعضهم ليكونوا عبيداً لهؤلاء السادة .

قال تعالى : « يأيها النَّاسُ إنا خلقناكم مِن ذَكرٍ وأنثى، وجعلناكم شعُوباً وقَبائِلَ لِتَعارَفُوا ، إنَّ أكرَمَكم عندَ اللهِ أتقاكُمْ » .

وقال عزَّ وَجل : « فإذا نُفِخَ فى الصُّورِ فلاَ أنسابَ بَينَهمْ يَومئذٍ ولا يَتساءلون » .

وقال الرسول صلى الله عليه وسلم فى خطبته فى حجة الوداع : «لا فَضلَ لعربيٍّ عَلَى عجميٍّ ، ولا لعجميٍّ عَلَى عَربِيٍّ ، وَلا لِأحمَرَ عَلَى أبيضَ ، ولا لِأبيضَ على أحمرَ إلاَّ بالتَّقْوَى . »

وقد نهى محمد عليه الصلاة والسلام عن مخاطبة العبد والأمة بأى عبارة يُفهم منها الرق والعبودية ، حيث قال :

« لا يَقولَنَّ أحدُكم عَبْدِى وأَمَتِى . ولا يَقولَنَّ المملوكُ رَبِّى ورَبَّتِى ، وليَقُل المالِكُ : فتاىَ وفتاتِى . وليَقل المملوكُ سَيِّدِى وسَيِّدَتى . فإنكم المملوكونَ ، والرَّبُّ اللهُ . »

فالرسول الكريم يكرهُ كلمة عبد ، وكلمة أمَة ؛ لأنهما ضد الحرية ، وضد الإنسانية .

وقد نهى الإسلام عن الفخر بالآباء والأجداد ، والأنساب والأحساب ؛ لأن الكل من أبناء آدم ، وآدم من تراب . قال الرسول الكريم : « لِيَدَعَنَّ رجالٌ فخرَهم بأقوامٍ ، إنما هُم فَحْمٌ مِن فحم جَهَنَّمَ ، أو ليَكونُنَّ أهونَ على اللهِ من الجِعْلانِ[1] التى تَدْفَعُ بأنفِها النَّتَنَ . » وقال : « إن اللهَ قد أذهبَ عنكمُ عُبِّيَّةَ[2] الجاهليةِ وفخرَها بالآباء ، مؤمنٌ تقيٌّ ، وفاجرٌ شَقِيٌّ ، أنتم بنو آدمَ ، وآدمُ من ترابٍ . »

وقد جاء إلى رسول الله وفدٌ من بنى عامر ، فقال أحدهم : أنت سيدُنا . فقال عليه الصلاة والسلام : « السَّيِّدُ اللهُ تباركَ وتعالى . »

فقالوا : (أنت) أفضلُنا وأعظَمُنا طَوْلاً .

فقال : « قولوا بقَوْلِكم أو بعضِ قَوْلِكم ، ولا يَستَجْرِيَنَّكُمُ[3] الشيطانُ . »

وحدث أن رجلاً من كبار الفرس حضر مع الرسول غزوة أُحد ، وضرب

(١) الجعلان . جمع جُعَل وهو أبو جعران ، والعامة تقول (جعران) .
(٢) نخوة الجاهلية .
(٣) لا تكونوا أتباعا للشيطان .

رجلاً من المشركين ، وقال : خُذها وأنا الغلامُ الفارسيُّ ، قاصداً الاعتزاز بقومه .
فالتفت إليه الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقال : « فهلاً قلتَ : خُذها منّي ، وأنا الغلام الأنصاري . »

وفي هذا إشارة إلى الوحدة الإسلامية ، ونهى عن الفخر بالجنسية والعصبية .

قال عليه الصلاة والسلام : « ليسَ مِنَّا مَن دَعا إلى عَصَبيَّةٍ ، وليسَ مِنَّا مَنْ قاتَلَ عَلى عَصَبيَّةٍ ، وليسَ مِنَّا مَنْ ماتَ عَلى عَصَبيَّةٍ . »

فالإسلام دين الحرّية والإخاء والمساواة والتقوى والعمل الصالح ، لا دين الرق والعبودية ، والتفرقة العنصرية ، والفخر بالجنسية واللون والعصبية .

قال عز وجل : « إنَّما المُؤْمنونَ إخْوَةٌ . »

وقال تعالى : « لنْ تنفعَكم أرحامُكم ولا أولادُكم يومَ القيامةِ ، يَفْصِلُ بينَكمْ ، واللهُ بِما تعمَلونَ بَصيرٌ . »

وقال رسول الحرية والعدالة والأخوة الإنسانية : « المسلمُ أخو المسلمِ لا يَظلِمُه ولا يُسلِمُهُ[١] . مَن كان في حاجَةِ أخيهِ كان اللهُ في حاجَتِه . ومَنْ فرَّجَ عَن مُسلِمٍ كُرْبَةً فرَّجَ اللهُ عنهُ بِها كُرْبَةً مِن كُرَبِ يوم القيامةِ . ومَنْ سَتَرَ مُسلماً سَتَرَهُ اللهُ يومَ القيامةِ . »

وقال : « لا يُؤْمنُ أحدُكمْ حتَّى يُحِبَّ لأخيهِ ما يُحِبُّ لِنفسِه . »

وقد قوّى رسول الله روابط الأخوة بين الموالي والعبيد حيث قال :

« إخوانُكمْ خَوَلُكمْ[٢] جعَلَهُم اللهُ تحتَ أيْديكمْ » . وفي رواية أخرى : « إخوانُكمْ خَوَلُكمْ (خدمكم) فمن كان أخوهُ تحتَ يدهِ فلْيُطْعِمْهُ مِما يأْكلُ ، ويُلبسْهُ مِما يلبَسُ . »

---

(١) يُسلمه : يتركه من غير مساعدة ويخذله .
(٢) حشمكم وخدمكم .

فالإسلام قد أتى والرق شائع بين الشعوب ، والعبيد يقاسون كثيرا من الظلم وسوء المعاملة ، فنهى عن ظلمهم وإيذائهم ، وأنذر من عذبهم أو قسا عليهم بأشد العقاب ، وشجع على تحريرهم ، وفك رقابهم ، وإطلاق سراحهم بجميع الوسائل ، ووعد من يعطف عليهم بحسن الثواب ، وضمن لهم أن يحيوا حياة حرة عزيزة كريمة ، كما يحيـــا الإنسان الحر الـكريم ، ويعاملوا معاملة تتمثل فيها الرحمة والعدالة والعطف والإنسانية .

الإسلام يحرر الأرقاء

الحرية أثمن هبة من الله :

الحرية أثمن هبة من الله للبشرية ، وخير ماتمتع به الناس فى حياتهم ، ولدت مع الإنسان ، فعرفها منذ القدم ، وسعى إليها ، وحرص عليها ، وضحى فى سبيلها بالنفس والمال ، بل إن الطيور والحيوان ألفت الحرية ، واهتدت إليها بفطرتها . وكم من طير أو حيوان سجن ، فعاف لذيذ الطعام ، ومرىء الشراب ، وكان سجنه نذير موته ، وسبب هلاكه ، حزنا على حريته . غير أن الناس منذ القدم ألفوا أن يـكون فيهم الأحرار والعبيد ، وأن ينعم أحرارهم ويسعدوا بقدر مايشقى عبيدهم ، فالسيادة والرياسة والسيطرة للأحرار ، والخدمة والسخرة والمذلة للعبيد . وغلا السادة فى التعالى على العبيد ، وسن لهم المجتمع الظالم قوانين الجور والظلم ، حتى لـكأنهم ليسوا من البشر ، وكأنهم لم يخلقوا إلا لخدمة الأحرار ، والتاريخ شاهد عدل على صدق ذلك ، كما قدمنا بالتفصيل عن الرق فى الأمم قبل الإسلام .

جاء الإسلام فوجد الأرقاء يعانون ألوانا من العسف والظـلم فى مشارقه

الأرض ومغاربها ، ورأى مآسى الرق ومخازيه تزيد مع الأيام ، فلم يكن له بد من علاج هذه المشكلة ، واستئصال ذلك الداء . غير أن الإسلام رأى — شأنه فى كل تشريع — ألا يلغى الرق جملة واحدة ، بل أخذ يتدرج فى هذا الإلغاء ، ويسير فى سبيله فى هوادة واتزان ، رحمة بالناس وشفقة ، حتى لا يُصدَمُوا مرةً واحدة بما لم يألفوا ، فينفروا ويرفضوا .

وأول ما بدأ به الإسلام أنه لم يجعل للاسترقاق إلا وسيلة واحدة . هى الأسر فى حرب مشروعة ، بين المسلمين وغيرهم ، ومع ذلك لم يجعل استرقاق الأسرى أمرا لازما ، بل كان للإمام أو الحاكم أن يمن عليهم ، ويطلق سراحهم ، كما كان له أن يفتديهم بمبلغ من المال .

قال الله تعالى : « فإذا لقيتمُ الَّذينَ كفَرُوا فضَرْبَ الرِّقَابِ ، حَتَّى إذا أَثْخَنْتُمُوهُمْ [1] فَشُدُّوا الوَثَاقَ ، فإمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإما فِدَاءً ، حتَّى تضَعَ الحربُ أَوْزارَها »

جاء الإسلام فوجد الرق مباحا فى كل قطر ، وفى كل شعب ، وفى كل دين ، فلم يأت الإسلام بالرق ، بل شجع بكل الوسائل تحرير الأرقاء والعبيد ، وإنقاذهم من الرق والعبودية ، ومعاملتهم معاملة كلها إنسانية تتمثل فيها الرحمة والشفقة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اتقوا الله فى الضعيفين : المملوك والمرأة .. » فالرسول الكريم يوصى بالرقيق وبالمرأة خيرا لضعفهما ، وحاجتهما إلى العطف والشفقة .

وقال : « من لَطَم مملوكَه أو ضَرَبَهُ فكَفَّارَتُهُ عِتْقُهُ » .

أى من آذى عبده بالضرب واللطم فقد أجرم ، ولا يمحو عنه عقاب تلك الجريمة إلا أن يعتق هذا العبد ويعيد إليه حريته .

---

(١) أوسعتموهم قتلا ، وأضعفتموهم .

وفى الشريعة الإسلامية يعد العتق تكفيراً للقتل إذا وقع خطأ ، عملا بقوله جل شأنه :

«وَمَن قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَأً فتحرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إلى أهلِهِ.»

فالذنوب الموبقة ، والجرائم المهلكة لا يسترها ولا يكفرها إلا فك الرقاب ، وتحرير الأرقاء .

و بعد غزوة بدر كان الرسول الكريم يطلق سراح كل أسير يعلم عددا من المسلمين القراءة والكتابة ، و يحث على تعليم الرقيق وتربيته . كما يحث على تعهد الجارية ورعايتها ، وتحريرها وتزوجها .

قال عليه الصلاة والسلام : « مَن كانَتْ له جاريةٌ فعلَّمَها وأحسنَ إليها وتزوَّجَها كانَ له أجرانِ فى الدُّنيا وفى الآخِرَةِ : أجرٌ بالنكاحِ والتَّعليمِ ، وأجرٌ بالعِتْقِ . »

وقد أوصى النبى صلى الله عليه وسلم بالإحسان فى معاملة الأرقاء ، فقال : « اتقُّوا اللهَ فيما مَلَكَتْ أيمانُكمْ ، أطعِموهُمْ مما تأكلُونَ ، واكسُوهُمْ مما تلبَسُونَ ، ولا تُكلِّفُوهمْ من العمل مالاَ يُطِيقون . فما أحبَبْتُمْ فأمسِكوا ، وما كرِهتُمْ فبيعوا . وَلا تُعذِّبُوا خَلْقَ اللهِ ، فإنَّ اللهَ مَلَّكَكُمْ إيَّاهُمْ ، وَلوْ شاء لَمَلَّكَهُمْ إياكم »

فالإسلام يرى الرقيق إنساناً تام الإنسانية ، و ينظر إلى الرق على أنه محنة ابتلى بها هذا الإنسان ، و يطلب إلينا إزاء ذلك — أن نخفف عنه بلواه ، وأن نعامله معاملة كريمة فى طعامه ولباسه وعمله . و إذا كرهنا العبد فليس لنا أن نعذبه أو نقتله ، بل ينصح لنا النبى عليه الصلاة والسلام أن نبيعه ، فرب مكروه عندنا يكون محبوبا

عند غيرنا. وفى النهاية يهدد الرسول الكامل أولئك السادة المستبدين الذين يستعبدون بعبيدهم ، ويتوعدهم بأن الله ملكهم هؤلاء العبيد ، وهو قادر كل القدرة على أن يغير الأوضاع ، فيجعل العبيد سادة ، والسادة عبيدا ؛ ليذوقوا سوء ما صنعوا ، وليجربوا حياة العبودية الكريهة ، والرق البغيض : « قُلِ اللَّهُمَّ مالِكَ المُلْكِ ، تُؤْتِى المُلْكَ مَن تشاء ، وتَنزِعُ المُلْكَ مِمَّنْ تَشاء ، وتُعِزُّ مَنْ تشاء ، وتُذِلُّ مَنْ تَشَاء ، بِيَدِكَ الخَيْرُ إنَّكَ عَلَى كُلِّ شىء قَدِيرٌ . »

وكثيراً ما أوصى نبى الإسلام والإنسانية بالعفو عن الأرقاء ؛ فقد جاء إلى النبى عليه الصلاة والسلام رجل فقال يارسول الله : كم أعفو عن الخادم ؟

فصمت الرسول صلى الله عليه وسلم ثم قال : « اُعف عنه فى كل يوم سبعين مرة . » وليس المقصود من السبعين العدد المذكور فحسب، وإنما هو عدد يقصد به الكثرة فى اللسان العربى .

لم يقتصر الإسلام على تضييق دائرة الاسترقاق ، والوصاة بحسن معاملة الأرقاء ، بل أوجب تحريرهم ، وتخليصهم من رقهم تكفيراً لذنوب كثيرة . ومعنى هذا أن الإنسان قد يرتكب جرماً ، أو يقترف إثماً، فلا يخفف عنه العقوبة إلا أن يحرر عبداً ويعتقه خالصاً لوجه الله تعالى .

يقول الله عز وجل فى كفارة اليمين التى حنثَ فيها حالفُها ولم يَبَرَّ بها : « لا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ باللَّغْوِ فى أيمانِكم ، ولكِنْ يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتمُ الأيْمانَ ، فَكَفَّارَتُهُ إطعامُ عَشَرَةِ مساكينَ مِنْ أوْسَطِ ما تُطْعِمُونَ أهليكُم ، أو كِسوَتُهُم ، أوْ تحريرُ رقبَةٍ . »

فتحرير الرقبة أحسن وسيلة للتكفير عن الحنث فى الحلف بالله ، واللغو فى اليمين .

ومما شرعه الإسلام ليسهل على العبد أن يتخلص من رقه نظام المكاتبة ،
وهو أن يتفق العبد مع سيده على أن يعتقه مقابل مبلغ من المال ، يدفعه العبد للسيد ،
وفى نظير ذلك ينفرد العبد عن سيده ، ويستقل بشئونه مؤقتا ، حتى يستطيع
الحصول على هذا المال ، ويدفعه لسيده ثمنا لحريته ، وفدى لرقبته .

وقد توسع فقهاء المسلمين فى هذا النظام ، وتسامحوا حتى أجازوا أن يؤدّى
هذا المال على أقساط فى أزمنة معينة .

قال الله تعالى : « والَّذِينَ يَبْتَغُونَ الكِتابَ مِمّا مَلَكَتْ أيمانُكُمْ
فَكاتِبُوهُمْ إنْ عَلِمْتُمْ فيهِمْ خيراً ، وآتُوهُمْ مِن مالِ اللهِ الذى آتاكُمْ . »

وهكذا لا يكتفى الإسلام بسَنّ هذا النظام ليبسر للعبيد شراء حريتهم ،
ويتركهم يحصّلون المال بكدهم ، بل يلزمنا أن نساعدهم على ذلك ، وأن نعطيهم
من أموالنا ، حيث يقول الله جل ثناؤه : « وآتُوهُمْ مِن مالِ اللهِ الذى آتاكم » .
أى أعطوهم من مال الله الذى أعطاكم إياه . بل جعل لهذا التحرير نصيباً معلوماً
من أموال الدولة التى تجبيها من الزكاة ، وألزم الحكومة أن تنفقه فى هذا الغرض ،
قال عزّ وجلّ : « إنَّما الصَّدَقاتُ للفقراءِ والمساكينِ ، والعاملينَ عليها ،
والمؤَلَّفَةِ قلوبُهم ، وفى الرِّقابِ . . . »

وبعد هذا كله يحث الإسلام على تحرير العبيد ، ويُغرى السادة بتخليصهم
أيّما إغراء ، فيعدّ عتق الرقبة من أعظم الطاعات التى يُتقرب بها إلى الله سبحانه
وتعالى ، ويجعل ثواب العتق الدرجات العالية فى جَنة عرضها السموات والأرض .
فقد جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال :

يا رسولَ اللهِ ، دُلَّنِي علَى عملٍ يُقَرِّبُنِي من الجَنَّة ، ويُبْعِدُنى من النارِ .
فقال عليه السلام : « أعتِقِ النَّسَمةَ[1] ، وفُكَّ[2] الرَّقَبةَ . »

---

(١) النسمة فى اللغة : الإنسان . (٢) فك الرقبة : أعتقها

فقال : يا رسول الله ، أوَ لَيسا واحِداً ؟

قال : « لا . عِتقُ النَّسَمَةِ أنْ تَنفرِدَ بِعِتْقِها ، وفَكُّ الرَّقَبَةِ أن تُعينَ في ثَمَنِها . »

والقرآن الكريم يجعل تحرير الرقيق تخطِّياً للعقبات ، وخلاصاً من الأهوال . ونجاة من الشدائد يوم القيامة ، حيث يقول الله تعالى في تعداد نعمه على الإنسان ، ومطالبته بشكر هذه النعم :

« أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ، ولِسانًا وشَفَتَيْنِ ، وهَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ ، فَلَا اقْتَحَمَ العَقَبَةَ ، ومَا أَدْرَاكَ ما العَقَبَةُ ؟ فَكُّ رَقَبَةٍ[١] . »

أي جعلنا له عينين ، ولساناً وشفتين ، وبيَّنَّا له طريقَي الخير والشر .

فهلا اجتاز العقبة ؟ وما أعلمك ما العقبة التي يقتحمها ؟ العقبة هي فك رقبة من الرق بتحريرها وإعتاقها . ومن أجل ذلك كان سيدنا أبو بكر الصديق — رضي الله عنه — يشتري الأرقاء، ويحررهم ابتغاء وجه الله ، وطمعاً في مرضاته.

وكان أسامة بن زيد مولى[٢] لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان الرسول الكريم يحبه كثيراً، ويقعده وهو صغير مع الحسن بن عليٍّ على رجليه ، ويلاعبهما ويقبلهما ، ويدعو لهما . فلما كبر أسامة ورأى الرسول حسن استعداده وشجاعته وغَنَاءه ومهارته في الحرب ، ولاه قيادة الجيش الذي أراد بعثه في السنة الحادية عشرة للهجرة ؛ كي يؤمن حدود الجزيرة العربية من جهة فلسطين .وكان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما جنديين في هذا الجيش تحت إمرة أسامة . وهكذا قدر الإسلام الحرية (والديمقراطية) والمساواة قدرها ، وحرص على أن يسبغ ثيابها على الناس جميعاً ، وأن يعيدها بشتى الوسائل إلى من جار عليه الزمان

(١) سورة البلد ٨ — ١٣

(٢) عبدا .

فقدها ، ومن أجل ذلك أعلن على الرق حربا عوانا بكل الوسائل الفعالة ،
فكانت له مُغنية ماحقة ، لو نفذ المسلمون تعاليمات دينهم ، وسلكوا طريق
نبيهم المدافع عن الحرية والإنسانية .

وبعد أن انتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الدار الباقية ارتد بعض
العرب عن الإسلام، فأمر سيدنا أبو بكر - رضى الله عنه - أسامة بن زيد بالزحف
على المرتدين ، وأبقاه رئيساً للجيش ، فاعترض الأنصار . وقالوا لسيدنا عمر :
أخبر أبا بكر أن يولى أمرنا رجلا أقدم سنًّا من أسامة ، فأبلغ عمر الرسالة إلى
أبى بكر ، فأخذ أبو بكر بلحيته :

وقال : « ثَكِلَتْكَ أمُّك يابن الخطاب ، استعملَه رسول الله ، وتأمرنى
بعزله » .

ثم خرج أبو بكر ليرى الجنود قبل سيرهم وكان ماشيا ، وأسامة راكبا ،
فقال له أسامة : ياخليفة رسول الله لتركَبَنّ أو لأنزِلَنّ .

فقال أبو بكر : « واللهِ لا نزَلتَ ولا رَكِبتُ . وما علىّ أن أغبِّرَ
قدمىّ ساعة فى سبيل الله ؟ »

فانظر إلى النبل والمساواة والإنسانية فى الإسلام ! يقعد أسامة وهو عبد مع
الحسن على ركبتى رسول الله وأسامة صغير ، ويجعله رسول الله قائداً للجيش وهو
شاب فى فتح فلسطين ، وأبو بكر وعمر جنديان فى الجيش تحت رياسته
وإمرته ، ويودع أبو بكر الجيش وهو ماش ، وأسامة العبد راكب ، فيدعو
أسامة أبا بكر الصديق للركوب ، فيقسم أبو بكر أنه لن يركب ، ولن يسمح
لأسامة بالنزول ، ويقول له : والله : « لانزلتَ ولا ركبتُ . » وبهذا الروح
الإنسانى ، والمعاملة النبيلة، والمساواة والتواضع ، والتضحية بالنفس فى سبيل الله ،
كان النصر حليف المجاهدين من المسلمين .

وحينما جاء عمرو بن العاص ليفتح مصر أرسل إلى المقوقس وفداً يرأسه عبد أسود يدعى عبادة بن الصامت — وهو من عظماء الصحابة المتفقهين فى الدين — للتحدث مع المقوقس فى شئون الصلح . فخافه المقوقس لسواده وضخامة جسمه ، وقال : « أبعدوا عنى هذا الأسود ، وليتقدم غيره ليكلمنى » .

فأجابوا : « إن هذا أحسننا رأيا وعلما ، وهو سيدنا وأفضلنا والمقدّم علينا . ونحن جميعا نسمع لما يقول، ونعمل بما يرى . وقد أمّره الأمير دوننا بما أمره ، وأمرنا بطاعته فيما يرى ومايقول » .

فقال المقوقس : وكيف قبلتم أن يكون هذا الزنجى الأسود رئيسا عليكم ، وينبغى أن يكون هو دونكم ؟

فأجابوا : « كلا ، إنه — و إن كان أسود كما ترى — أفضلنا مكانة ، وأفضلنا رأيا ، وأكثرنا حكمة وعلما ، وليس ينكر السواد فينا » .

وعندئذ أذعن المقوقس لسماع أقواله وقبل شروطه [(١)] .

من هذا كله ترى أن الدين الإسلامى يعطى الرقيق الحقوق التى يتمتع بها الإنسان الحر ، ويعد الرقيق إنسانا له ما للإنسان من كرامة نفسية ، وحقوق إنسانية.

وقد أباح الإسلام أن يتزوج الحر جارية سوداء . قال تعالى :

« ومَن لم يَستطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أنْ يَنْكِحَ المُحْصَنَاتِ المؤْمِنَاتِ فمما مَلَكَتْ أيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ المؤْمِنَاتِ . »

ثم جعل الإسلام أولاد المرأة الحرة التى تزوجت رقيقا — أحراراً يرثون آباءهم ، مع أن ألمانيا القديمة كانت تحكم بإحراق المرأة الحرة هى وزوجها إذا تزوجت عبداً رقيقاً .

(١) ارجع إلى النجوم الزاهرة ، فى ملوك مصر والقاهرة ، ج ١ ، ص ١٣

وفى الشريعة الإسلامية إذا قال الرجل لامرأته : « أنت على كظهر أمى ». أى محرمة عليه كحرمة أمه ، ثم رجع عما قاله، وجعلها فى عصمته ألزم بتحرير رقبة من قبل أن يتماسا، متى كان قادراً على ذلك . قال تعالى: «والَّذِينَ يُظاهِرُون مِنْ نسائِهِمْ ، ثُمَّ يَعودُونَ لِمَا قالوا فتَحرِيرُ رقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتماسَّا ، ذٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بهِ ، واللهُ بِما تعمَلُونَ خبيرٌ[1] . » وتحرير الرقبة إعتاقها ، وهذا للتكفير عن الظهار [2].

و إذا نذر المسلم أن يحرر رقبة إذا نجح ابنه فى الامتحان ، أو شفى من مرضه ، ثم تم له مارجاه ، وجب عليه أن يفى بنذره ، ويعتق رقيقاً .

ولضعف الرقيق ، وعدم وجود عصبية له ، سِوى سيده ، أوجد الإسلام صلة بين العبد وسيده ، بعد تحرير الأول ، فجعل مولاه وليًّا له حتى لايحدث له ضرر . أنظر إلى حكاية زِنْباعَ مع غلامه :

فقد ارتكب غلامه إثماً ، فجدع زِنباع أنفه ، فجاء الغلام إلى الرسول صلى الله عليه وسلم يشكو زنباعاً ، فقال الرسول لزنباع : « ماحملك على هذا » ؟

قال زنباع : كان من أمره كذا وكذا .

فقال الرسول للغلام : « اذهب فأنت حر » .

فقال الغلام : يارسول الله ، فمولى من أنا ؟

فقال الرسول : مولى الله ورسوله .

ولما قبض صلى الله عليه وسلم جاء هذا الغلام إلى أبى بكر ، فقال : وصيةَ

---

(١) سورة المجادلة : ٤ (٢) الظهار : قول الرجل لامرأته : أنت على كظهر أمى ، أى محرمة على كأمى .

رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال أبو بكر : نعم ، تجرى النفقة عليك وعلى عيالك ، ثم قال مثل ذلك لعمر بن الخطاب حين خلافته .

فقال عمر : نعم ، أين تريد ؟

قال : مصر ، فكتب إلى عامله بها أن يعطيه أرضا يأكل من ثمرها .

عطف الإسلام على الأرقاء :

وقد نظر الإسلام نظرة كلها عطف وشفقة إلى الأرقاء ، فجعل عقاب الرقيق نصف عقوبة الحر إن لم يكن هناك مانع ، فعليه نصف ما على المحصن الحر من الحكم بالجلد بسبب القذف مثلا ، أما فى السرقة فليس من الحكمة قطع نصف يده ، ولكنها تترك كاملة .

وللتشجيع على تحرير العبيد كانت صيغة العتق فى الإسلام سهلة لا تعقيد فيها . ويكفى أن يقول السيد لعبده : أنت حر لوجه الله تعالى ، فيصير حرا ، حتى ولو قال ذلك على سبيل المزاح .

وفى عتق الرقيق أجر جزيل ، وثواب كبير فى الدين الإسلامى . وهو أول من أنكر الاتجار بالعبيد ، ونادى بالتقرب إلى الله بفك الرقبة ، والتكفير عن السيئة بتحرير الرقيق .

وفى القرآن الكريم والأحاديث النبوية ما يدل على أن الإسلام دين الحرية لا العبودية ، دين يشجع تحرير العبيد ، والتخلص من التفرقة العنصرية ، وينادى بالمساواة بين الناس ، والرفق فى المعاملة ، والمحافظة على الكرامة الإنسانية .

وفى الإسلام تجد كل حكمة فى تحرير الأرقاء ، فبدلا من إلغاء الرق جملة واحدة شجع المسلمين على تحرير العبيد بالتدريج ؛ حتى لا تثور الخواطر ، ويهيج الأقوام الذين اعتادوا استخدام العبيد وامتلاكهم .

روى أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال . « من أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل عضو منه عضوا من النار . »

وإذا أفطر مسلم فى رمضان عمدا بالاتصال بزوجه ، وجب عليه عند الإمام الشافعى القضاء ، وصوم ستين يوما متتابعة ، أو إطعام ستين مسكينا ، أو تحرير رقبة مؤمنة .

فالإسلام قد عنى بتحرير الأرقاء فجاء بأحكام ليس هناك ما يدانيها فى شريعة سابقة أو لاحقة ، وهذه الأحكام فى روحها ترمى إلى تحرير الأرقاء ، والاعتراف بإنسانيتهم . ومن تلك الأحكام أن السيد إذا أولد جاريته ، فأتت له بولد ، اعترف ببنوته ، وعندئذ يصير الولد حرا ، وتصبح الأم حرة بعد وفاة سيدها .

وقد روى أن الرسول صلوات الله عليه توفى وهو يقول : « اتقوا الله فى الصلاة وما ملكت أيمانكم . »

كيف يعامل الإسلام الرقيق ؟

إن الدين الإسلامى دين الإنسانية ، والعطف والشفقة والرأفة ، دين يعطف على الإنسان من حيث هو إنسان ، ويعطف على الرقيق محافظة على شعوره ونفسيته ، ويوصى السادة بمعاملة عبيدهم كما يعاملون أنفسهم ، والاجتهاد فى راحتهم وتربيتهم وتعليمهم . وقد كان المسلمون يعاملون الأرقاء معاملة أفراد الأسرة . وقد أوجب الإسلام معاملتهم باللين والرفق والرحمة .

قال تعالى : « واعبُدوا اللهَ وَلا تُشرِكوا بهِ شيئاً ، وبالْوَالِدَيْنِ إحساناً ، وبذِى القُرْبَى واليَتامَى والمَساكِينِ ، والجارِ ذِى القُربَى ، والجارِ الجُنُبِ ، (أى البعيد) ، والصَّاحبِ بالجَنْبِ ، وابْنِ السَّبِيلِ ، ومَا ملكتْ أيمَانُكُمْ . »

فالله جل شأنه أمر بالإحسان إلى كثيرين ، ومنهم الأرقاء . وفى الإسلام أمثلة

كثيرة لمن وصل إلى أكبر المراكز منهم ، كأسامة بن زيد ، وعبادة بن الصامت اللذين ذكرناهما من قبل .

وقد حث الإسلام على العطف على الأرقاء والإشفاق بهم ، روى الإمام على كرم الله وجهه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اتقوا اللهَ فيما ملَكَتْ أنفُسُكُمْ . »

أى احذروا الله فى معاملة الأرقاء الذين تملكونهم . وفى الأثر : « لقد أوصانى حبيبى جبرائيل بالرفق بالرقيق حتى ظننت أن الناس لا تستعبد ولا تستخدم . » فالدين الإسلامى دين عطف وشفقة ورحمة وحرية ، لا دين قسوة وهمجية ووحشية وعبودية .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اضرِبْ عبدَكَ إذا عصَى اللهَ ، واعفُ عنهُ إذا عصَاكَ . »

وقد رأى أبو هريرة — رضى الله عنه — رجلا على دابته وغلامه يجرى خلفه ، فقال له : « احمله خلفك يا عبد الله ، فإنما هو أخوك ، وروحه مثل روحك . » وقال على كرم الله وجهه : إنى لأخجل من نفسى إذا استعبدت رجلا يقول : الله ربى . »

فالدين الإسلامى يحارب حرمان الإنسان حريته الطبيعية ، واستعباده لغيره . وقد شجع على الحرية والتخلص من الرق والعبودية .

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يوصى كثيراً بالعفو عن العبد إذا أخطأ .

وقيل : حاصر أبو عبيدة بن الجراح بيت المقدس بجيشه فطلب البطريرك أن يفاوض الخليفة عمر بن الخطاب نفسه فى شروط الصلح ، فقبل أمير المؤمنين عمر ، وجاء إلى بيت المقدس ومعه غلامه ، ولم يكن لهما إلا ناقة واحدة ، فكانا يركبانها الواحد بعد الآخر ، حتى اقتربا من بيت المقدس ، وجاء دور العبد ، فأركبه عمر

الناقة ، ومشى خلفه على قدميه ، حتى وصل إلى معسكر أبي عبيدة ، فخاف أبو عبيدة أن يحتقر الناس عمر إذا رأوه ماشياً وراء عبده ، وعبده راكب الناقة . وقال له : إن الأنظار متجهة إليك ، ولا يليق أن تصنع ما صنعت .

فقال له عمر : « لم يقل ذلك أحدٌ قبلك ، وكلامك يجلب اللعنة على المسلمين . وقد كنا أذلَّ الناس ، وأحقرَ الناس ، وأقلَّ الناس ، فأعزَّنا اللهُ بالإسلام . »

رحمك الله يا عمر ، فقد كنت مثلا للعظمة الإنسانية ، والعظمة الإسلامية ، و(الديمقراطية) الإسلامية ، والرحمة المحمدية ، والخلق الكامل ، والعدالة المطلقة :

فالإسلام دين تحرير للعبيد ، لا دين استعباد للأحرار ، دين حرية وإخاء ومساواة ، دين عطف وشفقة ورحمة ، وهو يوصي بأن يعامل السادة عبيدهم كما يعاملون أنفسهم ، وأن يربوهم ويهذبوهم ويعلموهم ، ويعطوهم الفرصة في أن يكونوا أحراراً ، لهم ما للأحرار من حقوق ، وعليهم ما على الأحرار من واجبات .

قال الله تعالى : « وَأَنكِحُوا الأَيَامَى مِنكُمْ ، وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ، إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ[1] . »

والأيامى جمع أَيِّم ، وهي : من ليس لها زوج ، بكرا كانت أو ثيباً . والإماء : العبيد . وفي هذا حثّ على عدم التفرقة بين الإنسان وأخيه الإنسان ، وهذا روح الإنسانية ، وروح الإسلام .

فالإسلام لم يأت بالرق ؛ لأنه دين الحرية ، وقد شجع على تحرير العبيد وعدم التفرقة العنصرية ؛ لأنه دين الإنسانية ، وأمر بمعاملة الأرقاء معاملة الإنسان الحر الكريم ، فيأكلون كما يأكل ، ويلبسون كما يلبس ، ويعيشون كما يعيش ، ويتعلمون كما يتعلم . وهذا هو الإسلام ، وروح الإسلام .

---

(١) سورة النور : ٣٢ .

وأما مايذكره بعض المؤرخين من الإفرنج من شيوع النّخاسة والنّخاسين[١]، فذلك مما لم يأمر به الإسلام ، والذين يفعلون ذلك خارجون على أحكام الدين . . ولذلك يقول صلى الله عليه وسلم : « ثلاثةٌ أنا خصمهم يومَ القيامة . ومن كنتُ خصمهَ خصَمْتُه : رجل أعْطى[٢] بى ثم غدر ، ورجل باع حرًّا وأكل ثمنه ، ورجل استأجرَ أجيراً فاستوفى ولم يوفه أجرَه » .

ذلك موقف الإسلام من الرقيق، ومنه يتبين لكل منصف أن الدين الإسلامى، كان عدوا لدوداً للاسترقاق والاستعباد، وقد حاربه بوسائله الحكيمة، وتشريعاته العادلة ؛ لأن الرق يختلف مع الحرية التى هى الأصل والحق الطبعى للإنسان . وقد ذهب فقهاء الشريعة الإسلامية الغراء إلى تقديم هذا الأصل وهو الحرية على الدين؛ فقد قالوا : إذا تنازع اللقيطَ ذمى حر وعبد مسلم ، قبلت دعوى الذمى الحر ، ولا تقبل دعوى العبد المسلم ، ودليلهم أن الحرية أنفع للصغير ، أما الدين فأمر فطرى .

قال بعض صحابة رسول الله : رأيت أبا ذر الغفارى وعليه حلة ، وعلى غلامه حلة مثلها ، فسألته عن ذلك ، فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى الأرقاء : «هم إخوانكم جعلهم اللهُ تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمْه مما يأكل ، وليُلْبِسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم من العملِ مايَغلبهم فإن كلفتموهم فأعينوهم عليه » .

وقد رغب الرسول فى تحرير الأرقاء ، فقال صلى الله عليه وسلم : أيما رجل أعتقَ مُسلماً استنقذ الله تعالى بكل عضو منه عضوا من النار ».

---

(١) النخاسة بيع الرقيق ، والنخاسون : بياعو الرقيق .
(٢) أى أعطى العهد باسمى.

الإسلام لا يعترف بالتفرقة العنصرية :

إن الإسلام لا يعترف بتمييز جنس على جنس، أو لون على لون، أو مدنى على قروى، أو أوروبى على أفريقى، أو حاكم على محكوم، أو غنى على فقير، أو قوى على ضعيف ، فالكل فى نظر الإسلام سواء نظريا وعمليا ، فى الحقل ، وفى حجرة الجلوس ، فى الخيمة أو القصر ، فى المسجد أو فى السوق. إنهم يختلطون جميعاً من غير تفرقة أو تمييز ، بين إنسان وآخر . فالمسلمون سواسية كأسنان المشط ، ولا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى والعمل الصالح . وقد كان أول مؤذن فى الإسلام — وهو بلال — عبداً رقيقاً أسود . ومع أنه كان عبداً أسود كان موقراً وله منزلة كبيرة لدى الرسول صلى الله عليه وسلم وكبار المسلمين . وقد اشتراه أبو بكر — رضى الله عنه — من مولاه ، ثم أعتقه ابتغاء مرضاة الله ، ومنحه الإسلام حريته الإنسانية .

الفصل السادس

(الديمقراطية) الإسلامية

أو

حقوق الإنسان وكيف كفلها الإسلام

(الديمقراطية) هى نوع من الحكم تترك فيه السلطة لمن يختاره الشعب لتولى إدارة الحكم ، من غير تفرقة بين الطبقات العامة والخاصة ، أو بين الفقراء والأغنياء .

وكثيراً ما يعلن المتحدثون باسم (الديمقراطيات) الحديثة أنهم أول من اعترف بحقوق الإنسانية . وكثيراً ما ذهبت المدنيات الحديثة فى أوروبة وأمريكا إلى هذا الزعم ؛ فالإنجليز مثلا يدّعون أنهم من أسبق الأمم تقريراً لمبادئ الحرية الإنسانية ، وأن بلادهم هى حصن (الديمقراطية) العتيد . والفرنسيون يزعمون أن ثورتهم هى التى تمخضت عن تقرير هذه المبادئ الإنسانية ، وهى « الحرية والإخاء والمساواة » ، وأن هذه المبادئ لا تزال إلى اليوم شعار ثورتهم .

ولو أن هؤلاء المتحدثين الفاخرين فكروا قليلا — لعلموا حق العلم أن الإسلام هو الذى سبق إلى تقرير هذه المبادئ حين لم يكن لهذه (الديمقراطيات) ذكر فى التاريخ .

فالحرية وهى التخلص من قيود الرق والاستعباد وضيق الحجر ، والتمتع بكل حق من الحقوق التى سوغها العقل ، وقضى بها الشرع — قد أتى بها الإسلام ، وجعلها حقًّا طبعيا لكل من يستظلون بظله الوارف ، مسلمين وجوههم إلى الله ، أو مسالمين أهل الإسلام .

والإخاء قد نادى به الإسلام فى قوله تعالى : « إنما المؤمنونَ إخْوَةٌ » ،

وقوله صلى الله عليه وسلم «لا يُؤمِنُ أحدُكم حتى يُحِبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه» .

والمساواة شعار الإسلام وروحه ؛ فالله يقول :

«يأيُّها الناسُ إنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وأُنْثَى ، وجَعَلْنَاكُم شُعُوبًا وقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ، إنَّ أكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أتْقَاكُمْ ، إنَّ اللهَ عليمٌ خَبِيرٌ[1] » .

والرسول ينادى فى خطبة الوداع : «لافضل لعربى على عجمى ، ولا عجمى على عربى ، ولا لأحمر على أبيض، ولا لأبيض على أحمر إلا بالتقوى . ألاَ هل بلغت ؟ اللهم فاشهد ! » وقد تكلمنا من قبل عن الحرية فى موضوع : «الإسلام يدعو إلى الحرية » ، وسنتكلم فيما بعد بإسهاب عن الإخاء والمساواة وغيرهما فى الإسلام .

وللديمقراطية أسس هامة لا تتحقق بدونها ، وهى :

(١) المشاورة فى الأمور .

(٢) العدالة والمساواة بين الأفراد فى الإسلام .

(٣) التضامن والتعاون ، أو الاشتراكية فى الإسلام .

ولنتكلم عن كل منها فنقول .

١ — المشاورة فى الإسلام

إن من يبحث فى كتاب الله وسنة رسوله ، وأقوال الخلفاء الراشدين وأعمالهم يجد أن الإسلام لايخص فرداً بالحكم ، ولكنه يجعل الحكم للشعب ، ويجعل الشعب مصدر السلطات . ولا عجب ؛ فالإسلام دين يدعو إلى (الديمقراطية) والحرية والشورى فى الحكم ، ويمقت الذل والاستبداد والعبودية . فليس من الإسلام أن يرث الطفل الإمارة وولاية العهد عن أبيه ، ويرث ما كان لأبيه من الحقوق والامتيازات ، ولو كان ذلك الطفل معتوهاً أو شاذًّا . قال عز وجل :

(١) سورة الحجرات : ١٣

« إنَّ المُلوكَ إذا دَخلوا قَرْيةً أَفْسَدُوها ، وجَعَلوا أعِزَّةَ أَهْلِها أذِلَّةً . »

وقد جعل الإسلام أمر المسلمين شورى بينهم ، ودعا إلى التشاور ، وعدم الاستبداد بالأمور . قال تعالى :

« والَّذِينَ استَجابوا لِرَبِّهِم ، وأقاموا الصَّلاةَ ، وأمرُهُمْ شُورَى بَينَهُمْ ، ومِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُون [١] . » فى طاعة الله .

وأمر الله رسوله المعصوم من الخطأ بالمشورة فى الأمور ، حيث قال :

« فَبِما رَحمةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ . ولَو كُنْتَ فَظًّا غليظَ القلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حولِكَ . فاعْفُ عنهُمْ ، وَاستَغْفِرْ لَهُمْ ، وشاوِرْهُمْ فى الأمرِ . فإذا عَزَمْتَ فتوَكَّلْ على اللهِ . إنَّ اللهَ يُحِبُّ المتوَكِّلين [٢] . »

فالإسلام قد كفل الحرية السياسية حين قرر مبدأ الشورى فى الحكم . وفى آية : « وأقاموا الصلاةَ وأمرُهم شُورَى بَينَهم . » قد قرَن الله الشورى بالصلاة ، وجعلها أصلا من أصول الإسلام ، فالمسلم يسأل عنه كما يسأل عن الصلاة والزكاة ، وذلك — ولا شك — دليل على أن هذا النظام من أرقى أنواع الحكم ، فبه تتحقق العدالة السياسية والاجتماعية بين الناس .

وقد منح الإسلام الفرد الحق فى انتخاب الخليفة الذى يرضاه . ولذلك لا تكون الخلافة صحيحة فى نظر الإسلام إلا إذا كانت نتيجة بيعة حرة ، لا إكراه فيها مطلقاً .

ولم يرد فى القرآن الكريم ولا فى السنة ما يدل على أن تترك أمور المسلمين

---

(١) سورة الشورى : ٣٨

(٢) سورة آل عمران : ١٥٩

وراثية فى أسرة خاصة، أو لأفراد محدودين . ومن هذا يستنبط أن تترك رياسة المسلمين إلى الأمة لتختار من يصلح من المسلمين للحكم .

ولما حضرت الرسول الوفاة لم يعين من المسلمين من يخلفه ، بل ترك الأمر شورى بينهم . ولو كان الأمر بالوراثة — والحكم وراثياً لعين محمد صلى الله عليه وسلم من يلى أمور المسلمين بعد وفاته .

الإسلام لا يقول بالوراثة فى الحكم :

الإسلام لا يقول بالوراثة فى الحكم . وهو يحكم على الناس بأعمالهم لا بأنسابهم . ويتبرأ من العصبية التى كانت سائدة فى الجاهلية ، وينادى بأن أكرم الناس عند الله أتقاهم .

وبعد أن توفى الرسول عليه الصلاة والسلام اجتمع المسلمون فى سقيفة بنى ساعدة فى المدينة المنورة ، وتشاوروا فى الأمر ، ثم انتخبوا أبا بكر رضى الله عنه ، لأنه أول رجل سبق إلى الإسلام ، وحضر المشاهد النبوية كلها ، ورافق رسول الله فى الهجرة من مكة إلى المدينة ، وقد أمره الرسول مدة مرضه أن يصلى بالناس ، فصلى بهم .

وقد شعر أبو بكر بالتبعة الملقاة على عاتقه ، حينما ولى الخلافة ، فقال :

« أيها الناس ، إنّى وليتُ عليكم ولستُ بخيرِكم . فان أحسنتُ فأعينونى ، وإن صَدَفتُ [1] فقَوِّمونى . » وفى رواية أخرى : « فان رأيتمونى على حق فأعينونى ، وإن رأيتمونى على باطل فسدِّدُونى . أطيعونى ما أطعت الله فيكم ، فإن عصيته فلا طاعة لى عليكم . » .

ولما أخذ بعض المسلمين على سيدنا عثمان رضى الله عنه توليته بعض أقاربه لثقته

---

(١) ملت وأعرضت .

بهم قال : « إنى أتوب وأنزع ولا أعود إلى شيء عابه المسلمون ، فإذا نزلت من منبرى فليأتينى أشرافكم فليرونى رأيهم ، فو الله لئن ردنى الحق عبدا لأذلن ذل العبيد » .

ولما تولى عمر الخلافة قال : « من رأى منكم فىّ اعوجاجاً فليقومه » .

فقال له أحد المسلمين من أخريات المسجد : والله لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيوفنا » .

فسر عمر سروراً جما ، وقال : « الحمد لله الذى جعل فى أمة محمد من يقوّم عمر بسيفه » .

قال هذا عمر ، وهو الذى يقول فيه نبينا الكريم : « اللهم أيد الإسلام بعمر » .

فالنظام النيابى واجب فى الإسلام . وعلى الحكام أن يستشيروا الشعب فى المشكلات التى تعترضهم . وعلى المحكومين أن يراقبوا الحكام وينصحوا لهم إذا ساروا فى طريق غير مستقيم . وبهذا تضمن عدالة الحكومات ، وتكون الأمة مصدر السلطات ، وتكون الأمور بيد الشعب . وهذا هو المراد من قوله تعالى : « وأمرهم شورى بينهم » .

فقاعدة الحكم فى الإسلام هى الشورى ، وإشراك كل مسلم ذى رأى فى إبداء رأيه . وكان الرسول صلوات الله عليه ينزل على رأى أصحابه ، ولو كان مخالفاً لرأيه ، إلا ما نزل فيه الوحى ، ولذلك كان أصحاب رسول الله يسألونه فى كل رأى : أهو رأيك يارسول الله ، أم هو مما نزل به الوحى ؟

وإن الحكام من المسلمين مسئولون أمام الأمة الإسلامية . والأمة مطالبة

بمراقبة الحكام ونصحهم ومعاقبة الطغاة والظالمين منهم . قال صلى الله عليه وسلم :

« إن اللهَ يرضَى لكم ثلاثاً ، ويَسخطُ لكم ثلاثاً : يرضَى لكم أن تعبدوه وحده ولا تُشرِكوا به شيئاً ، وأن تعتصموا بحبلِ اللهِ جميعاً ولا تفرَّقوا ، وأن تناصحوا من ولاهُ اللهُ أمرَكم » . فللشعب المسلم حق الرقابة على الحاكم ونصحه، وعقابه إذا ظلم الرعية وطغى فى حكمه .

فالإسلام يوجب الشورى ، وينادى بالحكم الديمقراطى . والشورى لب الديمقراطية وأصلها وأساسها . وسترى فيما يأتى مسائل كثيرة تدل على أن النبى عليه الصلاة والسلام استشار أصحابه ، وعمل بآرائهم ، وكانت أحيانا تخالف ما ارتآه .

الإسلام ينادى بالديمقراطية:

ففى غزوة بدر خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة مع جماعة من المسلمين . فلما وصلوا بدرا نزلوا فى مكان لا ماء فيه ، فقام إليه رجل من أصحابه وقال : يارسول الله ، هل نزولك ههنا شيء أمرك الله به أو هو من عند نفسك ؟

قال : بل هو من عند نفسى .

قال : يا رسول الله ، إن الصواب أن ترحل وتنزل على الماء ، فيكون الماء عندنا فلا نخاف العطش . و إذا جاء المشركون لا يجدون ماء ، فيكون ذلك معيناً لنا عليهم .

فقال رسول الله : صدقت ، ثم أمر بالرحيل ، ونزل على الماء . وهنا تتمثل عظمة الرسول عليه الصلاة والسلام فى الأخذ بمشورة غيره متى كانت صائبة متفقة مع العقل والمنطق والتجربة.

وكان النبي عليه الصلاة والسلام لا ينفرد بالرأى ، بل كان يطرح الأمور بين أصحابه ، و يشاورهم فيهـا ، ولا يـكبر عليه أن ينزل عند رأى أى واحد منهم .

وقد سار الخلفاء الراشدون على سنة رسول الله فى المشاورة ، حتى إن عمر حينما وجه جيشه لمحاربة الفرس أراد أن يقود الجيش بنفسه ، فاستشار فى ذلك ، فأشار بعض أصحابه برأيه ، وخالفه بعضهم . فمال إلى الرأى الذى يقول بقعوده عن الذهاب ؛ لأنه رآه أكثر صوابا وحكمة .

قال عليه الصلاة والسلام : « لا خاب من استخار، ولا ندم من استشاره » وقال على كرم الله وجهه : « من استبد برأيه هلك . » هذه النصوص وغيرها كثير جدا مما يؤيد القاعدة التى كانت تسير عليها الحـكومة الإسلامية منذ فجر الإسـلام ، وهى قاعدة المشورة وتبادل الرأى ، وهى أساس النظام الدستورى (الديمقراطى) .

وقد أثر عن الرسول عليه الصلاة والسلام قوله : « اسمعوا وأطيعوا ، و إن تأمّر[1] عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة . » فالرسول يأمر بإطاعة إمام المسلمين ولو كان عبدا حبشيا أسود اللون والرأس، وهذا روح (الديمقراطية) الإسلامية، تلك (الديمقراطية) التى تنادى بالمساواة بين جميـع الطبقات ، ولا تفرق بين الأغنياء والفقراء ، والسادة والعبيد ، ولا تفكر فى الحسب والنسب ، والمال والجاه، واللون الأبيض والأسود .

ومن الأسباب التى جعلت الأشراف من قريش يتآمرون على قتل الرسول مطالبته بحقـوق الفقراء والمساكين ، والضعفاء والعبيـد ، فخاف الأشراف (الأرستقراطيون) أن يرفعهم محمد صلى الله عليه وسلم إلى مصافهم ، فأخذوا

(١) تسلط .

يكيدون له ، و يدبرون المؤامرات لقتله والتخلص منه ؛ لاعتقادهم أن هذه بدعة ابتدعها محمد ضدهم .

وكيف يخالف محمد النظام الإنسانى المثالى وقد أمره الله به بعد نزول سورة عبس ، و بعد أن عاتبه الله فى حادثة عبد الله بن أم مكتوم الأعمى الفقير ، فقد جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم ؛ وهو مشغول بأشراف قريش ، رجاء إسلامهم ، فقطع الأعمى الرسول عما هو مشغول به . وناداه : علمنى مما علمك الله . فانصرف النبى عنه فعوتب فى ذلك بما نزل فى هذه السورة :

عَبَسَ وَتَوَلَّى (أعرض) ، أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى ، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى ، (يتطهر من الذنوب بما يسمعه منك) ، أَوْ يَذَّكَّرُ (يتعظ) فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ، أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (تتعرض وتقبل) ، وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى ، (يؤمن) ؟ وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى وَهُوَ يَخْشَى (وهو الأعمى) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ، (تتشاغل) . كَلاَّ (لا تفعل مثل ذلك .) إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (عظة للخلق) .

فكان النبى عليه الصلاة والسلام بعد ذلك يقول له إذا جاء : مرحبا بمن عاتبنى فيه ربى ، و يبسط له رداءه .

وفى هذه السورة تبدو (الديمقراطية) الإسلامية بأجلى معانيها . فالأعمى الفقير الذى يريد أن يسلم حقا ، و يتمسك بأخلاق الإسلام ، و يخاف الله خير عند الله من هؤلاء الأشراف والأغنياء وذوى الجاه . وفيها يذكر الله نبيه المصطفى فى صورة عتاب بأن ضعف ذلك الأعمى وفقره لا يجوز أن يؤديا إلى الإعراض عنه ؛ لأنه مؤمن بقلبه وفؤاده ، حى بشعوره واعتقاده . فأنت ترى أن الله أخذ النبى بالمساواة بين الطبقات فى المعاملات . فلا فضل لغنى على فقير إلا بالتقوى . ولا دخل للثروة واللون والنسب والجنس فى تفضيل رجل على آخر .

وقد كان شعراء العرب فى الجاهلية يفخرون بآبائهم . وأفخم شعرهم ما قيل فى الفخر . ونهى النبى أصحابه عن الفخر . قيل إنه اجتمع فى مجلسه يوما عبد الرحمن بن عوف . وهو من أعز رجاله، وأكرمهم عنده، وعبد من عامة الناس. وكان العبد يخاصم عبد الرحمن فى أمر من الأمور . فغضب عبد الرحمن ، وسب العبد قائلا : « يا ابن السوداء » .

فغضب النبى أشد الغضب ، ورفع يده ، وقال :

« لَيْسَ لابنِ بيضاء على ابن سَوداء سُلطانٌ إلا بالحقِّ . »

فخجل عبد الرحمن . واعتذر للعبد بلسانه وقلبه ، ووضع خده على الأرض ليأخذ العبد بحقه منه .

وكان النبى صلى الله عليه وسلم إذا خرج على قوم من أصحابه وهم جلوس نهاهم عن القيام له ، وقال لهم : « لا تقوموا كما يقوم الأعاجم ، يعظم بعضهم بعضا . » وهذا مظهر من مظاهر (الديمقراطية) فى الإسلام .

وليس فى الإسلام امتيازات يمتاز بها الأشراف والأغنياء عن الفقراء . فالإسلام ينادى بالمساواة فى الحقوق المدنية والدينية بين جميع الناس .

قال عز وجل : « وأن ليسَ للإنسانِ إلاَّ ما سَعَى ، وأنَّ سَعْيَه سَوفَ يُرى . ثُمَّ يُجزاهُ الجزاء الأَوْفَى . »

المصطفى يستشير أصحابه :

وبعد غزوة بدر أسر المسلمون بعض الكفار ، فاستشار الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه فى أمر هؤلاء الأسرى ، أيُقتَلون أم يطلق سراحهم فى مقابل دية يدفعونها ؟ فاختلف رأيهم .

وقال أبو بكر رضى الله عنه : « قومك وأهلك استبْقِهم ؛ لعل الله يتوب

عليهم ، خُذْ منهم فِديةً تُقوِّى بها أصحابَك . » و بذلك أراد أبو بكر المحافظة عليهم ، وأخذ الفدية منهم .

وقال عمر رضى الله عنه : « هؤلاء أئمةُ الكفرِ كذبوك وأخرجوك من دِيارِك ، فقوِّمْهم واضرب أعناقَهم . واللهُ أغناكَ عن الفِداء . »

واستمر الجدل والنقاش بين الرسول وأصحابه ، و بعد التشاور أخذ صلى الله عليه وسلم برأى أبى بكر — وهو قبول الفداء — وقبل الفدية من الكفار ، فعاتبه الله بقوله : « ما كانَ لنبيٍّ أن يكونَ له أسرَى حتى يُثخنَ (١) فى الأرضِ . تُريدونَ عَرَضَ الدنيا ، والله يريدُ الآخرةَ ، والله عزيزٌ حكيمٌ . لَولا كتابٌ من اللهِ سبَقَ لمَسَّكُم فيما أَخذتُم عذابٌ عظيمٌ . »

فقال النبى الكريم لعمر رضى الله عنه : « كادَ يُصيبُنا فى خلافك شرّ . »

و يقول حكيم الشعراء :

إذا بلغَ الرأىُ المشورةَ فاستعِنْ ... برأىِ نصيحٍ أو نصيحةِ حازمِ

ولا تَجعلِ الشورَى عليكَ غضاضةً ... فإن الخوافى قوةٌ للقوادمِ

و يقول آخر :

الرأىُ كالليل مُسْوَدٌّ جوانبُه ... والليلُ لا يَنْجلى إلا بإِصْباحِ

فاضمُمْ مصابيحَ آراءِ الرجالِ إلى ... مصابيحِ رأيكَ تزددْ ضوءَ مصباحِ

وقد كان الخلفاء رضوان الله عليهم يسيرون سيرة المصطفى عليه السلام ، فلا يبرمون أمرا من الأمور الخطيرة حتى يعرضوه على المسلمين جريا على مبدأ الاستفتاء العام . وهذه هى الحرية السياسية التى أقرها الإسلام منذ ألف و بضع

---

(١) أثخنَ فى الأرض إثخاناً : ساقه إلى العدو وأوسعهم قتلا ، وأثخنتُه : أوهنتُه بالجراحة وأضعفتُه .

مئات من السنين . ومن ذلك يتبين أن الدين الإسلامى قد سبق إلى تقرير هذا الحق قبل أن تظهر هذه (الديمقراطيات) الحديثة فى عالم الوجود .

وكان أبو بكر رضى الله عنه إذا أعياه أن يجد فى الأمر نصا فى كتاب الله أو سنة رسوله جمع رءوس الناس وخيارهم فاستشارهم . فإن أجمع رأيهم على أمر من الأمور قضى به ونفذه . وكذلك كان يفعل عمر رضى الله عنه .

فقد كان عمر إذا نزل به أمر من الأمور لاينفذه قبل أن يجمع المسلمين ويستشيرهم فيه ، ويقول : « لاخير فى أمر أبرِم من غير شورى . »

وكان للشورى عند عمر درجات ، فهو يستشير العامة فى المرة الأولى ، ثم يجمع الشيوخ من الصحابة ، من قريش وغير قريش ، ويستشيرهم ثانية . فإذا استقر رأيهم على رأى من الآراء أو عمل من الأعمال أخذ بهذا الرأى ونفذه ، وقام بهذا العمل وأداه . ومن قوله فى ذلك : « يحق على المسلمين أن يكون أمرهم شورى بينهم ، » بأن يستشار ذوو الرأى منهم ، فإذا اجتمعوا على أمر من الأمور ورضوا به ، وجب على الناس تنفيذه . فجعل أولى الأمر منفذين لما يراه أولو الرأى ، وجعل الناس تابعين لما أخذ به الإمام من رأى المفكرين وأصحاب الرأى .

وقد نهى عمر رضى الله عنه الناس عن المغالاة فى المهور عند الزواج ، فتلت عليه امرأة قوله تعالى : «وَإِن أَردتمُ استبدالَ زوجٍ مَكانَ زَوجٍ وآتيتمْ إحداهُنّ قِنطاراً فَلا تَأخُذوا منه شيئاً . أتأخذونه بُهتاناً وإثماً مُبيناً ؟»

فقبل منها زجرها ، ورجع عن رأيه ، وقال : « أصابت امرأة وأخطأ عمر . »

وكثيراً ما كان عمر يرى شيئاً من الأشياء ، فيبين له أصغر الناس وجه الحق ، فيرجع عمر إلى رأيه .

قال القاضى أبو يوسف فى كتاب الخراج : « لما قدم على عمر بن الخطاب جيش العراق من قبل سعد بن أبى وقاص شاور أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فى قسمة الأرضين التى أفاء[١] الله على المسلمين من أرض العراق والشام. فاستشار عمر الصحابة ، فأبدى كل من الحاضرين رأيه ، واختلفوا فى آرائهم .

فكان عمر يستمع إلى كل منهم ، ولا يزيد على أن يقول : هذا رأى :

وفى النهاية أرسل عمر إلى عشرة من الأنصار : خمسة من الأوس ، وخمسة من الخزرج ، من كبرائهم وأشرافهم . فلما اجتمعوا حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال :

إنى لم أزعجكم إلا لأن تشتركوا فى أمانتى ، وفيما حملت من أموركم ، فإنى واحد كأحدكم . وأنتم اليوم تقرون بالحق ، خالفنى من خالفنى ، ووافقنى من وافقنى . ولست أريد أن تتبعوا هذا الذى هواى . معكم من الله كتاب ينطق بالحق . فوالله لئن كنت نطقت بأمر أريده ما أريد به إلا الحق .

قالوا : قل نسمع ياأمير المؤمنين .

قال : قد سمعتم كلام هؤلاء القوم الذين زعموا أنى أظلمهم حقوقهم . و إنى أعوذ بالله أن أركب ظلما . لئن كنت ظلمتهم شيئا هولهم وأعطيته غيرهم لقد شقيت . ولكن رأيت أنه لم يبق شىء يفتح بعد أرض كسرى . وقد غنمنا الله أموالهم وأرضهم وعلوجهم[٢] . فقسمت ما غنموا من أموال بين أهله ، وأخرجت الخمس على وجهه وأنا فى توجيهه . وقد رأيت أن أحبس الأرضين بعلوجها ، وأضع عليهم فيها الخراج ، وفى رقابهم الجزية يؤدونها ، فتكون فيئا[٣] للمسلمين المقاتلة والذرية ، ولمن يأتى بعدهم .

(١) أعاد وأرجع تفضلا منه وكرما .

(٢) العلج : الرجل الضخم من كفار العجم ، والكافر . والجمع علوج وأعلاج .

(٣) غنيمة .

أرأيتم هذه الثغور لا بد لها من رجال يلزمونها ؟ أرأيتم هذه المدن العظام — كالشام والجزيرة والكوفة والبصرة ومصر — لابد لها من أن تشحن بالجيوش وإدرار العطاء عليهم . فمن أين يعطى هؤلاء إذا قسمت الأرضون والعلوج ؟

فقالوا جميعاً : الرأى رأيك . فنعم ماقلت وما رأيت . إن لم تشحن هذه الثغور وهذه المدن بالرجال وتجرى عليهم ما يتقوون به رجع أهل الكفر إلى مدنهم .

فقال عمر : قد بان لى الأمر . ثم طلب منهم أن يختاروا له رجلا له جزالة وبصر وعقل وتجربة . فاختاروا له عثمان بن حنيف . فأسرع إليه عمر وولاه مساحة أرض السواد .

وعلى هذا الأساس — وهو امتناع عمر من قسمة الأرض بين الفاتحين وتركها فى يد أهليها يؤدون عنها الخراج للمسلمين — فعل عمر بالشام والعراق . وقد وفقه الله فيما صنع. وقد كانت الخيرة لجميع المسلمين. فكان يجمع خراج الأرض ويقسمه بين المسلمين ؛ ليعم النفع بين الجماعة منهم .

وفى هذا كله حرية فى التفكير والمناقشة ، واعتراف بالحق ، ورجوع إلى الحق ، وتمسك بالحق . وهذه هى (الديمقراطية) الحقة ، والحرية الكاملة . وهنا تبدو (الديمقراطية) الإسلامية بأجلى مظاهرها ، منذ أربعة عشر قرنا تقريباً.

وقد قال أبو بكر رضى الله عنه فى خطبة له : « استشيروا القرآن ، والزموا الجماعة ، وليكن الإبرام بعد التشاور ، والصفقة بعد طول التناظر . »

وقد سئل عمر رضى الله عنه ذات مرة : ماشرطك فى الوالى الذى تريده ؟

قال : إذا كان فى القوم وليس أميرهم كان كأنه أميرهم . وإذا كان أميرهم كان كأنه رجل منهم .

لقد نادى الإسلام بالديمقراطية فى عصر كانت السيطرة والاستبداد والحكم والملك والنفوذ للأشراف أو (الأرستقراطيين) فى بلاد الرومان والفرس ومصر و بلاد العرب قبل الإسلام .

وقد أبى الملك النعمان بن المنذر أن يزوج ابنته من كسرى ملك الفرس ، و كلفه هذا الإباء حياته التي فقدها تحت أرجل الفيلة التى كانت لكسرى فى أثناء الحرب بين النعمان وكسرى .

(الديمقراطية) المثالية فى الإسلام :

لهذه (الديمقراطية) المثالية فى الإسلام انهزم الروم والفرس أمام المسلمين ، وانتشر الإسلام فى أنحاء العالم ، وتكونت الإمبراطورية الإسلامية فى مدة وجيزة .

و إن (الديمقراطية) الإسلامية لا نظير لها اليوم فى العالم الغربى الحديث ، ذلك العالم الذى يتظاهر بالديمقراطية ، مع أنه مملوء بالمظاهر التى تتمثل فيها (الأرستقراطية) . فالإسلام ضد التفرقة العنصرية ، لا يفكر فى جنس ولا لون ولا حسب ، ولكنه يفكر فى التقوى والصلاح والبر وعمل الخير .

انظر إلى أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، تجد أنه كان يشتغل بالتجارة قبل الخلافة ، و يشتغل بها بعد الخلافة ؛ ليكسب عيشه بعرق جبينه ؛ فقد كان يبيع و يشترى كأى فرد من الناس . ولم يترك التجارة إلا بعد أن أشار عليه المسلمون بتركها ليتفرغ لشئون الإسلام والمسلمين . ولم يأخذ من بيت المال إلا الضرورى للإنفاق على نفسه وأسرته ، فى حين أن الملوك والقياصرة فى عصره كانوا يجمعون ويغتصبون أموال رعاياهم لإنفاقها على ملذاتهم ورغباتهم وشهواتهم .

ولما قربت وفاة أبى بكر رضى الله عنه أبى أن يستأثر بالخلافة لأولاده ، مع أنه كان له ابنان : محمد وعبد الرحمن . فجعلها بعيدة عنهما ، واختار عمر

ابن الخطاب رضى الله عنه ؛ اتظل من حقوق الشعب ، فلا يستأثر بالخلافة أحد المسلمين . ولا عجب ؛ فأبو بكر كان يميل إلى الاشتراكية، وروح المساواة (والديمقراطية) . لم يفكر فى أسرته ، ولكنه كان يفكر فى رعيته . وقد أحسن كل الإحسان فى اختياره عمر بن الخطاب .

رحم الله أبا بكر . ما كان أعرفه بالرجال . ورحم الله عمر فقد كان مثاليا فى عدالته وشجاعته و إنسانيته وزهده و إيثاره.

نظام الحكم فى الإسلام

حينما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم اختار المسلمون أبا بكر ليكون خليفة المسلمين ، فقال لهم:

« إنى وليتُ عليكم واست بخيركم . فإن رأيتمونى على حقٍّ فأعينونى .. و إن رأيتمونى عَلَى باطلٍ فَسَدِّدُونى » ، أى قومونى.

وقبيل وفاة أبى بكر اختار عمر خليفة ، فقال عمر حينما ولى الخلافة :

« من رأى منكم فى اعوجاجاً فليقومنى .

فقال له أحد الحاضرين : «والله لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيوفنا» ..

فقال عمر : الحمد الله الذى جعل فى المسلمين من يقوم عوج عمر بالسيف ..

فعمر كان يطلب من الناس أن ينصحوا له ، و يبتغوا وجه الحق إذا رأوا منه أى انحراف عن الصواب .

فالدين الإسلامى يدعو إلى الشورى ،والحكم (الديمقراطى) ، ولا يدعو إلى النظام الملكى بالوراثة .

قال تعالى: « وإذِ ابتلى[1] إبراهيمَ ربُّهُ بكلماتٍ فأتمهُنَّ، قال: إني جاعِلُكَ للناسِ إماماً . قال : ومن ذُرِّيتي . قال: لا ينالُ عهدي الظالمين[2] . »

فالدين الإسلامي لا يقول بجعل الحكم فى أسرة من الأسر ؛ لأنه يدعو إلى العدالة ، والمساواة ، والتشاور فى الأمر واختيار الأصلح ، والناس سواسية كأسنان المشط، « إن أكرمكم عند الله أتقاكُم ». وينادى بحرية الرأى والجدل والمناقشة، والاعتراف بالحق ، والرجوع إليه ، والتمسك به ، وهذا هو روح الإسلام .

(الديمقراطية) الإسلامية الحقة :

إن الإسلام دين الديمقراطية. انظر إلى تلك الآيات الكريمة التى بها يخاطب الله جل شأنه رسولَه المصطفى :

« فَذَكِّرْ إنما أنتَ مُذَكِّرٌ ، لَسْتَ عليهمْ بِمُسَيْطِرٍ »

« وَمَا أنتَ عليهمْ بجَبَّارٍ » .

« ليسَ عَلَيكَ هُدَاهُمْ ، ولكنَّ اللهَ يَهْدِى مَنْ يشاء . »

— تجد أن الإسلام ضد السيطرة والاستبداد ، وليس فيه سلطة دينية سوى سلطة التذكرة والموعظة الحسنة ، والدعوة إلى الفضيلة ، والتنفير من الرذيلة .

إن الإسلام دين يفكر فى المصلحة العامة ، وينادى بحرية الرأى والتفكير والاجتهاد فى الحكم . فقد اجتهد أبو بكر رضى الله عنه فجعل عمر بن الخطاب خليفة على المسلمين قبيل وفاته، واجتهد عمر رضى الله عنه فلم يستخلف واحداً، وترك الأمر شورى بين ستة من خيار الصحابة .

فاجتهاد أبى بكر غير اجتهاد عمر . واجتهادهما معاً غير ما فعله الرسول؛ لأنه صلى الله عليه وسلم لم يستخلف واحداً كما فعل أبو بكر ، ولم يترك الشورى لستة

---

(١) اختبر (٢) سورة البقرة ١٢٤ .

كما فعل عمر . وكل منهم قد توخى روح الإسلام ، وفكر فى المصلحة العامة ، واجتهد بقدر استطاعته . وهذه هى (الديمقراطية) الإسلامية الحقة التى لا نظير لها .

إن الإسلام دين ينادى بالحرية ، ويكره الذل والعبودية ، دين ينظر إلى الجميع نظرة واحدة هى نظرة المساواة ، دين يدعو إلى (الديمقراطية)، والحكم (الديمقراطى) ، يدعو إلى الإخاء ، والشورى فى الحكم . فليس من الإسلام أن يولد طفل أميراً له حقوق وامتيازات على غيره من المسلمين لأن أباه ملك . ولا يرث الطفل الملك لمجرد الوراثة ، حتى ولو كان ضعيف العقل ، أو معتوها .

قال تعالى : « إنَّ الملوكَ إذا دَخلوا قرْيةً أفْسَدُوها، وجَعلوا أعِزَّةَ أهْلِها أذِلَّة ، وكذلِكَ يَفْعلون . » وأكبر دليل على ذلك مافعله محمد على بعد أن جعل واليا على مصر ؛ فقد أذل كثيرين من زعماء مصر الوطنيين المخلصين ، وشردهم ليخلو له الجو ، ودعا المماليك إلى القلعة ، ثم تخلص منهم بقتلهم ، كى لا ينافسه أحد ، ولا ينازعه إنسان فى الحكم .

وقد تخلصت مصر ولله الحمد من تلك الأسرة الظالمة الغريبة التى بدأت حكمها بالظلم والطغيان . وانتهت بسبب الظلم والطغيان . وقد دخل الإنجليز مصر واحتلوها بسبب تلك الأسرة الدخيلة، ولم تتمكن مصر من التخلص من الاحتلال الإنجليزى إلا بعد أن تخلصت ممن كان سببا فى الاحتلال ، والسبب هو أسرة محمد على .

جاء محمد على إلى مصر فقيرا مشردا لا يملك شيئا ، و بعد أن تولى الحكم اغتصب أرض مصر من المصريين واستغلها لمصلحته . وقد ردت إلى أصحابها فى هذا العهد السعيد ، والحمد لله . وإذا نظرنا إلى أسرة محمد على وجدنا أنها تحكمت

فى مصر نحو قرن ونصف قرن ، واستعبدت الشعب وظلمته ، واستبدت به كل الاستبداد ، وعاملته أسوأ معاملة . ولم يكن الحكم لمصلحة مصر . ولكنه كان لمصلحة أسرة محمد على .

وقد كان عباس الأول جرثومة من الفساد . وميوله إنجليزية . وسعيد الأول كانت ميوله فرنسية . وقد سخر المصريين فى حفر قناة السويس ليرضى صديقه النصاب العالمى « ديلسبس » . وإسماعيل قد أسرف كل الإسراف فى ملذاته وشهواته . وأغرق مصر فى الديون التى استدانها ، فتحكمت فيها الدول الأجنبية، وأذل مصر والمصريين بإرضاء القنصل الفرنسى وخضوعه لرأيه فى تجريد أحد الضباط المصريين ، وتعذيب الجنود المصريين ، فأهان مصر وكرامتها إرضاء لفرنسا . وحينما حكم عليه بالخروج من مصر ، أخذ كل ما كان فى خزينة المالية من المال لنفسه اغتصابا ؛ كأنه مالك له . والخديو توفيق هو السبب فى الاستعمار الإنجليزى ؛ فقد دخل الإنجليز مصر بحجة المحافظة على عرشه .

وعباس الثانى لم يفكر إلا فى شىء واحد هو أن يجعل نفسه من أكبر أغنياء العالم . وقد تحقق ما أراده وفكر فيه .

وفؤاد الأول حينما ولى الحكم كان فقيراً مفلساً . وبعد سنوات معدودة كان من كبار الأغنياء وأصحاب الملايين .

وفاروق الملك الخليع المستهتر لم يترك وسيلة من وسائل النهب والاغتصاب ، والاستغلال وبيع الرتب والألقاب والسمسرة إلا فعلها ، حتى استطاع أن يهرب ٨٠ مليونا من الجنيهات من مال مصر الذى نهبه واغتصبه .

وقد ساعدهم الاستعمار على الظلم فى الحكم ، والاستبداد بالشعب ، والسيطرة عليه ؛ ليكونوا أداة له فى الاحتلال ، وامتصاص خيرات البلاد ، واستغلالها من كل الوجوه .

ومع الأسف كان الشعراء والأدباء والمؤرخون والكتّاب من المصريين يتملقون هذه الأسرة فى قصائدهم ومؤلفاتهم ، ويصورون سيئاتها بحسنات ، ويجعلون رجالها أبطالا ، ولو كانوا من ضعاف العقول . ويعظمونهم وما كانوا من العظماء ، ويخلقون منهم آلهة وأصناما وتماثيل ، ويصفونهم بصفات الألوهية ، ويلقبونهم بألقابهـــا كصاحب العظمة ، وصاحب الجلالة ، حتى كادوا يعبدونهم من دون الله . ومن أراد أن يرى الملق والنفاق والكذب فليطلع على ما كتب فى الصحف فى ذلك العهد المظلم .

وقد نسوا أن الإنسان إنسان . وكل إنسان يخطئ ويصيب ، لا فرق فى ذلك بين أمير وخفير ، ورفيع ووضيع .

وفى استطاعة المؤرخ اليوم أن يعمل للوصول إلى الحقيقة ، ويكتب تاريخ مصر خاليا من كل غرض ، غير متأثر بأحد ، غير خائف من اضطهاد أو تعذيب ، أو محاكمة .

والحق أن التاريخ حينما يكتب لن يجد حسنة خالصة لوجه الله أو الوطن ، لأى فرد من أسرة محمد على .

الفصل السابع

العدالة فى الإسلام

كيف كان الناس قبيل البعثة المحمدية ؟

قبيل بعثة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم كان الناس منهمكين فى الملاذ ، يتفاخرون بالأنساب ، ويشنون الغارات والحرب لأوهى الأسباب ، وكانت الشعوب متفرقة إلى طوائف متنافرة ، كل طائفة تعتدى على من دونها ، فالقوى يعتدى على الضعيف ، ويسطو على حق غيره ، ويعدُّ ذلك من ضروب الشجاعة. وكان القانون السائد : (الحياة للقوىّ ، والموت للضعيف) . فإذا لجأ الضعيف إلى السلطان طالبا العدل والإنصاف وقفت فى وجهه الموانع ، واعترضته الحواجز من الرِّشوة والمحاباة ، فضاع حقه ، و باء بالخسران ، وعُدّ جانيا مع أنه مظلوم ومعتَدًى عليه ، وحكم عليه بالعقوبة مع أنه برىء ولاذنب له ، حتى انعدم الاطمئنان والاستقرار ، وانتشر القلق والاضطراب بين الشعوب والقبائل ، وسئم الكل الحياة ، وأخذ الناس يتساءلون : لمَ هذه الحياة ؟ ولأى غاية يحيَوْن ؟

بين هذه المظالم وتلك الآلام ، سطعت شمس رسول الأنام ، محمد الكامل بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، وتألق نور الإسلام ، نور العدل والمساواة ، وأخذ الرسول الكريم يعالج هذا الفساد ، ويزيل هذه المظالم ، ويستأصلها من جذورها ، ويضع قواعد للعدالة والمساواة ، قواعدَ تنظم علاقة الإنسان بأخيه الإنسان ، وعلاقة الإنسان بالمجتمع ، وتنشر الطمأنينة فى النفوس الحائرة ، والسعادة بين الإنسانية الشقية المعذبة ، وتسمو بالأمة الجديدة إلى قمة الخير والمجد ، تحقيقا لقول الله تعالى :

« كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ، تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ . »

وأول دعامة وضعها الإسلام فى أساس هذا الإصلاح نشر العدل والمساواة بين الأفراد والمجتمعات ، وإعطاء كل ذى حق حقه ، والمساواة بين الناس فى المعاملة ، والمسلم أخو المسلم .

قال تعالى : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ . »

وقد يظن كثير من المثقفين أن أوروبة الحديثة كانت الأولى فى المناداة بالعدالة والمساواة بين الطبقات ، وأن الثورة الفرنسية هى التى نادت بحقوق الإنسان من الإخاء والحرية والمساواة ، ولكن هذا كله خطأ ؛ كما ذكرنا من قبل ؛ فأول من نادى بالعدل والمساواة والحرية والإخاء رسول الإسلام محمد — صلى الله عليه وسلم — خير الأنام .

انظر إلى تاريخ الفرس والرومان والعرب وقدماء المصريين تجد أن تلك الأمم كانت (أرستقراطية) فى نزعتها الأولى ؛ فالأشراف فيها خلقوا ليحكموا ويسيطروا ، والطبقة العامة منها خلقت لتُحكَمَ وتكون عبيدا للسادة والأشراف منها .

وكان العرب قبل الإسلام أشد الأمم فى نزعتها (الأرستقراطية) ، وكانت قبيلة قريش تحسب كل الناس عبيدا لها .

فكان عجبا حقًّا أن يبرز النبى صلوات الله عليه مناديا بالعدل والمساواة ، بين الطبقات ، قائلا «الناس سواسية كأسنان المشط ، ولا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى . »

وإن هذا الروح (الديمقراطى) فى الإسلام كان سببا فى معاداة أشراف قريش للرسول الكريم ، وتآمرهم على قتله والتخلص منه ، بأى وسيلة من

الوسائل ؛ فقد خافوا أن يرفع الرسول العادل ، والمثَلُ الكامل هؤلاء الضعفاء والمساكين والعمال والعبيد إلى صفوفهم ، فأخذوا يكيدون له ، ويتآمرون عليه ، ويظهرون له العداوة والبغضاء؛ لأنه جاء بدين يأمر بالعدالة والإخاء والمساواة، وهي النظام الطبعي لحياة الكون. وكيف لا يكيدون له، ولا يفكرون أكثر من مرة في قتله ، وهو ينادي بينهم : « الناس سواسية كأسنان المشط ... » وهم لا يعتقدون فيما يعتقد، ولا يؤمنون بما يؤمن به ، ولكنهم يعتقدون في الحسب والنسب، والجاه والسلطان ، والمال والثراء ، والفخر والكبرياء ، والسيطرة والتحكم في الضعفاء .

لهذا غضبت قريش ، وغضب أشراف قريش من محمد الكامل، وعدُّوا مبادئه من العدالة والمساواة (والديمقراطية) بدعة جديدة من البدع . ولم يعرف عنه عليه الصلاة والسلام أنه اختص نفسه بشيء دون الناس ؛ فقد كان بشرا يأكل الطعام ، ويعاني آلام الجوع والفقر . وقد قامت شريعته على العدل والمساواة .

تعريف العدالة والمساواة .

العدالة إعطاء كل ذي حق حقه ، من غير أن يطالب به . وهي ضد الجور والظلم . والمساواة نوع من العدالة العامة ، ومن مظاهرها التسوية بين الناس في الحقوق والواجبات العامة التي لا تتعارض ومراكزهم . وإن مبدأ المساواة من أكبر دعامات البر ، وأفتك الأسلحة بآفة الفقر . وقد حارب الإسلام الترف في الحياة ، واكتناز المال وعدم أداء الزكاة عنه ، وحرم الربا ، لتضييق مسافة الخلف ، وتذويب الفوارق بين الطبقات من الناس ، وتقريبهم من المساواة ، لتكون حياة الجميع سعيدة متسقة .

العدالة روح الإسلام :

لقد نادى الإسلام بالعدل والعدالة ، وجعل العقوبة مناسبة للجريمة .

قال جل شأنه : « إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا . وإذا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالعَدْلِ ، إِنَّ اللهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ[1] . »

وقال تعالى : « وإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ ما عُوقِبْتُمْ بِهِ . »

وقال : « فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ ما اعْتَدَى عَلَيْكُمْ . »

وقال عز وجل : « وكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ ، والعَيْنَ بِالعَيْنِ ، والأَنْفَ بالأَنْفِ ، والأُذُنَ بِالأُذُنِ ، والسِّنَّ بِالسِّنِّ ، والجُرُوحَ قِصَاصٌ . »

وعن الفضل بن عباس قال : جاءنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخرجت إليه ، فوجدته موعوكاً ، قد عَصَبَ رأسه ، فقال : خذ بيدى يا فَضْلُ ، فأخذت بيده حتى جلس على المنبر ، ثم قال : نادِ فى الناس ، فاجتمعوا إليه ، فقال :

« أما بعد : أيها الناس ، فإنى أحمدُ إليكم اللهَ الذى لا إلهَ إلا هو ، وإنه قد دَنَا مِنِّى خُفُوقٌ[2] من بَيْنِ أَظْهُرِكم ، فمَنْ كُنْتُ جَلَدْتُ له ظَهْراً ، فهذا ظَهرى فَلْيَسْتَقِدْ[3] منهُ ، ومَن كُنْتُ شَتَمْتُ له عِرضاً ، فهذا عِرضى فَلْيَسْتَقِدْ منه ، ومَن أخذتُ له مالاً فهذا مالى فليأخذْ منهُ ، ولا يَخْشَ الشَّحناء من قِبَلى ، فإنها ليستْ منْ شأنى . ألاَ وإنَّ أحَبَّكُمْ إلىَّ مَنْ أَخَذَ مِنِّى حقًّا إن كان له ، أو حَلَّلَنِى فلقيتُ رَبِّى وأنا طيبُ النفسِ . وقد أرَى أنَّ هذا غيرُ مُغْنٍ عنِّى حتَّى أقومَ فيكم مراراً . »

---

(١) سور: النساء: ٥٨

(٢) خفق النجم خفوقا : غاب ، وخفق الطائر طار .

(٣) فليقتص ، من القود وهو القصاص .

فالرسول عليه الصلاة والسلام يطالب الناس بالاقتصاص منه ، وأخذ حقهم إن كان لهم حق ، حتى يلقى الله وهو طيب النفس . أليس هذا مثلاً نادراً للعدالة الإسلامية؟

وقال صلى الله عليه وسلم : « إنَّ الناسَ إذا رَأَوُا الظالمَ فلم يأخذُوا على يَدَيهِ أوشكَ أنْ يَعمَّهمُ اللهُ بعقابٍ من عندِه . »

ويبدو روح الإسلام روح العدالة فى قول أبى بكر الصديق — رضى الله عنه — بعد أن بايعه المسلمون : « أيها الناس ، إنِّى قد وُليتُ عليكم ولستُ بخيرِكم . فإن رأيتمونى على حقٍّ فأعينونى ، وإن رأيتمونى على باطلٍ فسدِّدُونى[1] . أطيعونى ما أطعتُ اللهَ فيكم، فإذا عصَيْتُهُ فلا طاعَةَ لى عليكم . ألاَ إنَّ أقوا كم عِندى الضعيفُ حتَّى آخذَ الحقَّ له ، وأضعفَكمُ عندى القوىُّ حتَّى آخذَ الحقَّ منهُ . أقولُ قولى هذا وأستغفر اللهَ لى ولكم . »

كما يبدو فى قول عمر بن الخطاب لما ولى الخلافة : « منْ رأى منكم فىَّ اعوجاجاً فليُقَوِّمْه . »

فقال له أعرابى : « واللهِ لو رأينا فيك اعوجاجاً لقوَّمناهُ بسيوفِنا .

الإسلام يأمر بالعدل وينهى عن الظلم :

وفى القرآن الكريم كثير من الآيات التى تأمر بالعدل وتنهى عن الظلم ، نذكر منها ما يأتى :

---

(١) فقومونى

« إنَّ اللهَ يَأمرُ بالعَدْلِ والإحسانِ ، وإيتاءِ ذِي القُرْبَى ، ويَنْهَى عنِ الفَحْشاءِ والمُنْكرِ والبَغْيِ ، يَعِظُكمُ لَعَلَّكم تذَكَّرُونَ[1] . »

« ولا تحسَبَنَّ اللهَ غافِلاً عمَّا يَعملُ الظالمونَ . إنَّما يُؤَخِّرُهمْ ليومٍ تَشْخَصُ فيهِ الأَبْصارُ . مُهْطِعينَ مُقْنِعِي رُءوسِهِمْ ، لا يَرْتدُّ إليهمْ طَرْفُهُم، وأفئِدَتُهُم هَواءٌ . »[2] تشخص : تنظر . مهطعين : مسرعين : مقنعى : رافعى . طرفهم : بصرهم . أفئدتهم هواء : قلوبهم خالية من العقل لفزعهم .

« وأَقْسِطُوا إنَّ اللهَ يُحِبُّ المُقْسِطينَ[3] . » أى اعدلوا إن الله يحب العادلين.

« ويَوْمَ يَعَضُّ الظَّالمُ علَى يدَيْهِ ، يَقولُ يا ليتَنِى اتَّخذْتُ معَ الرَّسولِ سَبيلاً[4] . »

فهو يندم و يتحسر لأنه لم يتخذ مع الرسول طريقاً إلى الهدى .

« يأيُّها الَّذينَ آمَنوا كُونوا قوَّامينَ للهِ شُهَداءَ بالْقِسْطِ . ولا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ علَى ألاَّ تَعْدِلوُا ، اعْدِلوا هُوَ أَقْرَبُ للتَّقوَى ، واتَّقوا اللهَ إنَّ اللهَ خَبيرٌ بِمَا تَعْملونَ[5] . » القسط : العدل . ولا يجرمنَّكم : ولا يحملنَّكم. شنآن : بُغض . اعدلوا فى الحكم على العدو والصديق ، فالعدل أقرب للتقوى .

« وأمَّا القاسِطُون فكانوا لجهَنَّمَ حَطَباً[6] . » والقاسطون : هم الظالمون ، الجائرون فى أحكامهم ومعاملاتهم . والحطب : الوقود .

---

(١) سورة النحل ٩٠
(٢) سورة إبرهيم ٤٢ ، ٤٣
(٣) سورة الحجرات ٩
(٤) سورة الفرقان ٢٧
(٥) سورة المائدة ٨
(٦) سورة الجن ١٥

« يأيُّها الَّذينَ آمنوا كُونوا قوَّامِينَ بالقسطِ ، شُهَداءَ للهِ، وَلو علَى أنفسِكم أَو الوَالِدَيْن والأقربينَ . إنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فقيراً فاللهُ أَوْلَى بهما . فلاَ تَتَّبِعُوا الهوَى أنْ تَعْدِلوا. وإنْ تَلْوُوا أَو تُعرِضُوا فإنَّ اللهَ كانَ بمَا تعْملونَ خبيراً[1] . »

قوامين بالقسط : قائمين بالعدل ، شهداء بالحق ، ولو كانت الشهادة على أنفسكم ، فقرروا الحق ولا تكتموه. فلا تتّبعوا الهوى فى شهادتكم بأن تحابوا الغنى لرضاه ، أو الفقير رحمة به ، ولا تميلوا عن الحق . وإن تلْوُوا وتحرّفوا الشهادة أو تعرضوا عن أدائها ، فإن الله خبير بما تعملون فيجازيكم به .

فالإسلام يأمر بالعدل فى الرضا والغضب، وينهى عن الجور والظلم والطغيان.

قال عليه الصلاة والسلام : « ثلاثٌ مُنْجِياتٌ ، وثلاثٌ مُهلِكاتٌ : فأما المُنْجِياتُ فالعدلُ فى الغضَب والرِّضَا ، وخَشيَةُ اللهِ فى السِّر والعلانيةِ ، والقَصْدُ فى الغِنَى والفَقْرِ . وأما المُهْلِكاتُ : فَشُحٌّ مُطَاعٌ ، وهَوًى مُتَّبَعٌ ، وإعجابُ المرءِ بنفْسِهِ . »

وفى السنة العاشرة من الهجرة أرسل الرسول على بن أبى طالب فى بعثة إلى اليمن ، وقال له : « سِر حتى تنزلَ بساحتِهم ، فادعُهم إلى قول : لا إله إلا الله. فإن قالوا : نعم ، فمُرْهم بالصلاة ، ولا تَبغِ منهم غير ذلك . ولأَن يَهدِيَ اللهُ بك رجلا واحدا خير لك مما طلعت عليه الشمس. ولا تُقاتِلْهُمْ حتَّى يُقاتلوك . » وقال أيضاً : « إذا جلس إليك الخصمان فلا تقضِ بينهما حتى تسمعَ من الآخر ». فنفذ على وصية الرسول ، وكان مثلا للعدالة فى معاملة اليمنيين .

وقال عليه الصلاة والسلام : « اتَّقِ دعوةَ المظلومِ ، فإنها ليسَ بينَها وبَين اللهِ حِجابٌ . »

---

(١) سورة النساء ١٣٥

أى احذر دعوة المظلوم ، فلا تظلم أحداً ؛ لأن دعوته صادرة من قلب يتقد ناراً ، لا حجاب بينها و بين الله .

وقال : « إنَّ اللهَ لَيُمْلِى[1] للظالِمِ حتَّى إذا أخذَهُ لم يُفلِتْهُ[2] . » ثم قرأ صلى الله عليه وسلم : « وكذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إذا أَخذَ القُرَى وَهِىَ ظالِمَةٌ . إنَّ أَخْذَهُ أَليمٌ شديدٌ[3] . »

لقد جاهد الإسلام فى تربية النفوس على العدالة ، حتى لا يصدر حكم من الأحكام إلا وفق مقاييس دينية ، ومبادئ إنسانية تتجلى فيه خشية الله ، ولا يحس أحد بالظلم فى الحكم .

وفى المجتمع الإسلامى العادل تجد المسلم مستريح البال ، إذا أصيب بمكروه وجد من ينقذه ، وإذا ظُلم وجد من يلجأ إليه لإزالة ظلمه ، وتفريج همه ، وإعطائه حقه .

وقد سلكت الشريعة المحمدية فى تربية النفوس بوسائل من الترهيب والترغيب ، منها : قول الرسول صلى الله عليه وسلم :

« لَعمَلُ الإمامِ العادلِ فى رعيته يوماً واحداً أفضلُ مِن عملِ العابدِ فى أهله مائةَ عامٍ أو خمسين عاماً . »

وقوله : « ثلاثةٌ لا تُرَدُّ دعوتُهم : الإمامُ العادلُ ، والصائمُ حتَّى يُفطِرَ ، ودعوةُ المظلومِ تُحمَلُ على الغَمام ، وتُفتَحُ لها أبوابُ السَّماء . »

وقوله : « مَن اقتطعَ مِن امرئٍ مُسلمٍ أَوْجبَ اللهُ لهُ النارَ ، وحرَّمَ عليه الجنةَ . »

---

(١) يمهل

(٢) لم يخلصه أبدا لكثرة ظلمه .

(٣) فيه تحذير عظيم من الظلم .

فقال له رجل : يا رسولَ اللهِ ، ولو كان شيئاً يسيراً ، قال :

« ولو كان قضيباً من أراكٍ . »

والأراك شجر طويل يُستاك بقضبانه ؛ لتنظيف الأسنان .

وفى الحديث القدسى : « يا عبادى ، إنى حرَّمتُ الظُّلمَ عَلَى نفسى ، وجعلته بينكم مُحَرَّماً . فلا تَظَّالَموا . »

وقال صلى الله عليه وسلم : « الظُّلمُ ظُلُماتٌ يوم القيامة . » وقال : « لا تُفْلِحُ أمةٌ لا يُؤْخَذُ للضَّعيفِ فيها حقُّهُ من القوىِّ . »

وذات يوم سرقت فاطمة المخزومية حليًّا وقطيفة ، وكانت من قبيلة عريقة فى المجد ، هى قبيلة خالد بن الوليد . فمحافظة على كرامة أسرتها ذهب أسامة بن زيد إلى رسول الله ليشفع فيها ، ويغفر لها خطيئتها ، ولا يقيم عليها حد السرقة . وكان الرسول العادل يحب أسامة حبًّا جمًّا ، فزجر الرسول أسامة ، وقال له : « أتشفعُ فى حدٍّ من حدودِ اللهِ ؟ »

ثم قام فخطب الناس ، وقال : « إنما أهلكَ الذين من قبلِكُمْ أنهم كانوا إذا سرق الضعيفُ أقامُوا عليهِ الحدَّ ، وأيمُ(1) اللهِ لوْ أنَّ فاطمةَ بنتَ محمدٍ سرقَتْ لقطَعتُ يدَها » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « أشَدُّ الناسِ عذاباً يوم القيامةِ مَنْ أشركَهُ اللهُ فى سُلطانِهِ فجَار فى حكمِهِ . » والجَوْر هو الظلم .

وقال : « ألاَ أُنبِئُكُمْ بشِرَارِ الناسِ ؟

قالوا : بلَى ، يا رسولَ اللهِ .

قال : مَنْ نزلَ وحدَه ، ومنع رِفْدَهُ (معونته وعطاءه) ، وجلدَ عبدَه . »

---

(1) اسم وضع للقسم .

ثم قال : « أفلَا أنْبِئُكُمْ بشَرٍّ من ذلك ؟

قالوا : بلى، يا رسولَ اللهِ.

قال : « من لا يُرجَى خيرُه ، ولا يؤْمَنُ شرُّهُ . »

ثم قال : « أفلاَ أنْبِئُكُمْ بشَرٍّ من ذلك ؟

قالوا : بلى، يا رسولَ اللهِ.

قال : « منْ يُبغِضُ الناسَ ويُبغِضُونه . »

وقد سأل الإسكندر المقدونى بعض فلاسفة الهند القدامى : « لِمَ صارت سُنَنُ (شرائع) بلادكم قليلة ؟ »

قالوا : « لإعطائنا الحق من أنفسنا ، ولعدل رؤسائنا فينا . »

فسألهم : « أيهما أفضل : العدل أم الشجاعة ؟ »

قالوا : إذا استُعمِلَ العَدلُ أغنَى عن الشجاعة .

كتاب عمر بن الخطاب إلى معاوية فى العدالة:

وقد كتب عمر إلى معاوية بن أبى سفيان ذات يوم ، فقال :

« إياكَ والاحتجابَ دونَ الناسِ . وائذنْ للضعيفِ وأدنِهِ (قرّبه منك)، حتى يبسطَ لسانه، ويجترىء قلبُه . وتعهد الغريبَ ؛ فإنه إذا طال حبسُهُ ضعفَ قلبه ، وترك حقه . » ومن هذه الرسالة ترى أن عمر كان يفكر ليلا ونهاراً فى شئون الرعية . وقد حذر معاوية من البعد عن الناس ، ومن تجنبهم ، ليتصل بهم ، ويعلم أحوالهم . وأمره أن يأذن للضعيف ، ويسمح بلقائه ، ويقربه منه ، حتى يشرح له حاله ، ويتشجع قلبه ، ولا يخاف أحدا إلا الله . وكلفه أن يتعهد الغريب من المسلمين عن الأهل والوطن ، ويحافظ عليه ، ويكرمه ، فإنه إذا طال

حبسه ضعف قلبه ، وترك حقه ، ولم يطالب به ، وليس هذا من العدالة فى الإسلام .

فعمر كان يفكر دائماً فى الرعية والعدالة ، و يرسم الطريق أمام الحكام من المسلمين ، حتى ينال كل إنسان حقه ، ولا يُظلم أحد .

وكتب عمر بن الخطاب إلى أبى موسى الأشعرى ، فقال :

« أما بعد ، فإن أسعد الرعاة من سعِدت به رعيتُه . وإن أشقى الرعاة عند الله من شقِيَت به رعيتُه . وإياك أن تزيغ (تبعد عن الحق وتضل) فيزيغَ عمالُك » .

حقا لقد كان عمر أبا رحيما للمسلمين ، وحاكماً يفكر فى أمورهم ، وأباً للعيال والصغار ، حتى يرجع إليهم آباؤهم من السفر . وكان حوله رجال يعاونونه ويساعدونه فى السلم والحرب .

وقال عمر فى أواخر أيامه : «لئن عشت إن شاء الله لأسيرن فى الرعية حولا، فإنى أعلم أن للناس حوائج تقتطع دونى ، أما عمالى (حكامى الذين عينتهم) فإنهم لا يرفعونها إلىّ . وأماهم فإنهم لا يصلون إلىّ . أسير إلى الشام فأقيم بها شهرين، ثم أسير إلى الجزيرة فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى مصر فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى البحرين فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى الكوفة فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى البصرة فأقيم بها شهرين . . والله لنعم الحول هذا» .

ولكن الموت عاجله من غير أن يحقق هذا الأمل .

وإن عدالة عمر تمثل العدالة فى الإسلام ، وعدل عمر يضرب به المثل منذ أسلم إلى اليوم .

والعدل هو المثل العالى الذى يتمناه العالم ، وتتمنى كل أمة أن تصل إليه ،

وتعد نفسها سعيدة كل السعادة إذا وهبها الله حكاما عادلين ، يحبون العدل كل الحب ، و يكرهون الظلم كل الكره ، و ينظرون إلى المحكومين نظرة واحدة تتحقق فيها العدالة والمساواة ، من غير تفرقة بين الغنى والفقير ، والعظيم والحقير .
هكذا كان عمر ، لا يفرق بين شخص وآخر ، ولا يفرق فى تحقيق العدالة بين مسلم وغير مسلم .ولا عجب ؛ فالناس فى نظر الإسلام سواسية ، متساوون كأسنان المشط ، ولا فضل لأبيض على أسود إلا بالتقوى والعمل الصالح .

عدالة عمر بن الخطاب

وقد شكت سيدة مصرية عمرو بن العاص إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ؛ لأن ابن العاص قد أرغمها على بيع بيتها ، واشتراه على غير رغبتها ؛ ليصلح به المسجد ، فأمر عمر بن الخطاب عمراً بهدم المسجد ، و بناء البيت كما كان ، و إعادته إلى صاحبته ، ووقف عمر بجانب الحق ، وأرجع إلى السيدة المصرية بيتها . هذه هى العدالة فى الإسلام . وهذا هو الاحترام للحقوق الإنسانية .

وقد روى كعب بن أبىّ أن أباه وعمر بن الخطاب تقاضيا أمام زيد بن ثابت . وكان زيد قاضيا قد عينه عمر فى المدينة المنورة ليقضى بين الناس .

فلما خرج عليهما زيد بن ثابت قال لعمر : السلام عليك يا أمير المؤمنين ، ثم أشار إليهما بالجلوس . وقد احتاج الأمر أن يطلب أبىٌّ من الخليفة عمر أن يحلف اليمين .

فقال له زيد : أعف أمير المؤمنين من اليمين .

فغضب عمر ، وقال لزيد : لقد صرت جائرا منذ اليوم . كيف تحابينى

فتقول: « السلام عليك يا أمير المؤمنين. اجلس هنا ؟ » وكيف تقول : « أعف أمير المؤمنين من اليمين ؟ »

فالقاضي كان جائرا ظالماً في نظر عمر ؛ لأنه حاباه ، وعامله معاملة خاصة ، وفرق بينه وبين خصمه . ولم يرض عمر بهذه التحية ، وغضب لهذه التفرقة . فالناس في الدين الإسلامي يجب أن يكونوا متساوين أمام القضاء . لافرق بين حاكم ومحكوم . هذا هو العدل في الإسلام ، وهو روح الإسلام ، وروح (الديمقراطية) والإنسانية في أرقى العصور .

رحمك الله ياعمر ، فمن مثلك — وأنت أمير المؤمنين — يرضى أن يرفع أمره إلى قاض يحكم له أو عليه ؟

وتتجلى عدالته في محاسبته أهله على كل صغيرة وكبيرة ، وتطبيق الأحكام الإسلامية عليهم ، فقد جلد ابنه عبد الرحمن أمام الناس ؛ لأنه خالف الدين ، وارتكب ذنبا ينهى الإسلام عن ارتكابه ، جلده ثمانين جلدة ، فمات بسبب الجلد ، فكمل عليه العقوبة وهي مائة جلدة ، وهو ميت . ولم تأخذه رأفة في دين الله . ونفذ العقوبة كما أمر الله . وهكذا تكون العدالة الإسلامية يا أمير المؤمنين ، و ياخليفة المسلمين . ولو لم يكن في تاريخ عمر سوى هذا الحادث لكفاه دليلا على الإنصاف والعدالة ، ولكان له شرفا باقيا ، ونخرا خالدا .

قال عمرو بن العاص : بينا أنا في منزلي بمصر إذ أقبل عبد الرحمن بن عمر ، وأبو سروعة ، ودخلا وهما خجلان ، فقالا : أقم علينا الحد ، فإنا أصبنا البارحة شرابا وسكرنا .

قال ابن العاص : فزجرتهما وطردتهما .

فقال عبد الرحمن بن عمر : إن لم تفعل خبرت والدى إذا قدمت عليه .

قال ابن العاص : فأخرجتهما إلى صحن الدار فضربتهما الحد . ودخل عبد الرحمن فى الدار فحلق رأسه . وكانوا يحلقونه مع الحدود (العقوبات) ، ووالله ما كتبت لعمر بحرف مما كان . حتى إذا جاءنى كتابه جاءنى فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من عند عبد الله عمر إلى العاصى ابن العاص : عجبت لجرأتك على ، وخلافك عهدى ، تضرب عبد الرحمن فى بيتك ، وتحلق رأسه فى بيتك ، وقد عرفت أن هذا يخالفنى . إنما عبد الرحمن رجل من رعيتك تصنع به ما تصنع بغيره من المسلمين . ولـكن قلت هو ولد أمير المؤمنين . »

فكتب إليه عمرو بن العاص يحلف بالله أنه يقيم الحدود فى صحن داره على المسلم ، وغير المسلم . فعمر يطالب عمرو بن العاص بالمساواة فى معاملة الرعية ومعاملة ابنه كأى فرد من المسلمين . لا فرق ولا تمييز بينه وبين غيره . وهذا هو روح الإسلام . وهذه هى العدالة الإسلامية . (فالديمقراطية) فى الإسلام تنادى : الناس متساوون ، ولا فضل لأمير على خفير ، أو غنى على فقير إلا بالتقوى .

وقد كتب عمر بن الخطاب إلى أبى موسى الأشعرى : « آس[1] بين الناس فى وجهك وعدلك ومجلسك ؛ حتى لا يطمعَ شريف فى حيفك[2] ، ولا ييأس ضعيف من عدلك . »

وقد قال فى وصية له : « الناس[3] عندك سواء . لا تبال على من وجب الحق . ثم لا تأخذك فى الله لومة لائم . وإياك والمحاباة فيما ولاك الله . »

وقد شكا جندى من الجنود إلى عمر بن الخطاب أن أباموسى الأشعرى قائده قد ضربه ، وحلق شعره . فكتب عمر إلى أبى موسى القائد ما معناه : « إن

---

(١) سو بين المتقاضين

(٢) الحيف : الجور والظلم

(٣) أى اجعل الناس عندك متساوين

كنت فعلت ذلك فى ملأ من الناس فاقعدله فى ملأ من الناس حتى يقتص منك. وإن كنت فعلت ذلك فى خلاء من الناس فاقعد له فى خلاء من الناس حتى يقتص منك . »

فلما رجع الجندى برسالة عمر رجاه بعض القوم أن يعفو عن القائد رئيسه. فأقسم الجندى ألا يتركه لأحد . ثم جلس أبو موسى الأشعرى ليقتص الجندى منه . فلما رآه الجندى جالسا بين يديه ليأخذ حقه منه رفع رأسه إلى السماء ، ثم قال : اللهم إنى قد عفوت عنه .

فروح الإسلام روح العدالة والنبل والعفو والمساواة .

وذات يوم وقف بباب عمر بن الخطاب رجال من المسلمين بينهم أبو سفيان بن حرب ، وهو أعرق قريش نسبا ، وأشدهم تعاظما ، و بلال الحبشى وهو رجل كان عبدا لأبى بكر وأعتقه لإسلامه ، وصهيب الرومى ، وهو رجل رومى دخل فى الإسلام وتقدم فيه ، وسلمان الفارسى ، وهو أعجمى اتخذ الإسلام دينا له ، وترك فيه مآثر .

وقد استأذنوا للدخول على عمر ، فخرج الإذن لبلال ، ثم لصهيب ، ثم لسلمان الفارسى ، وأبو سفيان واقف . ثم أذن عمر لغيرهم ، ثم أذن لأبى سفيان فى النهاية .

فدخل أبو سفيان وهو غاضب من تقديمهم عليه فى الإذن ، فنهره عمر وزجره ، وقال له : تقدموك فى الإسلام ، فلا جَرَمَ [١] أن يتقدموك فى الإذن .

وقال إياس بن سَلَمة : مر عمر بن الخطاب فى السوق ، ومعه الدرة (السوط) ، فضربنى بها ضربة ، فأصاب طرف ثوبى ، وقال : ابتعد عن الطريق .

---

(١) هى فى الأصل بمعنى لابد .

فلما كان فى العام المقبل لقينى ، فقال : ياسَلَمة ، أتريد الحج ؟

فقلت : نعم . فأخذ بيدى ، فذهب إلى منزله ، فأعطانى ستمائة درهم ، وقال : استعن بها على حجك . واعلم أنها بالضربة التى ضربتك .

قلت : ياأمير المؤمنين ، إنى لا أذكرها .

قال عمر : وأنا ما نسيتها .

فعمر - رضى الله عنه - كان خير مهذب، يحاسب نفسه ، ويخاف الله ، ويحب النظام. ولم يسلم من درته إلا قليل من كبار الصحابة.

وفى حكاية عمر مع المرأة التى كانت تعلل صبيانها الجياع بغلى الماء فى القدر صورة أخرى من صور (الديمقراطية)الإسلامية الراقية ؛ فقد كان يطوف فى ليلة من الليالى ، ومعه أسلم . فوجد امرأة قد نصبت قدرا على النار ، وحولها صبية يبكون .

فقال عمر : السلام عليكم ياأصحاب الضوء .

فقالت المرأة : وعليك .

فقال : أأدنو (١) ؟

فقالت : أدنُ بخير أودَع (٢) .

فقال : ما بالكم ؟

قالت : قصر بنا الليلُ والبردُ .

قال : وما بال هؤلاء الصبية يصيحون ؟

---

(١) أقرب

(٢) اذهب واترك

قالت : الجوع .

قال : وأى شىء فى هذه القدر ؟

قالت : ماء أُسكِتهم به حتى يناموا . الله بيننا و بين عمر .

قال : أى ، رحمكِ الله. وما يدرى عمرَ بكم ؟

فقالت : يتولى أمورَنا و يغفلُ عنا .

قال أسلم : فأقبل علىّ وقال : انطلق بنا .

فخرجنا نُهرول (١) حتى أتينا دار الدقيق ، فأخرج عدلا (أى كيلا) فيه دقيق وقطعة من الشحم . فقال : احمله علىّ .

فقلت : أنا أحمله عنك .

قال : احمله علىّ ، مرتين أو ثلاثا .

وأنا أقول فى كل ذلك : أنا أحمله عنك ياأمير المؤمنين .

فقال فى آخر ذلك : أ أنت تحمل عنى ذنبى يوم القيامة ؟

فحملته عليه، فانطلق وانطلقت معه نُهرول، حتى انتهينا إلى المرأة، فألقى ذلك عندها ، وأخرج من الدقيق شيئا ، وجعل يقول : ذُرى علىّ. وأنا أحرك لك. وجعل ينفخ تحت القدر ، حتى أنضج الطعام ، وقال للمرأة : أحضرى وعاء ، فأتته بقصعة فأفرغ فيها الطعام ، ثم قال لها : أطعميهم وأنا أساعدك . فلم يزل يفعل ذلك حتى شبعوا ، ثم ترك عندها البقية .

فقالت له المرأة : أنت أولى بهذا الأمر من أمير المؤمنين .

فقال لها : قولى خيرا . إنك إذا جئت أمير المؤمنين وجدتنى هناك إن شاء الله .

---

(١) نسرع

ولم يخرج حتى رأى الصبية يلعبون و يضحكون .

فقام وهو يحمد الله ، ورتب للمرأة شيئاً من أموال المسلمين .

إنه لا يفعل ذلك إلا عظيم ذونفس كبيرة ، هى نفس عمر العظيم . الذى أحبه الناس وخافوه ، أحبوه لعدله وتواضعه و (ديمقراطيته) ، وخافوه لقوته فى الحق .

عدالة الإمام على كرم الله وجهه :

قال الإمام على كرم الله وجهه :

أحوج الرعية إلى الإنصاف الطبقةُ السفلَى وعامة الأمةِ.

عامةُ الأمةِ هم عمادُها وعدتُها ، والخاصة أثقل مؤونة ، وأقلُّ معونة .

من ظلمَ عبادَ الله كان اللهُ خصمهُ دون عبادِه . وليس شىء أدعَى إلى تغيير نعمة اللهِ ، وتعجيلِ نقمتِه من إقامةٍ على ظلم، فإن الله سميع دعوة المضطهدين، وهو للظالمين بالمرصاد .

ولا يكونن[1] المحسنُ والمسىء عندك بمنزلة سواء ؛ فإن فى ذلك تزهيداً لأهل الإحسان فى الإحسان ، وتدريباً لأهل الإساءة على الإساءة ... ثم اللهَ اللهَ فى الطبقة السُّفلى من الذين لا حيلةَ لهم من المساكين والمحتاجين ، وأهل البؤس والزَّمْنَى[2] ؛ فإن فى هذه الطبقة قانعا[3] ومُعترّا[4] ، واحفظ لله ما استحفَظك[5] من حقّه فيهم . واجعل لهم قسما من بيت مالك ، وقسما من غلاتِ صَوافى الإسلام فى كل بلد .

(١) من عهده إلى مالك بن الحارث بن الأشتر النخعى .
(٢) جمع زمين وهو المصاب بعاهة . (٣) سائلا
(٤) متعرضاً للعطاء بلا سؤال .
(٥) طلب منك حفظه .

قال كرم الله وجهه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول فى غير موطن : « لن تُقدَّسَ أمّةٌ لا يُؤخذُ للضعيفِ فيها حقُّه من القوىِّ غيرَ مُتَتَعتِع (١) . » أى غير خائف .

وقد كتب على كرم الله وجهه إلى أمرائه على الجيوش :

« أما بعد ، فإن حقًّا على الوالى ألا يغيرَه على رعيته فضل ناله ، ولا طَوْلٌ خُصَّ به ، وأن يزيدَه ما قسم الله له من نعمه دُنوًّا من عباده ، وعطفاً على إخوانه . . . . ألاَ وإن لكم عندى ألا أؤخرَ لكم حقا عن محله ، وأن تكونوا عندى فى الحق سواء . فإذا فعلت ذلك وَجَبَت لله عليكم النعمة ، ولى عليكم الطاعة . »

فانظر كيف يعاملُ علىٌّ رعيته ، وكيف يعدل بينهم ، وينظر إليهم نظرة واحدة ، وكيف يمنحهم حقوقهم ، والكل عنده فى الحق سواء . فهل سمعتم عدلا كهذا العدل ، أو مساواة كهذه المساواة فى الإسلام ؟

وقد حدث أن عليا — كرم الله وجهه — تخاصم فى مجلس عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — مع رجل يهودى ، فقال عمر : اجلس يا أبا الحسن . فرأى عمر فى وجه سيدنا على شيئا من الغضب .

فقال عمر : أكرهت أن يخاصمك رجل يهودى ؟

فقال على : لا يا أمير المؤمنين ، ولكنى كرهت تفضيلك لى على خصمى بأن كَنَّيتَنى . (أى قلت لى يا أبا الحسن (٢)) .

فأنت ترى أن سيدنا عليا — كرم الله وجهه — يريد العدالة والمساواة حتى فى النداء بالاسم والكنية .

---

(١) التتعتع : التردد فى الكلام من عجز وعى .
(٢) فى الكنية تعظيم عند العرب .

وقد كان عمر بن الخطاب يكره أشد الكره (الأرستقراطية)، ويسخر من الامتيازات التي كان الأشراف من العرب يدعونها .

عدالة المأمون :

وقد جلس المأمون يوماً للمظالم . وفي الوقت الذي هَمَّ فيه بالقيام تقدَّمت إليه امرأة عليها هيئة السفر ، وعليها ثياب رثة . فوقفت بين يديه ، فقالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله و بركاته .

فنظر المأمون إلى يحيى بن أكثم .

فقال لها يحيى : وعليك السلام يا أمة الله . تكلمي في حاجتك . فقالت :

يا خير منتصف يهدى له الرُّشَدُ[1] ويا إماماً به قد أشرق البلدُ

تشكو إليك عميدَ القوم أرملةٌ عدا[2] عليها ، فلم يُترَكْ لها سَبَدُ[3]

وابتزَّ منِّي ضياعي بعد منعتها ظلماً ، وفرَّق منِّي الأهل والولدُ

فأطرق المأمون حيناً ، ثم رفع رأسه إليها وهو يقول :

في دون ما قلتِ زال الصبرُ والجَلَدُ عنِّي ، وقرح منِّي القلب والكبدُ

هذا أذانُ صلاة العصر ، فانصرفي وأحضري الخصم في اليوم الذي أَعِدُ

والمجلس السبتُ ، إن يقضَ الجلوس لنا نُنصِفْكِ منه ، وإلا المجلس الأحد

فلما كان يوم الأحد جلس ، فكان أول من تقدم إليه تلك المرأة .

فقالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته .

فقال : وعليك السلام . أين الخصم ؟

---

(١) الرُّشْد والرشَد : ضد الغي

(٢) ظلمها

(٣) يقال ماله سبَد ولا لبَد بفتح الباء فيهما أي قليل ولا كثير.

فقالت : الواقف على رأسك يا أمير المؤمنين ، وأشارت إلى العباس ابنه .

فقال : يا أحمد بن أبى خالد خذ بيده ، فأجلسه معها مجلس الخصوم ، فجعل كلامها يعلو كلام العباس .

فقال لها أحمد بن أبى خالد : ياأمة الله ، إنك بين يدى أميرالمؤمنين ، و إنك تكلمين الأمير ، فاخفضى صوتك .

فقال المأمون : دعها يا أحمد ؛ فإن الحق أنطقها وأخرسه . ثم قضى لها برد ضيعتها . و إحسان معاملتها .

وعاقب العباس لظلمه لها . وأمر بأن يكتب لها إلى العامل ببلدها ليجمل لها ضيعتها من غير خراج ، و يحسن معاونتها ، وأمرلها بنفقة .

وهذا مثل من أمثلة (الديمقراطية) والمساواة والعدالة فى الإسلام .

وقال عمر بن عبد العزيز : إذا أتاك الخصم وقد فقئت عينه ، فلا تحكم له حتى يأتى خصمه ؛ فلعله قد فقئت عيناه جميعاً .

على هذا النسق من العدالة بين المسلمين كان النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه من بعده ، لم تأخذهم فى الحق لومة لائم ، ولم يحابوا إنسانا ، ولم يرهبوا أحداً ، ولم يزدروا حقيرا ، ولم يظلموا مخلوقا .

وقد وصف المرحوم أحمد شوقى فى همزيته فى مدح الرسول روح الإسلام و (الديمقراطية) والعدالة والمساواة فى قصيدته ، فقال :

داء الجماعة من أرِسْطاليسَ لم ... يوصَفْ له حتَّى أتيتَ دواء

فرسمتَ بعدَكَ للعباد حكومة ... لا سوقةٌ فيها ولا أمراء

اللهُ فوقَ الخلقِ فيها وحده ... والناسُ تحتَ لوائها أكفاء

والدينُ يُسرٌ والخلافةُ بيعةٌ ... والأمرُ شورَى والحقوق قضاء

والبِرُّ عندك ذمةٌ وفريضةٌ ... لا مِنَّةٌ ممنونةٌ وحِباء[1]

(١) حباه: أعطاه . والحباء : العطاء.

أنصفتَ أهلَ الفقرِ من أهلِ الغِنَى فالـكلُّ فى حقِّ الحياةِ سواء
فلو انّ إنساناً تخيّرَ مِـــلةً ما اختـارَ إلا دينَكَ الفقراء

قال المرحوم الإمام الشيخ محمد عبده فى كتابه : المسلمون والإسلام صفحة ١٤٦ : نداء إلى المسلمين :

« فيأيتها الأمة ، هذه حياتكم فاحفظوها ، ودماؤكم فلا تريقوها ، وأرواحكم فلا تزهقوها ، وسعادتكم فلا تبيعوها بثمن دون الموت . هذه هى روابطكم الدينية لاتغرنكم الوساوس ، ولا تستهوينكم الترهات ، ولاتدهشكم زخارف الباطل ، ارفعوا غطاء الوهم عن باصرة الفهم ، واعتصموا بحبال الرابطة الدينية التى هى أحكم رابطة اجتمع فيها العربى بالتركى ، والفارسى بالهندى ، والمصرى بالمغربى ، وقامت لهم مقام رابطة النسب ، حتى إن الرجل منهم ليألم لمايصيب أخاه من عاديات الدهر ، و إن تناءت دياره ، وتقاصت أقطاره » .

«هذه صلة من أمتن الصلات ساقها الله إليكم ، وفيها عزتكم ومنعتكم وسلطانكم وسيادتكم، فلاتوهنوها.. ولكن عليكم فى رعايتها أن تخضعوا لسطوة العدل ؛ فالعدل أساس الكون،و به قوامه . ولانجاح لقوم يزدرون العدل بينهم . وعليكم أن تتقوا الله وتلزموا أوامره فى حفظ الذمم،وتأدية الحقوق لأربابها، وحسن المعاملة ، و إحكام الألفة فى المنافع الوطنية بينكم و بين أبناء أوطانكم ، وجيرانكم من أرباب الأديان المختلفة . . فإن مصالحكم لا تقوم إلا بمصالحهم ، كما لا تقوم مصالحهم إلا بمصالحكم . وعليكم ألا تجعلوا عصبية الدين وسيلة للعدوان، وذريعة لانتهاك الحقوق،فإن دينكم ينهاكم عن ذلك، و يوعدكم عليه بأشد العقاب. ولاتجعلوا عصبيتكم مقصورة على مجرد ميل بعضكم لبعض ، بل تضافروابها على مباراة

الأمم فى القوة والمنعة والشوكة والسلطان ، ومنافستهم فى اكتساب العلوم النافعة ، والفضائل والكمالات الإنسانية ، اجعلوا عصبيتكم سبيلا لتوحيد كلمتكم ، واجتماع شملكم ، وأخذ كل منكم بيد أخيه ، ليرفعه من هوة النقص إلى ذروة الكمال .

« وتَعاونوا علَى البرِّ والتقوَى ، ولاتعَاونوا على الإثم ِ والعُـدوانِ » .

الفصل الثامن

الإسلام دين المساواة

المساواة شعار إسلامى :

إن المساواة شعار من أكبر الشعائر الإسلامية . فالإسلام لايفرق بين شخص وآخر فى المعاملة والخضوع للقانون . وليس فى الإسلام فرد فوق القانون ، مهما تكن منزلته ودرجته من السمو والرفعة . والخليفة وأمير المؤمنين والوالى وكل فرد من المسلمين متساوون فى شئونهم المدنية والجنائية والقانونية . لا يمتاز أحدمنهم بحكم معين ، ولا بطرق خاصة للمحاكمة ، بل جميعهم أمام القانون الإسلامى سواء .

فالإسلام لايميز شخصاً عن آخر فى التمتع بالحقوق . وليس فى الإسلام امتيازات خاصة لأسرة معينة . وجميع المناصب والمراكز فى الدولة الإسلامية حق مشاع بين أفراد الأمة ، لايحول بينهم وبينها نسب أو عصبية ، أو لون أو عنصرية . يؤيد هذا قول الرسول العادل العظيم :

« الناس سواسية كأسنان المشط . ولافضل لعربى على عجمى إلاّ بالتقوى . »

وقوله صلى الله عليه وسلم فى رواية أخرى :

« الناس سواسية كأسنان المشط . لافضل لأحمر على أسود ، ولا لعربى على عجمى . » « ليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى » .

وقوله عليه الصلاة والسلام لبنى هاشم :

« يابنى هاشم ، لايجيئنى الناس بالأعمال ، وتجيئونى بالأنساب . إن أكرمكم عند الله أتقاكم . »

وقد نادى الإسلام بحق المساواة بين الناس ؛ لأنهم مخلوقون من أصل واحد .

قال تعالى : « يأَيها الناسُ إنَّا خَلَقنا كُمْ مِنْ ذَكَرٍ وأُنثَى ، وَجَعَلْنا كُمْ شُعوباً وَقَبَائِلَ لِتَعارَفوا ؛ إنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتقاكُمْ . » .

ولم تعترف أوروبة بحق المساواة إلا بعد الثورة الفرنسية .

ويؤخذ من هذه الآية الكريمة والأحاديث السابقة أن الإسلام دين المساواة والأخوّة والإخاء ، دين ينادى بأن يحترم الناس بعضهم بعضا ، وتبنى معاملاتهم على المساواة ، ويكون التفاضل بينهم لا بالحسب والنسب ، والمال والجاه ، وإنما بالكمال الخلقى ، والكمال العملى والعلمى .

وإن الصلة الدينية صلة وثيقة ، ورابطة متينة ، لاتقل فى وثاقتها عن رابطة الدم وصلة النسب . وإذ تقرر هذا ، فقد صار المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها إخوة فى الدين ، فلا سيد ولامسود ، ولافاضل ولامفضول ، إلا بالأخلاق الكريمة ، والأعمال الصالحة . فنظام الطوائف فى الإسلام مرفوض ، والتعالى على الناس مردود ، والتواضع منهم جميعاً مطلوب . فصلة المسلم بأخيه المسلم صلة أخوة ، والجميع متساوون ، ينتسبون إلى الأب الأول آدم ، والأم الأولى حواء ، يشتركون فى هذه النسبة على قدم المساواة .

وإذا كان آدم من تراب وهو أبوهم وأصلهم جميعا — فلا معنى للتعالى ، ولامجال للتسامى . ومن المبادئ الإسلامية : ليس شعب خيرا من شعب ، ولافرد خيرا من فرد إلا بطاعة الله وتقواه .

ولتقوية معنى الأخوّة فى النفوس ، وتقرير المساواة بين الناس قال صلى الله عليه وسلم :

« المسلمون تتكافأ دماؤهم ، » أى تتساوى دماؤهم .

المساواة بين الأفراد فى الإسلام :

إن الإسلام دين المساواة ، دين العدالة ، دين لا يفضل فيه أحد على آخر إلا بالعمل الصالح والتقوى ، دين لا يميز جنسا من الأجناس ، أو طبقة من الطبقات ، أو سلالة من السلالات ، دين يدعو إلى المساواة بين الأفراد . وقد أرسل المصطفى صلى الله عليه وسلم إلى الناس جميعا ، من غير تفرقة بينهم .

قال جل شأنه : « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ . »

وقد سمع رسول الله أبا ذر الغفارى يقول : « يا ابنَ السوداء » فغضب وقال : « طف الصاع[1] . طف الصاع . ليس لابنِ البيضاء عَلَى ابن السوداء فضلٌ إلا بالتَّقوَى أو بعملٍ صالحٍ . »

وقال عليه الصلاة والسلام : « أيها الناسُ ، إنَّ اللهَ أذهبَ عنكم نَخْوةَ[2] الجاهليةِ ، وفخرَها بالآباء . كلُّكم لآدمَ ، وآدمُ من تراب ، ليسَ لعربيٍّ عَلَى عجميٍّ فضلٌ إلا بالتَّقوى . »

وفى صلاة الجماعة يقف الفقير بجانب الغنى ، والخادم بجانب سيده فى صف واحد ، لا فضل لأحد على آخر . وقد يكون الفقير أو الخادم أعلى منزلة عند

---

(١) فى الحديث : « كلكم بنو آدم طفُّ الصاع لم تملئوه . » وهو أن يقرب أن يمتلىء فلا يفعل

(٢) النخوة : الكبر والعظمة والافتخار .

الله إذا كان صالحا تقيا . ففى الإسلام لا عبرة بنسب أو حسب ، ولـكن العبرة بالعمل الصالح والتقوى :

فالإسلام دين مساواة فى جوهره وروحه . ولهذا وجهت دعوة الرسول إلى الناس جميعا، فى الشرق والغرب .

ولـكى تتحقق المساواة وتزول التفرقة العنصرية اختار الرسول العادل موالى وعبيدا رفعهم من الحضيض إلى أسمى المراكز ، منهم زيد بن ثابت ؛ فقد كان عبدا الرسول ، ثم أعتقه ، وجعله قائدا للجيش فى غزوة مؤتة .

لا تفاوت بين الناس فى الإسلام إلا بالعمل الصالح :

لقد قرر الإسلام أن الدين لله وحده ، وأنه لا سيادة لإنسان على أخيه الإنسان ، وأن الناس أمام الله سواسية ، لا يتفاوتون إلا بأعمالهم .

«فمن يَعملْ مِثقالَ ذَرَّة خَيرًا يَرَهُ،ومَن يَعملْ مِثقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ[1] .»

وفى الحديث الشريف : « لا يُؤْمِنُ أحَدُكُم حتَّى يُحبَّ لأخيـه ما يُحبُّ لنَفْسِهِ . »

وقد سئل الرسول الـكريم : أىُّ الإسلام خَيْرٌ ؟

فقال : « تُطْعِمُ الطَّعامَ ، وتقرَأُ السلامَ عَلَى مَن عَرفْتَ ومَن لم تَعرِفْ . »

فالإسلام يدعو إلى الإخاء ، ومحبة الناس ، والعطف على الفقراء ، وإطعام المحتاجين ، وقراءة السلام على الناس أجمعين .

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول لمن معه : « لا تُطْرونِى كما أَطْرَتِ النَّصَارَى ابنَ مَريمَ ، إنما أنا عبدُ اللهِ ، فقولوا عبد اللهِ ورَسولَه . »

---

(١) سورة الزلزلة : ٧ ، ٨ .

لأنه لديمقراطيته وتواضعه ينهى عن مدحه وتعظيمه والثناء عليه ، ويقول : أنا عبد الله .

وذات يوم خرج الرسول متوكئاً على عصاً ، فقام له أصحابه ، فقال : « لا تقوموا كما تقومُ الأعاجمُ ، يُعظِّمُ بعضُهم بعضاً . »

ولهذا كان أصحابه متمسكين بالروح (الديمقراطي)والمساواة ، محبين للتواضع ، محتقرين للتعاظم .

وكان صلى الله عليه وسلم يجلس حيث انتهى به المجلس ، ويختلط بأصحابه ، ويتكلم معهم ، ويداعب أبناءهم ، ويجلسهم في حجره . ولا يرفض دعوة العبد والأمة والمسكين . وكان يزور المرضى ، ويبدأ بمصافحة أصحابه ، ويخدم نفسه وهو في بيته ، ويأكل مع الخادم . وهذا هو المثل السامي للديمقراطية الإسلامية .

وقد وافق الرسول العظيم على أن يحكم جماعة من العجم العربَ ، فسلمان الفارسي كان من المقربين عند رسول اللهَ ، وبازان الفارسي كان حاكما لليمن بموافقة الرسول . فالتفاوت بين الناس في الإسلام كان بالأعمال الصالحة ، لا بالقبيلة والجاه ، والجنسية والعروبة وكثرة المال .

وكان صلى الله عليه وسلم مرة في سفر مع جماعة ، فلما حان موعد الطعام ، عزموا على إعداد شاة يأكلونها ، فقال أحدهم : عليّ ذبحها ، وقال الآخر : عليّ سلخها ، وقال الثالث : عليّ طبخها ، فقال الرسول : وعليّ جمع الحطب . فقالوا : يارسول الله ، نحن نكفيك العمل ، فقال : « علمت أنكم تكفونني ، ولكني أكره أن أتميز عليكم . وإن الله سبحانه وتعالى يكره من عبده أن يراه مميزا بين أصحابه . »

وكان أبو بكر رضى الله عنه يراعي المساواة في تقسيم ما في بيت المال على

الرعية من غير تفرقة بين الحر والعبد ، والذكر والأنثى ، والسابق فى الإسلام وغيره . وقد قيل له : لتقدم أهل السبق على قدر منازلهم .

فقال : إنما أسلموا لله ، فأجرهم على الله ، يوفّيهم ذلك فى الآخرة .

و بهذا راعى أبو بكر الروح (الديمقراطى) فى حكمه ، قبل أن يفكر فيه الاشتراكيون فى القرن العشرين .

وقد وجّه عمر بن الخطاب سعدَ بن أبى وقاص لحرب العراق وقال له :

« يا سعد ، لا يَغرّنَّك [1] من الله أن قيل خالُ رسول الله ، وصاحب رسول الله . فإن الله عز وجل لا يمحو [2] السيىء بالسيىء ، و لكنه يمحو السيىء بالحسَن . فإن الله ليس بينه و بين أحد نسب إلا طاعته . والناس شريفهم ووضيعهم فى ذات الله سواء . الله ربهم . وهم عباده ، يتفاضلون بالعافية ، و يدركون ما عنده بالطاعة » .

فما أجمل هذه النصيحة التى يدعو فيها عمر حاكم العراق إلى الإحسان ، و إطاعة الله ، والمساواة بين الناس فى المعاملة والحقوق ، من غير تفرقة بين شريف ووضيع ، وغنى وفقير ، وأبيض وأسود .

وقد خرج عمر ذات ليلة يطوف بنفسه ليرى أحوال الرعية ، حين يسكن الناس ، و يدلفون إلى بيوتهم ، و يهجعون فى مضاجعهم ، فرأى فى بعض البيوت ضوء مصباح ، وسمع حديثا تنقله نسمات الهواء البارد ، فوقف على الباب يتسمع تسمع الراعى الذى يسعى إلى إرضاء الرعية ، و إشاعة العدل بين الناس ، وأخذهم بسلطان الدين ، فرأى عبداً أسود أمامه إناء مملوء بالشراب ، وهو يشرب ، ومعه جماعة من أصحابه يشاركونه فى الشراب ، فحاول الدخول من الباب ، ولكنه

---

(١) لا يخدعنك (٢) لا يزيل

كان موصداً ، فتسور حائط البيت ، ونزل إلى فناء الدار ومعه السوط ، فلما رآه الجمع أسرعوا إلى فتح الباب ، وولوا هاربين ، ولكن عمر أمسك بالعبد صاحب البيت .

فقال له العبد : يا أمير المؤمنين ، قد أخطأت فيما فعلت ، وإنى أتوب إلى الله ، ولن أعود إلى مثل ما فعلت ، فاقبل توبتى .

فقال عمر : أريد أن أضربك جزاء على خطيئتك .

فقال العبد : يا أمير المؤمنين ، إن كنت قد أخطأت فى واحدة فقد أخطأت يا عمر فى ثلاث : فإن الله تعالى يقول : « وَلاَ تَجَسَّسُوا » وأنت قد تجسست .

ويقول تعالى : « وَأْتُوا البُيُوتَ من أبوابها . » وأنت قد تسورت الحائط وأتيت من السطح .

ويقول تعالى : « يأيها الذينَ آمَنوا لا تَدخُلوا بُيوتاً غيْرَ بُيوتِكُمْ حتَّى تَسْتأْنِسُوا[1] وتُسَلِّمُوا عَلى أهلِها . » وأنت قد دخلت ولم تسلم . فهب هذه لتلك وأنا تائب إلى الله تعالى ، وعازم على ألا أعود .

فاستحسن عمر قوله ، وسأله أن يتوب فى إخلاص ، ثم عفا عنه . وفى هذه الحكاية تتجلى (ديمقراطية) عمر فى حديثه مع العبد ، واستحسان ما أبداه من الدفاع عن نفسه . ولما كانت التوبة عملا باطنيا فقد سأله عمر أن يخلص فيها .

مبدأ المساواة روح الإسلام :

لا يشك أحد فى أن المساواة روح الإسلام وجوهره . انظر إلى حادثة جَبَلة[2]

---

(١) حتى تستأذنوا

(٢) هو آخر ملك من ملوك بنى غسان ، وقد كانوا عربا تابعين لدولة الروم .

ابن الأيهم ملك غسان ، والبدوى الفزارى الذى داس على إزاره . فقد أسلم جَبَلة فى خلافة عمر بن الخطاب · وقد بَدَا لجبلة أن ينضوى إلى العرب ، أبناء قومه ، ويتخلى عن ملكه المهدد فى ظل الدولة البيزنطية الذى أوشك أن ينحسر من حوله .

فسر عمر بن الخطاب . وكتب إليه أن أقدم ، ولك مالنا ، وعليك ماعلينا . فقدم جبلة إلى الحجاز ، ومعه خمسمائة فارس ، عليهم ثياب الوشى المنسوج بالذهب والفضة وكان فتحا للمسلمين بغير عناء .

وحضر جبلة موسم الحج ، وخرج يطوف بالكعبة ، فداس على إزاره رجل من بنى فَزارة ، فلطم جَبَلَةُ الفزارىّ على وجهه لطمة شديدة ، فهشم أنفه . وذهب الفزارى إلى عمر ليأخذ له حقه ممن اعتدى عليه .

فبعث الخليفة إلى المعتدى وهو جَبَلة ملك غسان ، فسأله . ما الذى دعاك ياجبلة إلى أن لطمت أخاك فهشمت أنفسه ؟

فاستمع الملك إلى السؤال وهو يعجب ، وقد خطر له أنه ترفق بالبدوى ، وأشفق عليه ، وقال : لولا حرمة البيت لقتلته .

قال عمر : إنك قد أقررت ، فإما أن ترضيه ، وإلا اقتصصت له منك . فدهش جبلة وقال : تقتص له منى ، تقتص له منى وأنا ملك ، وهو من السوقة ؟

قال عمر : إن الإسلام قد سوى بينكما .

قال الملك : إنى رجوت أن أكون فى الإسلام أعزمنى فى الجاهلية .

فمازاد عمر على أن قال : الإسلام قد سوى بينكما .

قال جبلة : إذن أتنصر .

قال عمر : إذن أضرب عنقك .

وتصاول قوم جبلة و بنوفَزارة ، وكادت تكون فتنة .

فقال جبلة : أجِّلنى إلى غد .

فوافق عمر ، وأرجأ الأمر إلى غد .

وخرج جبلة من المدينة هارباً تحت سواد الليل . وفى الصباح ذهب إلى قيصر ملك الروم وارتد ، ثم ندم ، وقال هذه الأبيات :

تنصرت الأشراف من عار لطمة ... وما كان فيها ـ لو صبرت لها ـ ضرر

تكنفنى منها لَجاج[١] ونخوة[٢] ... فبعت بها العين الصحيحة[٣] بالعور

فياليت أمى لم تلدنى ، وليتنى ... رجعت إلى الأمر الذى قاله عمر

ويا ليتنى أرعى المخاض[٤] بقفرة ... وكنت أسيرا فى ربيعة أو مضر

ويا ليت لى بالشام أدنى معيشة ... أجالس قومى ذاهب السمع والبصر

ولما تنصر جبلة ولحق بهرقل صاحب القسطنطينية — أقطعه هرقل الأموال والضياع ، و بقى ما شاء الله .

هذه هى (الديمقراطية) الإسلامية ، وهذه هى المساواة فى الإسلام ؛ لأنه يسوى بين الملك والسوقة فى الجزاء والأحكام ، ويأخذ للمظلوم حقه من الظالم .

الروح الديمقراطى والمساواة فى الإسلام :

وقد استمر الروح الديمقراطى فى الإسلام قويا حتى فى أشد الأيام التى كان الفرد حكما فيها ؛ فقد اختصم المأمون — وهو خليفة — مع رجل بين يدى

---

(١) استمرار فى الخصومة

(٢) كبر وعظمة وافتخار

(٣) الإسلام

(٤) الحوامل من النوق

يحيى بن أكثم القاضى ، ودخل المأمون إلى مجلس يحيي القاضى ، وخلفه خادم يحمل طِنْفِسَة[1] ليجلس عليها الخليفة المأمون ، فرفض القاضى يحيى ذلك ، وقال للمأمون : يا أمير المؤمنين ، لاتأخذ على صاحبك شرف المجلس دونه .

فاستحيا المأمون ، ودعا للرجل بطِنْفِسة مثله .

فانظر مافعله القاضى مع الخليفة ، مع أنه قد كان فى استطاعة الخليفة أن يعزله ، ويبعده من القضاء . ومع هذا كله قد قام القاضى المسلم بواجبه خير قيام ، ولفت نظر المأمون وهو أمير المؤمنين إلى روح المساواة أمام القانون ، وأمام القضاء .

هذه هى (الديمقراطية) الحقة ، وهى روح الإسلام ، فى حين أن أوروبة الحديثة قد جعلت الملوك فوق القانون ، وقالت إن ذواتهم لاتمس ، وجعلتهم فوق القانون .

وقد كانت (الديمقراطية) الإسلامية من أهم الأسباب التى ساعدت عمراً ابن العاص فى فتح مصر ؛ فقد قيل إن المقوقس صاحب مصر أرسل إلى عمرو رسولا ، فخالط جيش المسلمين ، فلم يجد فيه سيدا ولا مسودا ، بل الكل سواسية ، فرجع وأخبر المقوقس بما رأى ، وما سمع . وكان المقوقس فطنا ذكيا ، عالما بأخلاق الأمم ، فنصح لقومه أن يصالحوا المسلمين ، فصالحوهم ، ودخل العرب مصر بالمساواة والمبادئ التى بثها الإسلام فى قلوبهم .

ومما يدل على المساواة فى الإسلام أن الذمى[2] ، كان له ما للمسلم من الحقوق . ولكى ترى كيف كانت المساواة الحقة ، والعدالة المطلقة فى الإسلام أروى لك القصة الآتية :

لقد حدث أن أحد أعيان الفرس — وكان ذميا — كانت له ضيعة تلاصق

---

(١) بكسرتين ، وفى لغة بفتحتين : وهى بساط له خَمْل رقيق ، والجمع طنافس .
(٢) الذِّمَّة : العهد ، والذمىّ : المعاهد ، نسبة إلى الذمة .

أرضا يملكها حاكم مسلم كان واليا لعمر بن الخطاب . فرأى هذا الحاكم أن يغتصب من هذا الدِّهقانِ — وهو الفارسى الغنى — ضيعته .

فشكا إليه الفارسى ذلك الاغتصاب ، فزجره الحاكم وأهانه.

فأشارت عليه زوجه أن يشكوه إلى عمر بن الخطاب ، ففعل ، وسافر إلى المدينة المنورة ، وسأل عن بيت عمر فأرشد إليه فذهب ، فوجد عمر العظيم جالسا على عباءة ممزقة .

فشكا إليه الذمىُّ الفارسىُّ ما لقيه من معاملة الحاكم ، واغتصابه أرضه . فطالب عمر صحيفة ، وكتب فيها رسالة موجزة ، وأراد خيطا ليلفها به ، فلم يجد ، فمزق قطعة من عباءته ، ولف بها الصحيفة ، وأعطاها الرجل ، فأخذها ، وسافر بها إلى بلده.

وقد أبدى أسفه إلى زوجه ؛ لأنه ذهب إلى رجل فقير لا يملك خيطا يربط به صحيفته ، ويجلس على عباءة قديمة ممزقة . فكيف يستطيع هذا الفقير أن يجبر الحاكم على تنفيذ أمره ، ورد الضيعة إلى صاحبها ؟

فقالت زوجه : وما عليك ؟ احمل الصحيفة إليه ، ثم انتظر النتيجة .

فحملها ، وسلمها إلى الحاكم. فلما فضَّها وفتحها ، وقرأها تصبَّب عرقا، وقال للذمِّى : ماذا فعلت ؟ اذهب فى الحال ، وخذ ضيعتك .

وهنا يحدث الذمى الفارسى فيقول : قرأت الصحيفة ، فإذا فيها : « أنصف فلانا الدِّهقانَ [1] من نفسك ، وإلا فأقبِل . والسلام . »

هذا روح الإسلام ، روح (الديمقراطية) ، التى لا نظير لها فى أى أمة من أمم العالم الحديث أو القديم .

---

(١) الدهقان بالكسر والضم : القوى على التصرف مع حدَّة ، والتاجر ، وزعيم فلاحى العجم ، وجمعه دهاقنة ودهاقين .

وإن هذا الروح ، روح المساواة لا نجده الآن فى أرقى أمة من أمم العالم ، ولكننا نجده فى الإسلام ، فى شريعة محمد عليه الصلاة والسلام .

المســـاواة فى الحقوق المدنية والسياسية :

قال جل شأنه : « إنَّما المؤمنون إخوةٌ . » والإخوةُ فى الإسلام متضامنون، متساوون فى الحقوق والواجبات . وقال عمر رضى الله عنه : « أمير المؤمنين، أخو المؤمنين . فإن لم يكن أخا للمؤمنين فهو عدو للمؤمنين . »

فالإسلام قد كفل المساواة للأفراد فى الحقوق المدنية والسياسية . وجعل الخدم مساوين لمخدوميهم ، وطالب بحسن معاملتهم ، والعطف عليهم ، قال صلى الله عليه وسلم : « إخوانكم خدمكم »

وهناك نصوص كثيرة من الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية تقرر المساواة بين المسلمين ، وتجعلها شعارا من أعظم شعائر الإسلام ، ذكرناها فى فصلى الديمقراطية الإسلامية ، والعدالة فى الإسلام .

فالإسلام دين العدل والمساواة ، ولن يتحقق الوئام بين الناس إلا إذا أحسوا جميعا أنهم كلهم لآدم ، وآدم من تراب ، فإن هذا يزيد من إقبال الفقير على الغنى ، وتعاون الضعيف مع القوى ، فتزول العداوة والبغضاء ، ويحل السلام والوئام محل النزاع والخصام ، وتطهر النفوس ، وتطمئن القلوب ، بفضل شريعة الإسلام .

الإنسانية الإسلامية فى معاملة الخدم

مثل واضح للمساواة

النبى محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الرسل ، وشريعته أكمل الشرائع ، اصطفاه الله تعالى و بعثه بها على حين بلغت الإنسانية نصيبا وافرا من السمو العقلى ، والرقى الفكرى ، فجاءت رسالته جامعة لكل ما ينفع الناس فى معاشهم، ويضمن لهم السعادة فى معادهم .

والإسلام دين اجتماعى ، عنى بالجماعة ومقوماتها ، وحرص على تعاونها وتآزرها . يقول الرسول صلوات الله عليه وسلامه : « ترى المؤمنين ــ فى تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم ــ كمثل الجسد ، إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمّى » . كما اهتم بالفرد وصلاحيته ، وأنار له الطريق المستقيم فى سلوكه وأدبه . وما كان للإسلام ــ وتلك عنايته ببناء المجتمع المثالى ــ أن يهمل شأن طائفة من أهم طوائفه ، طائفة كادحة عاملة لا غنى لمجتمع عنها ، تلك هى طائفة الخدم ، بل التفت إليها ، وأولاها ما هى جديرة به من عطف ورعاية .

فالإسلام ــ كما نعهده ــ دين الإخاء والمساواة جميعا ، وقد طبق هذا القانون فى سماحة ورفق على الخدم ، فجعلهم إخوانا لنا ، إذ يحسون كما نحس ، و يتألمون كما نتألم ، ويفرحون كما نفرح ، لا فرق بيننا و بينهم إلا فى شىء من المال أو الجاه ، ولا قيمة لهما فى نظر الإسلام الذى يقدر المرء بعمله الصالح ، وخلقه القويم ؛ قال الله تعالى . « إن أكرمكم عند الله أتقاكم . » فنظرة الإسلام إلى الخدم نظرة إنسانية بكل ما تحمل هذه الكلمة من معان .

والنبى صلى الله عليه وسلم ، وقد أدبه ربه فأحسن تأديبه ، و بعثه ليتمم مكارم الأخلاق ، كان المثل الأعلى ، والقدوة الكريمة فى معاملة الخدم والإحسان

إليهم – قدّر فى المجتمع وضعهم ، ورفع الغبن والمهانة الواقعة عليهم ، وطبق عليهم نظرية الإسلام عملا واقعا ، فرفعهم إلى صفوف الناس ، ورد إليهم ثقتهم فى إنسانيتهم ، وحث على الرفق بهم ، وكرر الوصاة بحسن معاملتهم فى مناسبات شتى ؛ فهو الذى يقول عليه صلوات الله وسلامه :

« لا يَقُلْ أحدُكم عبدى وأَمَتى ، وليَقُلْ فتاىَ وفتَاتِى » ؛ جبرا لخاطرهم ، وتقديرا لشعورهم . و يقول عليه السلام :

« إذا أتى أحدَكم خادمُه بطعامه فإن لم يجلسه معه فليناوله لقمة أو لقمتين ، فإنه وَلِيَ علاجَه » ؛ أى قام بتجهيز الطعام و إعداده ، وتعلقت نفسه به .

و يقول صلى الله عليه وسلم فى حديثه الجامع لآداب معاملة الخدم :
« إن إخوانكم خَوَلُكم (أى إن الخدم الذين يخدمونكم ليسوا عبيدا ، ولكنهم إخوان لكم .) فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم ما يغلبهم ، فإن كلفتموهم ما يغلبهم فأعينوهم . » أى ساعدوهم فى إنجازه .

ومن مظاهر رفق الرسول بالخدم أنه كان إذا ركب أركب خادمه وراءه على ظهر دابته . وما ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم خادما بيده .

على أن غاية البر بالخدم تبدو فيما يرويه البخارى عن أنس بن مالك خادم الرسول إذ يقول : قالت أمى : يارسول الله ، خادمك أنس ادع الله له .

فقال عليه الصلاة والسلام : « اللهم أكثر ماله وولده ، وبارك له فيما أعطيته . »

فما أجمل تواضع الرسول ، وما أسمى أدبه . وما أجدره بقول الله تعالى فيه :
« وإنك لَعَلَى خُلُقٍ عظيم . »

هكذا كان النبي صلى الله عليه وسلم فى معاملة الخدم العطوف الرءوف ، وعلى هديه سار أصحابه وأتباعهم من بعده ، مقتفين أثره ، سالكين طريقه .

ونحن سلالة هؤلاء الهداة السابقين ، وحملة لواء هذا الدين ، فهل تَحَلَّينا بهذا الأدب النبوى ، وأنزلنا الخدم المنزلة التى وضعهم فيها الرسول الكريم ، وعاملناهم كما عاملهم ، أو قريباً مما كان يعاملهم ؟ يميل بى الظن أن الجواب فى الكثير الغالب : لا . فقد ضيعنا هذا الأصل من أصول ديننا ، وتنكرنا لهذه الطائفة المعاونة لنا ، وعاملناهم كأنهم من جنس غير جنسنا ، أو من طينة تخالف طينتنا . ولا أحب الخوض فى تفاصيل ما تلقى تلك الطائفة على أيدينا ، مما يبرأ منه الدين ، وتتقزز له النفس ، ويندى الجبين ، وسنحاسب عليه الحساب العسير من لدى أحكم الحاكمين .

إن الخادم فى البلاد الغربية تأكل فى الوقت الذى تأكل فيه الأسرة ، ومن الطعام الذى أعدته ، ونصيبها منه كنصيب الابن أو البنت ، ولها الفوطة والشوكة والسكين والملعقة كأى فرد فى البيت ، ولها حجرة خاصة بها ، فيها صوان للملابس ، وثان للكتب ، وشىء كثير من وسائل التسلية . فهى تقرأ — وقت فراغها — إذا شاءت ، وتسمع المذياع إذا أرادت ، وإذا طلب منها سيدها شيئاً قال لها : من فضلك . فإذا ناولته إياه قال : أشكرك . إنها معاملة عنوانها سماحة وإنسانية ، وأساسها رفق وأخوّة . فانظروا إلى حالهم وحالنا ، ومعاملتهم للخدم ومعاملتنا ، تجدوهم ينهجون نهج ديننا الذى ضيعناه ، ويسلكون طريق سلفنا الذى أخطأناه ، فأى خزى لنا بعد هذا وأى عار ؟

ولنمل الآن إلى الناحية الثانية ، فنسأل طائفة الخدم : هل أدوا واجبهم كما ينبغي ؟ هل خدمونا في أمانة وإخلاص ؟ هل أحسنوا تدبير أحوالنا ورياضة أطفالنا ؟ الجواب أيضاً في الكثير الغالب : لا .

فكم من أسرة تأرق ليلها لخروج الخادم وعدم عودتها ، وكم من أسرار أذاعها الخدم وأفشوها ، وكم من بيوت سرقت وكان الخدم هم الممهدين لهذه السرقة ، وكم من حلى وملابس جمعتها الخادم حتى إذا ما أظلم الليل ، ونامت الأسرة تسللت خارجة بها ، وكم من نقود هي كل ذخيرة الأسرة اختلستها الخادم ، ناسية سابق العطف والحنان ، وكم من طفل جنى عليه إهمال المرضعة ، بل كم من سيدة أو سيد تآمر الخدم على قتله وحرمانه الحياة ... إلى غير ذلك مما تغص به محاضر الشرط ، وما تطالعنا بأخباره الصحف كل صباح ومساء .

ماذا نقول ؟ أنقول تهربا من التبعة : إن الخدم أساءوا إلينا فأسأنا إليهم ، وإنهم نسوا واجباتنا فنسيناحقوقهم علينا ، وإساءة بإساءة ، وجحود بجحود؟ لا ، إن الإسلام يأبى ذلك ولا يرضاه؛ إذ هذه المعاملة هي الفوضى عينها، وقد جاء الإسلام لمحاربتها . إن الإسلام هو الدين الذى حدد المسئولية ، وحمل كل إنسان ما يخصه منها، وحاسبه على عمله، يقول النبي صلى الله عليه وسلم : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، فالإمام راع وهو مسئول عن رعيته ، والرجل راع في أهله وهو مسئول عن رعيته ، والمرأة راعية في بيت زوجها وهي مسئولة عن رعيتها ، والخادم راع في مال سيده وهو مسئول عن رعيته . » فلنا مسئوليتنا ، وللخدم مسئوليتهم ، وعلى قدر المسئولية تكون المثوبة أو العقوبة ، ولا شك أن مسئوليتنا أعظم ؛ لأننا — بالنسبة للخدم — أولياء أمورهم ، ولنا القوامة عليهم في كثير من شئون حياتهم .

إن مشكلة الخدم مشكلة عامة وكلنا يقاسي مرارتها ، وربات البيوت لا

يشكين إلا الخدم ومساويهن ، فلنأخذ للأمر عدته ، ولنحاول علاج هذا الداء واستئصاله من جذوره ، لعلنا نستريح ونريح . فعلينا أن نبادر — أولا — إلى إصلاح أنفسنا ، وإحياء مادرس من سنة نبينا ، فذلك خير لنا . أما إصلاح الخدم فإننا نضعه بين يدى وزارة العمل ، ترسم خططه ، وتتعهده وترعاه كما يروقها ، وما أمره عليها بعزيز ، متى خلصت النيات ، وقويت العزائم ، والله الموفق ، وهو المستعان .

الفصل التاسع

التضامن [1] والتعاون فى الإسلام
أو
الاشـــتراكية الإسلامية

التعاون على البر واجب إسلامى :

ومن أسس (الديمقراطية) فى الإسلام التضامن بين المسلمين ، والتعاون بالفكر والشعور والمال على أداء الحقوق والواجبات . فالتعاون واجب على كل مسلم ومسلمة .

قال الله تعالى : « وَتَعاوَنوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ، وَلا تَعاوَنُوا عَلى الإثْمِ والعُدْوَانِ »

فالله يأمر بالتعاون على البر وعمل الخير ، ومعاونة المعوزين والعاجزين والمساكين ، كما يأمر بالتعاون على التقوى والعمل الصالح ، وينهى عن التعاون على الإثم والشر والاعتداء .

وقال جل شأنه : « والعَصْرِ ، إنَّ الإنْسَانَ لَفِى خُسْرٍ [2] ، إلاَّ الَّذِينَ آمَنوا ، وعَمِلُوا الصَّالِحاتِ ، وَتَوَاصَوْا بالْحَقِّ ، وَتَوَاصَوْا بالصَّبْرِ . »

فمن تمسك بالإيمان ، وفعل الخير ، والتزام الحق ، والصبر نجح فى حياته وعمله . ولن تهلك أمة يتواصى أفرادها بالإيمان ، ويتناهون عن الباطل . وكثيراً ماسقطت

---

(١) ضمن الشيء بالكسر ضماناً : كفل به ، فهو ضامن وضمين .
(٢) ضلال ، أو خسارة

الأمم لأن أبناء ها كانوا لايجدون من يرشدهم إلى الطريق المستقيم ، وينهاهم عن الشرور التي يرتكبونها ، والآثام التي يقترفونها.

وقال عز وجل : « وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ ، وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ . وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ[١] . »

فالله أمر بالدعوة إلى الإسلام وفعل الخير ، من صدقة وإيثار وتعاون وترابط وتضامن ، وأمر بالمعروف وهو ما استحسنه الشرع ، كالتواصى بالحق ، والرحمة ، والإحسان، والصبر .

ونهى عن المنكر ، وهو: ما استقبحه الشرع ، كالظلم ، وعدم إخراج الزكاة ، وكالخيانة والغدر والكذب .

وقال عز من قائل : « واعتَصِمُوا بِحَبْلِ[٢] اللهِ جميعاً ولا تفرَّقُوا[٣] . »

وقال : « ولا تَكُونوا كالَّذِينَ تفرَّقُوا واختَلَفُوا مِنْ بَعْدِ ما جَاءَهُمُ البَيِّنَاتُ ، وأُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ[٤] . »

وقال مخاطباً أمة محمد : « كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخرِجَتْ للنَّاسِ ، تَأْمُرُونَ بالمعرُوفِ ، وتَنْهَوْنَ عن المُنْكَرِ ، وتُؤْمِنُونَ باللهِ . وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الكِتابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ . مِنْهُمُ المُؤْمِنُونَ ، وأَكْثَرُهُمُ الفاسِقونَ[٥] . »

وقال تعالى : «وَمَا أَدْرَاكَ ما العَقَبَةُ ؟ فَكُّ رَقَبَةٍ[٦] . أَوْ إِطْعَامٌ في يَوْمٍ

---

(١) آل عمران ١٠٤
(٢) دينه وهو الإسلام
(٣) آل عمران ١٠٣
(٤) آل عمران ١٠٥
(٥) آل عمران ١١٠
(٦) إعتاق رقيق وتحريره

ذِى مَسْغَبَةٍ[1] ، يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ[2] ، أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ[3]، ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا[4] بِالصَّبْرِ، وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ . »

وقال صلى الله عليه وسلم : « لَتَأْمُرُنَّ بِالمعرُوفِ ، ولَتَنْهَوُنَّ عن المنكَرِ، أَوْ لَيُسَلِّطَنَّ اللهُ عليكُمْ شِرَارَكُمْ ، فيَدْعو خِيارُكُمْ فلاَ يُسْتَجابُ لهم . »

وقال عليه الصلاة والسلام : « مَنْ رأَى مِنْكُمْ مُنْكَراً فلْيُغَيِّرْهُ بيدِه، فإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فبِلسانه ، فإِنْ لم يَسْتَطِعْ فبِقَلْبِهِ ، وذٰلكَ أَضعفُ الإِيمَانِ . »

وقال عز وجل : « لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا من بَنِى إسرائيلَ عَلَى لسانِ داوُدَ وعيسَى بنِ مريمَ، ذٰلكَ بما عَصَوْا وكانُوا يَعتَدُون. كانوا لا يَتَنَاهَوْنَ[5] عن مُنْكَرٍ فَعَلوهُ ، لَبِئْسَ مَا كانوا يَفْعلون[6] . »

وقال عز من قائل : « إِنَّ اللهَ يأْمرُ بالعدلِ والإحسانِ ، و إيتاء ذى القرْبَى، ويَنْهَى عَن الفَحْشاء والمُنْكرِ والبَغْيِ ، يَعِظُكُمْ لعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ[7] . »

وقال تعالى : « واعبُدُوا اللهَ ولا تُشْرِكُوا بهِ شيئاً ، و بالْوَالِدَيْنِ إحساناً ، و بِذى القُرْبَى ، واليَتامَى والمَساكِينِ ، والجَارِ ذى القُرْبَى[8] ، والجَارِ الجُنُبِ[9]، والصَّاحبِ بالجَنْبِ[10] ، وابنِ السَّبيلِ ، ومَا ملَكَتْ أَيمانُكُم[11] ، إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ مَن كانَ مُختَالاً فَخوراً[12] . »

---

(١) جماعة (٢) قرابة
(٣) فقيراً لصوقاً بالتراب لفقره
(٤) أوصى بعضهم بعضا .
(٥) لاينهى بعضهم بعضا
(٦) سورة المائدة ٧٨ و ٧٩ (٧) النحل ٩٠ .
(٨) القريب منك فى الجوار أوالنسب
(٩) الجار البعيد عنك فى الجوار أوالنسب
(١٠) الرفيق فى سفر أوعمل ،وقيل الزوجة .
(١١) من الأرقاء . (١٢) سورة النساء ٣٦ .

وقال عمر رضى الله عنه : « رحم الله امرأ أهدى إلينا عيوبنا » . فالناس بخير إذا اتبعوا أوامر الدين ، واجتنبوا نواهيه ، وتذاكروا وتشاوروا ، وتعاونوا وأوصى بعضهم بعضا بفعل الخير ، ونهى بعضهم بعضا عن فعل الشر .

التفكير فى شئون الرعيـة .

وقد كتب عمر بن الخطاب إلى معاوية بن أبى سفيان ذات يوم فقال . « إياك والاحتجاب[1] دون الناس ، وائذن للضعيف وأدنه[2] ، حتى يبسط لسانه ، ويجترىء[3] قلبه . وتعهد الغريب ؛ فإنه إذا طال حبسه ضعف قلبه ، وترك حقه » .

ففى هذه الرسالة الحكيمة نرى أن عمر كان يفكر فى شئون الرعية ليلا ونهاراً ، ويحذر معاوية من البعد عن الناس ، ويحثه على الاتصال بهم ، ومعرفة أحوالهم ، ويأمره أن يأذن للضعفاء بالقرب منه ، ويسمح بلقائهم ؛ حتى يشرحوا له شئونهم وأحوالهم ، وتتشجع قلوبهم ، ولا يخافوا أحدا إلا الله . وقد كلفه أن يتعهد الغرباء عن الأهل والوطن ، ويحافظ عليهم ويكرمهم ؛ فإنه إذا طال حبسهم وعزلتهم ضعفت قلوبهم ، وتركوا حقوقهم ، ولم يطالبوا بها . وليس هـذا من العدالة فى الإسلام .

حقا لقد كان المسلمون سعداء بعمر ، فكان أبا رحيما لهم ، وحوله رجال يعاونونه ويساعدونه ، وكان أبا للعيال والصغار ، حتى يرجع إليهم آباؤهم من السفر أو الحرب .

قال عليه الصلاة والسلام : « كُلُّكُمْ راعٍ وكُلُّكُمْ مَسْئولٌ عَن رَعِيَّتِهِ » .

(١) البعد عن الناس .
(٢) قربه منك .
(٣) يتشجع .

الإمامُ راعٍ وهوَ مسئولٌ عن رَعيَّتِهِ ، والرَّجلُ راعٍ فى أهلِهِ ومَسئولٌ عنْ رعيتِهِ ، والمرْأةُ راعيةٌ فى بَيتِ زَوْجِهَا ومَسئولةٌ عنْ رعيتِها ، والوَلدُ راعٍ فى مالِ أبيهِ ومَسئولٌ عن رعيتِهِ ، والخادمُ راعٍ فى مالِ سيِّدِه ومَسئولٌ عنْ رعيتِهِ . وكلُّكُمْ راعٍ ، وكلُّكُمْ مَسئولٌ عنْ رعيتِهِ . »

فكل فرد فى المجتمع مسئول عن العمل الذى يقوم به ، وعن إجادته والنهوض به . ولكل فرد منا حقوق يجب أن ينالها ، وواجبات يجب أن يعمل على تنفيذها بكل أمانة وإخلاص .

التضامن الاجتماعى روح الإسلام :

وإن (الديمقراطية) الإسلامية تتمثل فى المساواة والتعاون والتضامن الاجتماعى، والعدالة الاجتماعية ، وهى روح الإسلام .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الناسُ سَواسيةٌ كأسْنانِ المُشطِ . وَلا فَضْلَ لعَرَبِيٍّ عَلَى عجَمِيٍّ إلا بالتَّقوى . »

وقال : « أنَا أوْلَى بالمؤْمنينَ منْ أنْفُسِهِمْ ، فمنْ توُفِّيَ من المؤمنين فترَكَ دَيْناً فعلَيَّ قَضاؤُهُ . ومَن ترَكَ مالاً فهوَ لورَثتِهِ . »

وقال عليه الصلاة والسلام : « مَن وَلِيَ لنَا عملاً وليسَ له منزلٌ ، فلْيتَّخِذْ منزلاً ، أو ليستْ له زَوْجةٌ فليتزَوَّجْ ، أوْ ليس له خادمٌ فليتَّخِذْ خادماً ، أوْ ليست له دابَّةٌ فليتَّخذْ دابَّةً . »

وقال عمر بن الخطاب : « واللهِ ما أحدٌ أحق بمالِ الدولةِ منْ أحدٍ . وما أنا أحقُّ به من أحدٍ . واللهِ ما منْ أحدٍ من الناسِ إلاَّ وله فى هذا المالِ

نصيبٌ . فالرّجلُ وبلاؤُه[1] ، والرجل وقدمه[2] . والرجلُ وحاجته . »

وفى اعتقادى أن هذا هو التضامن والتعاون ، وهذه هى الاشتراكية الإسلامية

الأُخوّة الحقة تتطلب التضامن فى الحياة :

قال جل شأنه : « إنّمَا المؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ، فأَصْلِحُوا بينَ أَخَوَيْكُمْ . »

و إن الأُخوّة الحقة تستلزم المساواة ، والعدالة فى المعاملة ، والتضامن فى الحياة ، والتعاون للتغلب على ما يعترض المسلم من الصعوبات .

وقال عليه الصلاة والسلام : « الناسُ شركاء فى ثلاثٍ : الماء والكلأ والنار . »

فلا يجوز أن يحتكرها أحد من المحتكرين الجشعين أو المستغلين . وفى هذا روح الاشتراكية .

وقال : « لا يَحتكرُ إلا خاطىء . »

وفى احتكار التجار للسلع الاستهلاكية ضرر محقق للطبقات الفقيرة . .

والرسول الكريم يقول : « لا ضَرَرَ ولا ضِرارَ . »

وقال أبو ذر الغفارى — وهو من دعاة الاشتراكية فى الإسلام — « عجبت لمن لا يجد القوتَ فى بيتِهِ كيف لا يخرُجُ على الناس شاهراً سيفَه . »

لهذا ، أمر الله بالزكاة ، وجعلها من قواعد الإسلام ، وحث على الصدقة . والزكاة ما يخرجه الإنسان من ماله وهى واجبة . والصدقة ما يتطوع به الإنسان من المال .

---

(١) عمله (٢) خبرته

وهناك كثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية فى الحث على الزكاة والصدقة[1] .

قال تعالى : « وفى أموالهم حقٌّ للسائل والمحرُوم[2] . »

وقال : « آمِنوا باللهِ ورَسُولهِ ، وَأنفِقُوا مِمَّا جعَلكُم مُستخلَفِينَ فيهِ . فالذينَ آمَنوا مِنكُمْ وأنفقُوا لَهُمْ أجْرٌ كَبِيرٌ[3] . » أى داوموا على الإيمان بالله ورسوله ، وأنفقوا فى سبيل الله من مال من تقدمكم ، وسيخلفكم فيه من بعدكم . فالذين آمنوا منكم وتصدقوا ـ كعثمان رضى الله عنه فى غزوة العسرة وهى غزوة تبوك ـ لهم أجر كبير .

وقال عز وجل : « يَسْألُونَكَ[4] مَاذا يُنفِقُونَ ، قُلْ ما أنْفَقْتُمْ مِنْ خَيرٍ فلِلْوَالِدَيْنِ والأقربينَ ، واليتامَى ، والمَسَاكِينِ ، وابنِ السبيلِ . ومَا تفعَلوا مِنْ خَيْرٍ فإنَّ اللهَ بهِ عَليمٌ . »

وقال عز من قائل : « يأيُّها الذين آمنوا أنفِقوا[5] مِن طيِّبَاتِ مَا كَسَبتُمْ[6] ومِمَّا أخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الأرضِ ، ولا تَيَمَّمُوا[7] الخبيثَ[8] مِنْهُ تُنْفِقونَ ، ولَسْتُمْ بآخِذِيهِ[9] إلاَّ أنْ تُغْمِضُوا[10] فيهِ ، واعلَمُوا أنَّ اللهَ غَنِيٌّ[11] حَمِيدٌ[12] . »

---

(١) قد ذكرنا كثيراً من الآيات والأحاديث الخاصة بالزكاة والصدقة فى الموضوع التالى وهو : « التكافل الاجتماعى فى الإسلام » .

(٢) سورة الذاريات ١٩ . والمحروم هو الذى لا يسأل لتعففه مع شدة حاجته وفقره .

(٣) سورة الحديد : ٦

(٤) يا محمد ، والمراد بالإنفاق هنا الصدقة . (البقرة ٢١٥). (٥) زكوا

(٦) من المال (٧) تقصدوا

(٨) الردىء من الحبوب والثمار .

(٩) أى الردىء لو أعطيتموه فى حقوقكم .

(١٠) بالتساهل وغض البصر .

(١١) عن نفقاتكم

(١٢) البقرة ٦٧ .

وقال جل شأنه : « الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَموالَهُمْ بِاللَّيلِ والنَّهارِ سِرًّا وَعلَانِيةً فَلَهُم أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِم ولا خَوْفٌ عَليهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ[1] . »

وقال صلى الله عليه وسلم : « ما آمَنَ مَنْ باتَ شبعانَ وجَارُهُ جائعٌ . »

وفى هذا كله حث للقادرين من الأغنياء على الزكاة والتصدق والإعطاء من أحسن الأشياء التى يملكونها ، ليلا ونهارا ، وتشجيع على البر بالوالدين والأقربين ، والإحسان إلى اليتامى والمساكين وابن السبيل والمحتاجين . وما أجمل عطف الرسول وشفقته ورأفته بالفقراء فى حديثه الخالد السابق : « ما آمن بى من بات شبعان وجاره جائع . » فهل أغنياؤنا مؤمنون حقا بمبادئ الإسلام وروحه ؟ إنهم يعيشون لأنفسهم ، ولا يفكرون إلا فى أنفسهم . وإذا رأوا فقيرا طردوه شر طردة . ولا يحسون بجار جائع ، أو فقير مريض ، أو شيخ عاجز عن الكسب . ولا أبعد عن الحقيقة إذا قلت إن مايتبقى من موائد الأغنياء والأمراء فى الحفلات يلقى فى التراب ، ويغطى فوقه بالتراب ، حتى لا يذوقه أحد من الفقراء والمساكين ، ولا يراه أحد من الجياع والمحرومين ؛ خوفا من حقدهم واحتجاجهم . فهل هم مسلمون حقا ؟ إن الإسلام برىء منهم . وسيحاسبهم الله حسابا عسيرا .

---

(١) البقرة ٢٧٤ .

الوحدة قوة دونها كل قوة

والإسلام يدعوه إلى الوحدة والاتحاد

كان العرب أقوياء ، يضرب بهم المثل فى الشجاعة والبطولة والمروءة والكرم ، وكانوا يعيشون فى وطن عربى واحد من المحيط إلى الخليج ، ولكن الاستعمار فرق بينهم ، وجعلهم دويلات صغيرة ، وفرق بينهم ؛ كى يستطيع أن يتحكم فيهم ، متبعاً طريقته فى التفرقة بين أبناء الأمة العربية الكبيرة : « فرق تسد[1] » . فتفرق العرب بعد أن كانوا متحدين ، فضعفوا بعد أن كانوا أقوياء ، واستكانوا وخضعوا للمستعمر عشرات السنين ، وتحكم الأجنبى فيهم بعد أن كانوا أحرارا . ولو تمسكوا بدينهم — الذى يدعو إلى الوحدة والاتحاد والتعاون والتضامن — ما استطاع الاستعمار أن يحكمهم ويسيطر عليهم ، ويحتل بلادهم بحجج واهية ، وأسباب مختلقة ، ويستولى على ثرواتها ، ويستغل خيراتها ، وينهب محصولاتها ، ويقضى على صناعاتها ، وينشر الجهل والفقر والمرض والفساد فيها .

كانت الأمة العربية أسرة واحدة ، ومصالحها الاقتصادية والسياسية واحدة ، قوية البنيان ، إذا تألم منها فرد تألم له جميع الأفراد فى الأمة . وكانت ذات مدنية عريقة ، وحضارة قديمة ، وتاريخ عريق ، ولكن التنازع على الملك والعرش ، وحب الحكم والسلطان ، قد أديا إلى الضعف والخلاف فاحتلها العثمانيون والفرنسيون والإنجليز ، وقضوا على وحدتها ، وأضعفوا جيوشها ، وأغلقوا مصانع الأسلحة فيها ، وأوجدوا بينها حدودا مصطنعة ؛ كى يسهل احتلالها ، والتحكم فيها ، والسيطرة عليها .

---

(1) Divide and rule.

وبعد جهاد طويل مرير ، وسجن وتعذيب ، ونفى وتشريد ، وقتل للأحرار استطاع العرب بجيوشهم المخلصة ، وشعوبهم المؤمنة بالحرية ، أن يحرروا بلادهم ، ويعيدوا مجدهم القديم، وعظمتهم التليدة .

وقد كانت الوحدة حلما وخيالاً فى نظر الاحتلال، فصارت حقيقة بين الجمهوريات الأربع فى مصر والعراق والجزائر واليمن . وقد كان الاستعمار يعتقد أن الوحدة بين العرب أمر خيالى بعيد المنال ، ولكننا قد أثبتنا أن الخيال أصبح أمرا واقعيا ملموسا. وإن اجتماع الملوك والرؤساء من العرب فى مؤتمر القمة العربى بالقاهرة إجابة لدعوة قائد العروبة وبطل الأبطال الرئيس جمال عبد الناصر فى ٢٩ من شعبان سنة ١٣٨٣ هـ ، و١٣ من يناير ١٩٦٤ . م - لأكبر دليل على أنه سيأتى يوم - وما ذلك اليوم ببعيد - تتحد فيه جميع الشعوب والحكومات العربية ، ويتكون منها شعب عربى واحد ، وأمة عربية واحدة ، فى وطن عربى واحد ، هو الوطن العربى الكبير من المحيط الأطلسى إلى الخليج الفارسى .

إن الوحدة قوة دونها كل قوة ، ولكنْ هناك حكام يسيرون وراء الاستعمار ، ويخافون على عروشهم المنهارة ، ويحاربون الوحدة والحرية ، والاستقلال والعدالة الاجتماعية ؛ لأنهم يعملون لأنفسهم ، وللاستعمار الذى يحميهم . ولولا الاستعمار لقضت عليهم الشعوب فى طرفة عين

وسيأتى يوم - وما ذلك اليوم ببعيد - يزول فيه الطغيان والاستعباد والاستعمار بجميع أنواعه، وتتحرر فيه هذه الشعوب ، وتعود إلى وطنها العربى الكبير المتحرر ، وتسير فيه مع شقيقاتها فى الجمهورية العربية المتحدة .

ومن أجل مصلحة العرب والإسلام ، والأمة العربية الكبرى يجب أن ينسى الحكام مصالحهم الخاصة ، ويفكروا فى المصلحة العامة ، وهى مصلحة المجتمع العربى كله حتى يكون العرب جميعا كرجل واحد ، إذا تألم منه عضو تألمت له بقية الأعضاء .

قال الله تعالى : « واعتَصِموا بحبلِ اللهِ جميعاً ، ولا تفرّقوا . واذكروا نعمةَ اللهِ عليكم ، إذْ كُنتم أعداءً فألّفَ بين قلوبِكم ، فأصْبحتمْ بنِعْمَتِهِ إخوانا . »

وقال جل شأنه : « وَلا تَنازَعُوا فتَفْشَلوا ، وتَذهبَ رِيحُكُمْ . » أى قوتكم وصَوْلتكم .

فنحن نريد أن يحتفظ كل عربى بدينه ، ويفكر فى وطنه ، ونكوّن وحدة عربية شاملة تضم العرب جميعهم فى الوطن العربى الكبير .

يقول الرسول الكريم : « المؤْمنُ للمؤْمنِ كالبُنْيانِ يَشُدُّ بَعْضُه بعضاً . »

فبالتعاون والتضامن والوحدة بين الشعوب العربية كلها نستطيع أن نعيد مجد آبائنا وأجدادنا من العرب .

وقد أمر الإسلام بالوحدة والاتحاد والابتعاد عن التنازع والخلاف والافتراق ، قال صلى الله عليه وسلم : « الجماعة رحمة ، والفرقة عذاب . » وقال : من فرق فليس منا » .

وقال : « يدُ اللهِ معَ الجماعةِ . وإنما يأْكلُ الذّئبُ من الغنمِ القاصية . »

ويد الله أى نعمته وبركته على أبناء الأمة المتحدة ، إذا كانوا متحدين ، متضامنين ، متعاونين ، لاتفرق بينهم ، ولا اختلاف ، ولاتنازع . وإن من يشذ عن الجماعة يصير كالشاة البعيدة عن القطيع ، لاتلبث أن يفترسها الذئب .

ولولا الفرقة بين العرب ما استطاع الاستعمار أن يسيطر عليهم ، ويتحكم فيهم .

وقال عليه الصلاة والسلام : «لاتختلفوا فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا » .

وإن من يدرس تاريخ الأمم القديمة والحديثة يرى أن الاختلاف والتنازع وتفرق الكلمة من أهم أسباب سقوطها ، وتدخل الأجنبي والمستعمر فى شئونها .

فلنتعظ نحن العرب بمن سبقنا .

وقال المسيح عليه السلام فى الآية الخامسة والعشرين من الإصحاح الثانى عشر من متّى : « كل مملكة منقسمة على نفسها تخرب ، وكل مدينة أو بيت منقسم على ذاته لايثبت » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « اثنان خيرٌ من واحد ، وثلاثةٌ خيرٌ من اثنين ، وأربعةٌ خيرٌ من ثلاثة ، فعليكم بالجماعة ؛ فإن اللهَ لن يجمعَ أمتَنا إلا على هدى . »

ومعنى هذا أن نأخذ برأى الأغلبية والأكثرية فى الأمور التى يحدث الخلاف فيها . وهذه هى (الديمقراطية) الإسلامية ، وهذا هو روح الشورى والمشاورة ، روح الإسلام .

وقد يحدث أن يكون الإنسان ثاقب الفكر ، بعيد النظر ، طاهر القلب ، ويرى الحق والصواب فى جانب الأقلية، فلا لوم عليه إذا انضم إليها، ودافع بقوته عن رأيه ، حتى يتميز الحق من الباطل ، والصواب من الخطأ .

فالشعوب العربية تدين بالوحدة ، وتنادى بالوحدة ، وواجبنا نحن العرب أن نفكر فى مصلحة الوطن العربى الكبير ، وننسى أنفسنا ومصالحنا الخاصة ، حتى نكون كالبنيان القوى المتماسك يشد بعضه بعضا . واجبنا أن نعمل للوحدة الشاملة ، والاتحاد التام . فمحال أن نصل إلى تحرير العرب جميعا فى أفريقية وآسيا إلا إذا ائتلفنا وأخلصنا للعروبة ، واتحدنا فى الروح والمبادئ والعمل .

الوحـــدة بين المسلمين :

قال رسول الله صلى عليه وسلم : « تَرَى المُؤْمِنِينَ فى تَرَاحُمِهِمْ وتَوَادِّهِمْ وَتعاطُفِهم كَمَثَـلِ الجَسَدِ ، إذا اشتَـكَى عضوٌ تَدَاعَى له سَـــائِرُ جَسَدِهِ بالسهَرِ والحمَّى . »

يقال : تراحم المؤمنون أى رحم بعضهم بعضا . والتواد : التواصل الذى يؤدى إلى المحبة ، كأن يزور بعضهم بعضا . والتعاطف : أن يعطف الغنى منهم على الفقير ، ويعين القوى الضعيف وتداعوا : دعا بعضهم بعضا . وسائر : باق . والحمى : الحرارة المرتفعة .

فالرسول عليه الصلاة والسلام يمثل المسلمين فى تلك الصفات الثلاث ، وهى : التراحم والتواد والتعاطف — بالجسم الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تألم له باقى الأعضاء ، وسرت إليه حرارة الحمى ، فآلمته ، فلم يستطع النوم من شدة الآلام .

ومعنى هذا أن المؤمنين يجب أن يتحدوا ، ويكونوا كفرد واحد ، فإذا تألم أحدهم شاركوه شعوره وآلامه ، وعاونوه على إزالة تلك الآلام والتخلص منها ، وإذا منح أحدهم خيراً فرحوا لفرحه ، وسروا لما ناله من الخير .

فالرسول الـكريم ينادى بالوحدة والاتحاد والتراحم والتواد والتعاطف بين المسلمين ، بحيث يكونون يداً واحدة ، متعاونين متحدين ، متضامنين ، حتى يقضوا بوحدتهم على العدو المشترك ، وهو الاستعمار .

وبالمثل يجب أن يتحد العرب ، ويكونوا وحـــدة شاملة ، مهما يكن دينهما ، حتى يتخلصوا من الاحتلال والطغيان ، والحـكم الأجنبى ، وينتفعوا بخيرات أوطانهم وبلادهم ، ويعيدوا مجد آبائهم وأجدادهم .

يقول المرحوم الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده فى كتابه : « المسلمون والإسلام [1] » عن الوحدة الإسلامية :

« وأَطِيعوا اللهَ ورَسولَه ، ولا تَنازَعوا فتَفْشَلوا وتذهَبَ رِيحُكُم . »

وقد وصف فى هذا الفصل ماضى المسلمين العظيم وحاضرهم المؤلم ، وقال يحثهم على الوحدة والاتحاد : « أيا بقية الرجال ، ويا خَلَف الأبطال ، ويا نسل الأقيال [2] . . هل ولى بكم الزمان ؟ هل مضى وقت التدارك ؟ هل آن أوان اليأس ؟ . لا . . لا ، معاذ الله أن ينقطع أمل الزمان منكم ... إن من أدِرْنه [3] إلى بيشاور دولا إسلامية متصلة الأراضى ، متحدة العقيدة ، يجمعهم القرآن ، لا ينقص عددهم عن خمسين مليونا . وهم ممتازون بين أجيال الناس بالشجاعة والبسالة ، أليس لهم أن يتفقوا على الدفاع والإقدام كما اتفق عليه سائر الأمم . . ولو اتفقوا فليس ذلك ببدع منهم . فالاتفاق من أصول دينهم . . هل أصاب الخدر مشاعرهم فلا يحسون بحاجات بعضهم البعض ؟ أليس لكل واحد أن ينظر إلى أخيه بما حكم الله فى قوله : « إنما المؤمنون إخوةٌ . » فيقيمون بالوحدة سدا يحول عنهم هذه السيول المتدفقة عليهم من جميع الجوانب ؟ هل آن الاتفاق ؟ . . هل آن الاتفاق ؟ [4]

ألا إن الزمان يواتيكم بالفرص وهى لكم غنائم ، فلا تفرّطوا . . . إن البكاء لا يحيى الميت ، إن الأسف لا يرد الفائت ، إن الحزن لا يدفع المصيبة . .

---

(١) تقديم وتحقيق الأستاذ طاهر الطناحى من السلسلة الثقافية لدار الهلال .

(٢) قد وردت فى الكتاب « ويا نسل الأفيال » جمع فيل ، والصواب الأقيال جمع قَيل بالقاف وهو الملك ، أو هو دون الملك الأعلى ، وأصله قيِّل كفيعل.

(٣) أدرنه : بلد فى شمال تركيا فى حدود بلغاريا ، وبيشاور : بلدة فى أقصى المغرب العربى

(٤) « يزيد عدد المسلمين الآن فى هذه المنطقة على مائة مليون . وإذا أضفنا إليه عددهم فى الهند والصين وأندونيسيا وباكستان وغيرها ، فإن عدد المسلمين يكون نحو خمسمائة مليون . »

إن العمل مفتاح النجاح ، إن الصدق والإخلاص سلم الفلاح ، إن الوجل يقرب الأجل ، إن اليأس وضعف الهمة من أسباب الحتف .

« وقُلِ اعمَلوا فسَيَرَى اللهُ عمَلَكمُ ورَسولهُ والمؤْمِنونَ ، ثمّ تُرَدّونَ إلى عالِمِ الغَيبِ والشّهادةِ ، فيُنَبِّئُكمْ بما كُنْتم تعمَلون »

ألا لا تكونوا ممن كره الله انبعاثهم فثبّطهم ، وقيل اقعدوا مع القاعدين ، احذروا أن تقعوا تحت قول الله :

« رَضُوا بأَنْ يَكونوا مَعَ الخَوَالِفِ ، وطَبعَ اللهُ عَلَى قلوبِهِم فهُم لا يَفقَهُون . »

إن القرآن حى لا يموت ، ومن أصابه نصيب من حمده فهو محمود ، ومن أصيب من مقته فهو ممقوت ، كتاب الله لم ينسخ فارجعوا إليه ، وحكموه فى أحوالكم وطباعكم .

« ومَا اللهُ بغافلٍ عمّا تعمَلُون . »

ولعل حكام المسلمين قد وعظوا بسوء مغبة أعمال السابقين ، وهموا بملافاة أمرهم ، قبل أن يقضى عليهم ، بما رزىء به المفرطون من قبلهم .

ورجاؤنا أن أول صيحة تبعث إلى الوحدة ، وتوقظ من الرقدة ، تصدر عن أعلاهم مرتبة ، وأقواهم شوكة ، ولا نرتاب فى أن العلماء العاملين ستكون لهم اليد الطولى فى هذا العمل الشريف ، والله يهدى من يشاء ، ولله الأمر من قبل ومن بعد . »

هذا ما قاله الإمام المرحوم الشيخ محمد عبده فى الحث على الوحدة الإسلامية ، وهو يفيض غيرة وحماسا وقوة ، وأرجو أن يأتى اليوم الذى نرى فيه المسلمين فى جميع أنحاء العالم كما كانوا فى صدر الإسلام فى وحدتهم وقوتهم وإيمانهم .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ترَى المؤْمِنِين فى ترَاحُمِهِمْ وتوَادِّهم

وتعاطفِهم كمَثَلِ الجَسَدِ ، إذا اشتكى عضوٌ ، تداعى له سائرُ جسدِهِ بالسَّهَرِ والحُمَّى . »

وفى هذا الحديث الشريف دعوة للمؤمنين إلى الوحدة بحيث يرحم بعضهم بعضا ، ويود كل منهم الآخر ، ويعطف بعضهم على بعض ، ويكونون كجسد واحد ، إذا تألم منه عضو شاركته بقية الأعضاء فى ألمه ، وسعت فى إزالة ذلك الألم ، وجلب المنفعة والراحة له .

وقال عليه الصلاة والسلام : « لا تقاطَعوا ولا تدابَرُوا ولا تحاسَدُوا ، وكونوا عبادَ اللهِ إخواناً . »

وللحث على الوحدة بين المسلمين أمر الله بالإصلاح بين المتنازعين والمتفرقين منهم حيث قال :

« وإنْ طائفتانِ منَ المؤْمنينَ اقتتلُوا فأصلِحُوا بينهما ، فإنْ بغتْ إحداهما علَى الأُخرَى فقاتِلوا الَّتى تبْغِى[1] حتَّى تَفِيءَ[2] إلى أمرِ اللهِ . »

وبهذه الآية الكريمة ، سبقنا منذ أربعة عشر قرنا تقريبا — من فكروا فى تكوين عصبة الأمم ، والأمم المتحدة فى القرن العشرين .

وقال جل شأنه : « وَلا تكونوا كالَّذينَ تفرَّقوا واختَلفوا من بَعْدِ ما جاءتْهُم البَيِّناتُ . »

يد الله مع الجماعة :

فالوحدة قوة ، تكسب الأمة عظمة ومجداً ، وإن يد الله مع الجماعة » كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم . أما التنازع والخلاف ، والافتراق والشقاق

---

(١) تظلم   (٢) ترجع

فنتيجتها ضعف الأمة وذلتها وخضوعها لغيرها من المتحكمين فى شئونها ، والمسيطرين عليها من المستعمرين ، أو المستغلين الذين يفكرون فى أنفسهم ، وأسرهم ، والثراء بأى وسيلة ، ولو كانت دنيئة ، ولادين لهم إلا السلطان ، وكنز الأموال ، والترف والملاذ . والإسلام برىء منهم ؛ لأنهم لم يعملوا بما أمر به الكتاب والسنة من التعاون والوحدة والوفاق والتضامن والمشاركة فى الشعور والوجدان .

يقول المرحوم الإمام الشيخ محمد عبده : «إن رعاة المسلمين فضلا عمن علاهم تتصاعد زفراتهم، وتفيض من الدمع حزنا و بكاء على ما أصاب ملتهم من تفرق الآراء، وتضارب الأهواء . ولولا وجود الغواة من الأمراء ، ذوى المطامع فى السلطة بينهم، لاجتمع شرقيهم بغربيهم ، شماليهم بجنوبيهم ،ولبى جميعهم نداء واحدا[1] .»

ويقول أيضاً : « وما أهلك الله قبيلا إلا بعد ما رزئوا بالافتراق ، وابتلوا بالشقاق ، فأورثهم ذلا طويلا ، وعذابا وبيلا ، ثم فناء سرمديا . الوفاق تواصل وتقارب ، يحدثه إحساس كل فرد من أفراد الأمة بمنافعها ومضارها ، وشعور جميع الآحاد فى جميع الطبقات بما تكسبه من مجد وسلطان ، فيلذ لهم كما يلذ أشهى مرغوب لديهم ، و بما تفقده من ذلك ، فيألمون له كما يألمون لأعظم رزء يصابون به[2] » .

وقد أوجب الإسلام الصلح بين المتنازعين ، والإصلاح بين المختلفين ؛ حتى تستمر الوحدة بين المسلمين .

قال جل شأنه : « وإنْ طائِفَتانِ من المؤْمنينَ اقْتَتَلوا فأَصلِحُوا بينَهما ، فإنْ بَغَتْ[3] إحداهُما عَلَى الأخرَى فقاتِلوا الَّتى تبْغى حتَّى تَفِيءَ[4] إلى أمرِ اللهِ »

(١) المسلمون والإسلام ، صفحة : ٣٧ .
(٢) الكتاب المذكور صفحة : ٤٢
(٣) البغى : الظلم
(٤) تفىء : ترجع إلى الحق .

وإن مانادى به الإسلام في هذه الآية منذ أربعة عشر قرناً تقريباً قد فكرت عصبة الأمم فيه بعد الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ — ١٩١٨م ، وهيئة الأمم المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩ — ١٩٤٥م .

وقال عز وجل : « ولا تَكُونوا كالذينَ تفرَّقوا واختَلفوا مِن بَعْدِ ما جاءَتهمُ البَيِّناتُ . »

فالإسلام يأمر بالوحدة والاتحاد والاتفاق ، وينهى عن الخلاف والنزاع والافتراق ، بين المؤمنين ، بل وبين جيرانهم من غير المسلمين .

يقول المرحوم الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده : « كل هذه الرزايا التي حطت بأقطارنا ، ووضعت من أقطارنا ، ما كان قاذفنا ببلائها ، ورامينا بسهامها ، إلا افتراقنا وتدابرنا والتقاطع الذي نهانا الله ونبيه عنه .. هل كان يمكن للأغراب أن يمزقوا ممالكنا كل ممزق ؟ وهل كان يلمع سيف العدوان في وجوهنا[1] ؟ .. أنرضى ونحن المؤمنون — وقد كانت لنا الكلمة العليا — أن تضرب علينا الذلة والمسكنة ، وأن يستبد في ديارنا وأموالنا من لا يذهب مذهبنا ، ولا يرد مشربنا ، ولا يحترم شريعتنا ، ولا يرقب فينا إلاً[2] ولا ذمة ، بل أكبر همه أن يسوق علينا جيوش الفناء ، حتى يخلي منا أوطاننا ، ويستخلف فيها بعدنا أبناء جلدته ، والجالية من أمته . »

« لا ... لا ... إن المخلصين في إيمانهم ، الواثقين بوعد الله في نصر من ينصر الله ، الثابت في قوله : « إنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ . »

لا يتخلفون عن بذل أموالهم ، وبيع أرواحهم ، والحق داع ، والله حاكم ، والضرورة قاضية ، فأين المفر ؟ . المبصر بنور الله يعلم أنه لا سبيل لنصر الله ،

---

(١) لو كان المسلمون متحدين ما استطاع أحد أن يذلهم ويتحكم فيهم .

(٢) عهداً

وتعزيز دينه إلا بالوفاق وتعاون المخلصين من المؤمنين . هل يسوغ لنا أن نرى أعلامنا منكسة [١] ، وأملا كنا ممزقة ، والقرعة تضرب بين الغرباء على ما بقى فى أيدينا ، ثم لا نبدى حركة ، ولا نجتمع على كلمة ، وندعى مع هذا أننا مؤمنون بالله ، وبما جاء به محمد ؟ . . واخجلتاه لو خطر هذا ببالنا ، ولا أظنه يخطر ببال مسلم على لسانه شاهد الإسلام [٢] . »

« إن كان للعامة عذر فى الغفلة عما أوجب الله عليهم ، فأى عذر يكون للعلماء ، وهم حفظة الشرع ، والراسخون فى علومه . . لم لا يسعون فى توحيد متفرق المسلمين ؟ لم لا يبذلون الجهد فى جمع شملهم ؟ لم لا يفرغون الوسع لإصلاح ما فسد من ذات [٣] بينهم ؟ »

وإن من يدرس تاريخ الأمم القديمة ، ويعرف : لماذا نهضت ، ولماذا تأخرت ، ولماذا سقطت ، يجد أن الوحدة والاتحاد من أهم أسباب نهضتها وتقدمها ، والتنازع والتفرق من أكبر أسباب تأخرها وسقوطها ، ويدرك السر فى أن الله أمر بالتعاون فى قوله : « واعْتَصِموا بحبلِ اللهِ » ، ويفهم لماذا نهى جل شأنه عن الاختلاف والتفرق فى قوله : « ولا تفرَّقوا . » وقوله : « ولا تنازَعُوا فتفشَلوا ، وتذهبَ ريحُكُمْ » أى قوتكم .

من الأخلاق الإسلامية التعاون والمشاركة فى الشعور :

إن من يدرس الدين الإسلامى يجد أن روحه روح تعاون وعطف ،

---

(١) لقد تحررت البلاد الإسلامية ، وأصبح معظمها الآن مستقلا والحمد لله ، ولكن تنقصها الوحدة الكاملة ، والرابطة الإسلامية الشاملة .

(٢) المسلمون والإسلام . ص ٤٧ .

(٣) المسلمون والإسلام ص ٥٨ .

ومشاركة فى الشعور، روح صفاء و إخلاص ، روح محبة خالصة ، ومودة صافية.

قال تعالى : «وتعاونوا علَى البِرِّ والتقوَى ، ولاتعاونوا على الإثمِ والعُدْوانِ .»

وقال صلى الله عليه وسلم : « المؤْمنُ للمؤْمنِ كالبُنيَانِ يَشُدُّ بَعْضُه بعضاً . »

وقال : « ترَى المؤْمنينَ فى ترَاحُمِهِمْ وتوَادِّهِمْ وتعاطُفِهم كَمَثلِ الجسَدِ إذا اشتـكَى عُضْوٌ منه تدَاعَى له سائرُ الجسَدِ بالسَّهَرِ والحمَّى . »

وقال : « لا يُؤْمِنُ أَحَدُكمُ حتَّى يُحِبَّ لأخيهِ ما يُحِبُّ لنفْسِه . »

وقد شرحنا هذا كله فى كثير من المواضع من هذا الـكتاب .

فالإسلام يطالب بالتعاون على البر والخير، والمشروعات الاجتماعية التى تتطلبها الإنسانية ، كإنشاء المدارس والمساجد والملاجئ والمستشفيات ؛ ليتعلم الجاهل والطفل ، ويصلى المتعبد ، ويربى اليتيم ، و يُؤوَى العاجز والمسنُّ ، و يعالَج المريض ، فإذا تعاونت الأمة على الخير والبر والإصلاح ، والإحسان ، استطاعت أن تنهض وتتبوأ مركزها اللائق بها تحت الشمس . و إذا تنازعت واختلفت وانقسمت شيعا وأحزابا ، وأخذ كل حزب يـكيد للآخر ، ويهدم ما بناه ، تأخرت الأمة ، ورجعت إلى الوراء ، واستطاع المستعمر أن يتدخل فى شئونها ، مدعيا الصلح بين المتخاصمين . و إن البيت الذى ينقسم على نفسه مآله الخراب . و إن الأمة التى تنقسم على نفسها مآلها الخيبة والخذلان والضعف .

فالتعاون هو السر الأول لنجاح الأسرة ، ونجاح المجتمع ، ونجاح الأمة . فالأسرة إذا تفرقت وتفرق أعضاؤها أمكن التغلب عليها بسهولة . و إذا اتحدت وتعاونت واجتمعت نجحت ونجح أفرادها . و إن المجتمع الذى يتعاون فى السراء والضراء ، فى الرخاء والشدة ، يستطيع أن يتغلب على ما يعترضه من الشدائد والصعوبات . و إن الأمة التى تتعاون وتتمسك بالتعاون ، وتنبذ التخاذل

والخلافات أمة ما لها الفوز والرقى والنهوض ، والغلبة والنصر . وهذا ما ينادى به الإسلام .

« وتعاوَنوا عَلَى البِرِّ والتَّقوَى ، ولاَ تَعاونوا عَلَى الإثمِ والعُدْوانِ . »

« المؤْمنُ لِلمُؤْمِنِ كالبُنيانِ يَشُدُّ بعضُه بعضاً . »

وقد أبان الإسلام أن المؤمن الكامل عضو عامل فى جسم حى ، فإن صح العضو صح الجسم ، وإن مرض العضو مرض الجسم ، وأعضاء الجسم متعاونة على خيره . وكذا المؤمنون متعاونون على الخير ، و يتمثل ذلك فى قول الرسول الكريم :

« تَرَى المؤْمنينَ فى تراحُمِهِمْ وتوَادِّهِمْ ، وتعاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الجسَدِ ، إذا اشتكى عضوٌ منه تداعى له سائرُ الجسَدِ بالسَّهَرِ والحُمَّى . »

فالمؤمن الكامل هو الذى يشارك أخاه فى السراء والضراء ، والسعادة والشقاء والمؤمنون المثاليون هم الذين يرحم بعضهم بعضاً ، ويحب بعضهم بعضاً ، و يعطف بعضهم على بعض ، ويعاون بعضهم بعضا ، ويخلص بعضهم لبعض ، مثلهم مثَل الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تألمت له بقيةُ الأعضاء . وإذا مرض منه عضو شاركته بقية الأعضاء بالسهر عليه وارتفاع الحرارة للدفاع عنه . و إذا حدث للمسلم ما يؤلمه شعر المؤمنون بألمه ، وسعوا فى إزالته عنه ، وجلب الخير له ، و يسمى هذا فى علم النفس : « المشاركة الوجدانية » وهى أن نشارك الناس وجدانهم ، ونشعر بشعورهم ، ونشاركهم فى مسراتهم وأحزانهم ، فنسرّ لسرورهم ، ونتألم لألمهم . أما صاحب المزاج البارد الذى يتمثل فيه الجمود والقسوة والغلظة ، ولا يتأثر لما ينتاب غيره من نكبات ، وينفر من الناس ، والناس ينفرون منه ، ويحرم من يسأله من الفقراء ، ويملأ بطنه وجاره جائع ، فليس بمؤمن حقا ، وليس بمسلم كامل .

و إن هؤلاء الذين لايشاركون الناس شعورهم ، ويلجئون إلى القسوة والظلم دائما ضعفاء ، يشعرون بالضعف ، فيلجئون إلى القسوة والغلظة ، ظانين أنهم بتلك الطريقة يسترُون ذلك الضعف ، ويكمّلون ذلك النقص . وأمثال هؤلاء بعيدون عن الإسلام والإيمان ، أشخاصهم مكروهة ، وأفعالهم مشئومة .

و إذا قدرنا غيرنا ، وفكرنا فيه ، وسررنا لسروره ، وتألمنا لألمه ، فإننا ننتظر منه أن يقابل المثلَ بالمثل ، فيقدرنا و يفكر فينا ، ويشاركنا فى سعادتنا وشقائنا بوجدانه وقلبه ، أما إذا لم نقدر أحدا ، ولم نفكر فى أحد فإننا لا ننتظر أن يقدرنا أو يفكر فينا أحد .

يقول الرسول الكامل : « لاَ يُؤْمِنُ أَحدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأَخيهِ ما يُحِبُّ لنفْسِهِ . »

أى لايتم الإيمان الكامل للإنسان إلا إذا نظر إلى إخوانه من المسلمين كما ينظر إلى نفسه ، وعاملهم بما يحب أن يعامل به ، وأحب لهم من الخير والنفع مثل مايحب لنفسه ، وكره لهم من الشر والضرر مثل مايكره لنفسه تماما . فلا حقد ولاتباغض ، ولاتدابر ولاتقاطع ، ولانزاع ولاشقاق ، ولكن مودة ومحبة ، وصفاء و إخلاص ، وتعاون واتحاد .

قال أحد الفلاسفة : «إننافى حبنا الخير لغيرنا وفى بحثنا عنه نجد لأنفسناخيراً» وقال آخر : « لو أعطيت الحكمة كلها لنفسى على أن أستأثر بها ، وأمنعها عن إخوتى بنى الإنسانية لكرهت الحكمة . »

ومن تتمثل فيهم المشاركة الوجدانية و الروح الإنسانى الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ فقدكان النضر بن الحارث مع قريش ضد الرسول فى غزوة بدر ، فأمر الرسول بقتله . فقالت قُتَيْلَةُ بنت النضير بن الحارث تبكى أخاها :

هل يَسمعنّي النضرُ إن ناديتهُ ... أم كيف يسمع ميّتٌ لا ينطقُ
أمحمـدٌ يا خيرَ صِنوٍ(1) كريمةٍ ... فى قومها ، والفحل فحلٌ مُعرِقُ
ما كان ضرّكَ لو مننتَ وربما ... مَنَّ الفتى وهو المَغيظ المحنَقُ

أى أن أمك شريفة ، وأباك عريق فى المجد ، فما كان ضرك لو عفوت عنه ، وربما عفا الإنسان وهو فى شدة الغيظ والألم .

فبكى النبى صلى الله عليه وسلم وقال : « لو سمعتها قبل اليوم ماقتلته . »

وتتمثل المشاركة الوجدانية أيضاً فى سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه ؛ فقد خرج فى ليلة ليطوف و يتفقد أحوال المسلمين ، فرأى خيمة ، فقرب منها ، فسمع فيها امرأة تئن وتتوجع ، ورأى رجلا قاعداً فاقترب منه ، وسأله عن حاله .

فأجابه الرجل : أنا رجل غريب ، قدمت إلى أمير المؤمنين ، لأنال من فضله ما يجود به على .

فسأله سيدنا عمر : ما هذا الأنين ؟

فأجاب : إن امرأتى تلد .

قال عمر : فهل عندها أحد ؟

قال الغريب : لا .

فذهب عمر إلى منزله مسرعاً ، وقال لامرأته أم كلثوم بنت على بن أبى طالب : هل لك فى أجر قد ساقه الله إليك ؟

قالت : وما هو ؟

قال : امرأة تلد ، وليس عندها أحد

---

(1) ابن

قالت : إن شئت .

قال : فخذى معك ما يصلح للمرأة من ملابس ، وتعالَىْ بقدر وشحم ودقيق ، وماتحتاج إليه من طعام .

فأحضرت زوجه القدر والشحم والدقيق والملابس . وحمل سيدنا عمر القدر . ومشت امرأته خلفه ، حتى أتى خيمة الرجل الغريب ، فقال لزوجه : ادخلى إلى المرأة .

ثم قال للرجل : أوقد لى ناراً ، ففعل ، فوضع القدر بما فيها على النار ، وجعل عمر ينفخ النار ، والدخان يخرج من خلال لحيته ، حتى أنضج الطعام ، وولدت المرأة .

فقالت أم كلثوم : بشر صاحبك يا أمير المؤمنين بغلام ، فلما سمعها الرجل تقول يا أمير المؤمنين ، خاف وخجل ، وقال : إنى خجل منك يا أمير المؤمنين ، أهكذا تفعل بنفسك ؟

قال عمر : يا أخا العرب ، من ولى شيئاً من أمور المسلمين ، ينبغى له أن يطلع على أمورهم صغيرها وكبيرها ، فإنه عنها مسئول ، ومتى غفل عنها خسر الدنيا والآخرة .

ثم قام عمر ، وأخذ القدر ، وحملها إلى باب البيت ، وأخذتها أم كلثوم ، وأطعمت المرأة ، فلما استقرت وسكنت طلعت أم كلثوم . فقال عمر رضى الله عنه للرجل : قم إلى بيتك ، وكل ما بقى من البرمة (وهى القدر) ، وفى غد ائت إلينا.

فلما أتى الصباح جاءه الرجل ، فجهزه سيدنا عمر بما أغناه عنه . وقد ذكرنا هذه القصة من قبل ، ونعيدها ثانية هنا حتى يتعظ بها من يقرؤها .

هذه صور من الأخلاق الإسلامية التى ارتضاها الإسلام أساساً للروابط بين المسلمين منذ أربعة عشر قرنا من الزمان تقريبا ، فهل عملنا بتعليمات ديننا ؟

وهل سلكنا سبيل نبينا ؟ وهل تعاونا على البر والتقوى ؟

وهل شاركنا غيرنا فى شعوره وآلامه ؟

وهل تآخينا وتحاببنا فى الله ؟

وهل أخلص كل منا للآخر ؟

للفقراء حقوق على الأغنياء فى كل دين :

إن للفقراء حقوقا على الأغنياء . ومن تلك الحقوق أن يساعدهم الأثرياء عند الحاجة ، ويطعموهم إذا جاعوا ، ويسقوهم إذا عطشوا ، ويفتحوا أيديهم لهم ، ويعدلوا فى معاملتهم ، ويؤووهم إذا كانوا غرباء ، ويزوروهم إذا مرضوا ، ويكسوهم إذا احتاجوا إلى كساء . وقد أقرت الديانات كلها من يهودية ومسيحية وإسلام تلك الحقوق .

ولنقتبس هنا شيئا مما ورد فى العهد القديم والعهد الجديد عن حقوق الفقراء والمساكين :

« افتحْ يدَيك لأخيك المسكين ، والفقيرِ فى أرضك . » سفر التثنية ١٥ : ١٠ — ١١ .

« اقضُوا للذليلِ واليتيم . أنصِفوا المسكينَ والبائس . نجُّوا المسكينَ والفقير . » مزامير ٧٢ : ٤ .

« مَن يرحم الفقيرَ يُقرِض الربَّ ، وعَن معروفِه يجازيه . » أمثال ١٩ : ١٧

« ظالمُ الفقيرِ يعيِّرُ خالقَه ، ويُمجده راحمُ المسكين . » أمثال ١٤ : ٣١ .

« اقضِ بالعدلِ ، وحامِ عن الفقير والمسكين . » أمثال ٣١ : ٩ .

وقال أيوب مبيناً ما قدمه من حسنات :

« لأَنى أنقذتُ المسكينَ المستغيثَ واليتيمَ ولامعينَ له. بَركَةُ الهالكِ حلَّتْ عَلَىَّ ، وجعلتُ قلبَ الأرملةِ يُسَرُّ . لَبِسْتُ البرَّ فكَسانى . كَجُبَّةٍ وعمامةٍ كان عَدلِى . كُنتُ عُيوناً للعُمْى ، وأرجُلاً للعُرج . أنا أبٌ للفقراء . ودَعوَى لم أعْرِفْها فَحصْتُ عنها . هَشَّمْتُ أضرَاسَ الظالِمِ . ومِن بيْنِ أسنانِه خطِفتُ الفَريسةَ . » أيوب ٢٩ : ١٢ — ١٧ .

« إن كان فيكَ فقيرٌ أحدٌ مِن إخوتِك فى أحدِ أبوابكَ فى أرضِكَ التى يُعطيكَ الرَّبُّ إلٰهُك فلَا تُقسِّ قلبَك (عليه) . ولا تقبِضْ يدَك عَن أخيك الفقيرِ ، بَل افتحْ يدَك لَه ، وَأقْرِضْهُ مِقْدارَ ما يَحتاجُ إليهِ . » التثنية ١٥ : ٧–٨

« لا تَسْلُبِ الفقيرَ لكونِه فقيراً . ولا تَسْحَقِ المسكينَ فى البابِ ؛ لأنَّ الرَّبَّ يُقيمُ دَعواهم ، ويَسلُبُ سالِبِى أنفُسِهم . »أمثال ٢٢ : ٢٢ — ٢٣

« مَن يُعطى الفقيرَ لا يَحتاجُ . ولِمَنْ يَحجبُ عنه عَينَيْهِ لعَناتٌ كثيرةٌ . » أمثال ٢٨ : ٢٧ .

« وأنفقْتَ نفْسَك للجائع ، وأشبَعتَ النَّفْسَ الذليلةَ . يُشرِقُ فى الظلمةِ نورُك . » أشعياء ٥٨ : ١٠ .

« ولا تَظلموا الأرملةَ ولاَاليتيمَ ولا الغَريب ولا الفقيرَ . » زكريا ٧ : ١٠ .

« المولودُ ملكاً قد يَفتقِر . » جامعة ٤ : ١٤ .

هذا بعض ما ورد فى العهد القديم ، فى ديانة موسى عليه السلام .

وبما ورد فى ديانة المسيح عيسى بن مريم عليه السلام ما يأتى :

« طوبَى للرُّحماء لأنَّهم يُرْحَمُون . » متى ٥ : ٦ .

« وتَطلَّعَ(١) فرأى الأغنياءَ يُلقُون قرابينَهم في الخزانةِ . ورأى أيضاً أرملةً مِسكينةً ألقَتْ هُناك فَلْسَيْنِ . فقال: بالحقِّ أقولُ لكُم إنَّ هذهِ الأرملةَ الفقيرةَ ألقَتْ أكثرَ من الجميعِ ؛ لأن هؤلاء من فضلَتِهم ألقوا في قرابينِ اللهِ. وأما هذه فمِنْ إعوازِها ألقَتْ كلَّ المعيشةِ التي لها . » لوقا ٢١ : ٢ — ٤ .

« ومَن سألكَ فأعطِهِ . ومَنْ أرادَ أنْ يقترضَ منك فلا تَردَّهُ . » متى ٥ : ٢٩ — ٣٠ .

« وجميعُ الذينَ آمنوا كانوا معاً . وكان عندهم كلُّ شيء مشتركاً . والأملاكُ والمُقْتَنَيَاتُ كانوا يَبيعونَها ، ويَقْسِمُونها بينَ الجميعِ ، كما يكونُ لكلِّ واحدٍ احتياجٌ . » أعمال الرسل ٢ : ٤٤ — ٤٥ .

« إذْ لم يَكنْ فيهم أحدٌ محتاجاً لأنَّ كلَّ الذين كانوا أصحابَ حقولٍ أو بيوتٍ كانوا يَبيعونَها ، ويأتونَ بأثمانِ المبيعاتِ ، ويَضعونها عند أرجُلِ الرُّسُل ، فكان يُوزَّعُ على كلِّ واحدٍ كما يكونُ له احتياجٌ . » أعمال الرسل ٤ : ٣٤ — ٣٥ .

« والغارسُ والساقي هُما واحدٌ ، ولكنَّ كلَّ واحدٍ سيَأْخذُ أجرتَه بحسبِ تعبِهِ . » من رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوسَ ٣ : ٨ .

« لِتَكنْ سِيرَتُكُمْ خاليةً منْ مَحبَّةِ المال . كونوا مكتفينَ بما عِندكُمْ . » الرسالة إلى العبرانيين ١٣ : ٥ .

« لا تقتنوا ذهباً ولا فضة ، ولا نُحاساً في مناطِقكُمْ . ولا مِزوَداً للطريق ولا ثوبَين ، ولا أحذيةً ، ولا عصاً ؛ لأن الفاعلَ مستحقٌّ طعامَه . » إنجيل متى ١٠ : ٩ — ١٠ .

---

(١) المسيح .

« لا تَكنِزُوا لكم كُنوزاً على الأرضِ حيث يُفسدُ السوسُ والصدأُ ، وحيثُ يَنقُبُ السارقونَ ويَسرِقون . بل اكنِزُوا لكم كُنوزاً فى السماء، حيثُ لا يُفسِدُ سوسٌ، ولا صدأٌ ، وحيثُ لا يَنقُبُ سارقون ولا يَسرِقون. » إنجيل متى ٦ : ١٩ — ٢٠ . فالحبوب يفسدها السوس ، والمال يفسده الصدأ .

« خُبزَنا كفافَنا أعطنا اليومَ . » إنجيل متى ٦ : ١١ . فلا رأسمالية ، ولا احتكار ، ولا استغلال .

« بيعوا أموالَكم وأعطُوا صَدَقةً . » لوقا ١٢ : ٢٣ .

وقد حضر إلى السيد المسيح شخصٌ يسأله : يا سيد ، أريدُ أن أتبعك لأخلص . فقال له : « هل حفظتَ الوصايا العشر ؟ »

قال : حفظتها منذُ حداثتى .

فقال له السيد المسيح عليه السلام : « إذن اذهب ، وبِع كلَّ ما عندك ، وأعطه للفقراء ، وتعال اتبعنى . »

ومن أقوال المسيح : « لا يستطيعُ أحدٌ أنْ يخدمَ سيدين : المال والله . »

وقد ورد فى رسالة بولس الرسول إلى أهل روميَة ١٢ : ٢٠ — ٢١ .

« فإنْ جاع عدُوُّك فأطعمْهُ . وإنْ عطِش فاسْقِهِ ؛ لأنك إنْ فعلتَ هذا تجمعُ جَمْرَ نارٍ على رأسِه . لا يغلبنَّك الشرُّ ، بل اغلب الشرَّ بالخير . »

وجاء فى رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورِنثوس ١٢ : ٢٦ ما يأتى :

« فإنْ كان عضوٌ واحدٌ يتألم فجميعُ الأعضاء تتألمُ معه . وإن كان عضوٌ واحدٌ يكرَّمُ فجميعُ الأعضاء تفرحُ معه . »

الفصل العاشر

التكافل الاجتماعي في الإسلام[1]

التكافل الاجتماعي :

إن التكافل الاجتماعي هو أن يتكفل المجتمع بشئون كل فرد فيه ، من كل ناحية من النواحي الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والصحية . يقال : كفلت الصغير أكفُله كفالةً أي عُلْتُه وقمت بما يحتاج إليه من النفقة .

والكافل : هو العائل والضامن .

وقد فرضت الزكاة على القادرين من المسلمين من غير منّ ولا أذى ؛ لينتفع بها الفقراء والمساكين والعجزة والشيوخ والمحتاجون ، ويرتفع مستواهم ، ويتحسن حالهم ، ويعيشوا عيشة كريمة تليق بالإسلام ، ولينفق منها على المصالح العامة في البلاد .

وقد أمر الله بالإحسان والتصدق في مواضع كثيرة من القرآن الكريم ، وحث الرسول صلى الله عليه وسلم على الإحسان والصدقة في كثير من الأحاديث النبوية . فالإسلام قد سبق أوروبة والولايات المتحدة الأمريكية في المطالبة بحقوق الفقراء ، ومساعدتهم ومعاونتهم — بأكثر من ثلاثة عشر قرنا ، ولم يشترط أن يؤخذ منهم شيء من المال مقدما ، كما يحدث في التأمينات اليوم في القرن العشرين.

وقد حث الإسلام على التصدق ورغب فيه ، وشوق إليه ، وحافظ على

---

(١) ارجع الى موضوع التكافل الاجتماعي في الكتاب الثمين : « اشتراكية الإسلام » للدكتور العالم المحقق الأستاذ مصطفى السباعي .

كرامة الفقراء بطريقة لا نظير لها فى أى دين من الأديان . وسنذكر [١] هنا بعض الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية الخاصة بالزكاة والصدقة ، ومنها ستلمس آداب التصدق والإحسان ، وسترى كيف فكر الإسلام فى حقوق الفقراء ، وراعى شعورهم و إحساسهم ، وهى تدل على العظمة والنبل والمحافظة على الكرامة الإنسانية . ففى الإسلام ينتظر من المتصدق أن يتصدق بنفس راضية بدون منٍّ أو أذى ، وأن يتصدق ابتغاء مرضاة الله ، لا لنيل رتبة ، أو إعلان عن النفس .

وقد نادى الإسلام بالتعاون والتضامن بين أفراد المجتمع ، وطالب الأغنياء بمساعدة الفقراء ، وشجع على البر وفعل الخير ، والسعى لكسب الرزق ، وتكفل بإطعام الجائع ، وكسوة العارى ، وعلاج المريض ، وتعليم الأطفال وتربيتهم ، وضمن الحياة الكريمة للعاجزين عن الكسب ، من الشيوخ والمقعدين واللقطاء واليتامى وغيرهم . وينفق على هذه المشروعات كلها من بيت المسلمين ، مما يجمع من الزكاة والصدقات والتبرعات ، والوصايا الخاصة بالبر ، بحيث يشعر الفقراء والمساكين بالرعاية والعطف ، ويحيون حياة إنسانية كريمة عادلة ، ويجدون من ينصفهم ويعطيهم حقوقهم ، ويفكر فيهم ، ويدافع عنهم إذا لحقهم حيف أو ظلم ، ويرشدهم إلى الطريق المستقيم ، ويساعدهم فيما يحتاجون إليه .

قال تعالى : « إنَّما الصَّدَقاتُ لِلفُقراء ، والمساكينِ ، والعامِلِينَ عليها ، والمؤلَّفةِ قلوبُهمْ ، وفى الرِّقابِ ، والغارمِين ، وفى سبيلِ اللهِ ، وابنِ السبيلِ ، فريضةً مِن اللهِ ، واللهُ عليمٌ حكيمٌ [٢] . »

وقال عز وجل : « مثَلُ الَّذين يُنفِقون [٣] أموالَهمْ فى سبيل اللهِ كمثَلِ

---

(١) سبق أن ذكرنا بعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الخاصة بالزكاة والصدقة فى موضوع التضامن والتعاون فى الإسلام ، من هذا الكتاب .

(٢) سورة التوبة : ٦٠

(٣) يتصدقون .

حبَّةٍ أنبتت سبعَ سنابلَ ، فى كلِّ سُنبُلةٍ مائةُ حبَّةٍ ، واللهُ يُضاعِفُ لِمَن يشاء ، واللهُ واسعٌ[1] عليمٌ. الَّذينَ يُنفِقُون أموالَهم فى سبيلِ اللهِ ثمَّ لا يُتبِعُون ما أنفَقوا منًّا ولا أذًى ، لهُم أجرُهم عِندَ ربِّهم ، ولا خوفٌ عليهم ولا هُم يحزَنون . قولٌ معرُوفٌ ومغفِرةٌ خيرٌ مِن صدقةٍ يتبَعُها أذًى ، واللهُ غنىٌّ حليمٌ . يأيها الَّذين آمنوا لا تُبطِلوا صدقاتِكُم بالمَنِّ والأذَى ، كالذى يُنفِقُ مالَه رِئاءَ[2] النَّاسِ ، ولا يُؤمِنُ باللهِ واليومِ الآخرِ ، فمثَلُه كمثَلِ صفوانٍ[3] عليه ترابٌ ، فأصابَهُ وابلٌ[4] ، فتركَهُ صلداً[5] لا يقدِرُون على شىءٍ ممَّا كسبُوا ، واللهُ لا يهدِى القومَ الكافرينَ . ومثَلُ الَّذينَ يُنفِقُونَ أموالَهمُ ابتِغاءَ مرضاةِ اللهِ وتثبِيتاً[6] مِنْ أنفُسِهِم كمثَلِ جنَّةٍ[7] برَبوةٍ[8] أصابها وابلٌ فآتَتْ[9] أُكُلَها[10] ضِعفَينِ ، فإن لم يُصِبْها وابلٌ فطَلٌّ[11] ، واللهُ بما تعملونَ بصيرٌ[12] . »

وقال تعاظم وارتفع : « وما آتيتُم مِن رِباً لِيَربُوَ فى أموالِ النَّاسِ فلا يربُو عندَ اللهِ ، وما آتيتُم مِن زكاةٍ تُريدُون وجهَ اللهِ فأُولئك هُمُ المُضعِفون[13] . »

وقال عز وجل : « يمحقُ اللهُ الرِّبا ويُربِى الصَّدقاتِ[14] . »

والربا : الزيادة ، ويربو : يزيد ، ويُربى : يُضاعف .

---

(١) فضله واسع .
(٢) مرائياًلهم .
(٣) حجرأملس .
(٤) مطرشديد .
(٥) صلبا أملس لاشىء عليه .
(٦) تحقيقاً للثواب عليه .
(٧) بستان .
(٨) مكان مستو مرتفع .
(٩) أعطت .
(١٠) ثمرها .
(١١) مطر خفيف يكفيها
(١٢) سورة البقرة : ٢٦١ — ٢٦٥ .
(١٣) سورة الروم : ٣٩
(١٤) البقرة ٢٧٦ .

وقال جل شأنه : « إنما المؤمنون إخوة . »

وتستلزم الأخوة أن يفكر الأخ الثرى فى الأخ الفقير ، ويساعده بقدر استطاعته ، مع مراعاة إحساسه وشعوره .

وقال عز من قائل : « ليسَ البرَّ أنْ تُوَلُّوا وُجوهَكُم[1] قِبَلَ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ ، ولكِنَّ البِرَّ مَنْ آمَنَ باللهِ واليَوْمِ الآخِرِ ، والملائكةِ والكِتابِ والنَّبِيِّينَ ، وآتَى[2] المالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِى القُرْبَى واليَتامَى والمَساكِينَ وابْنَ السَّبِيلِ[3] ، والسَّائِلِينَ ، وفى الرِّقابِ[4] ، وأقامَ الصَّلاةَ ، وآتَى الزَّكاةَ ، والمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إذا عاهَدُوا ، والصابِرِينَ فى البَأْساءِ[5] والضَّرَّاءِ[6] وَحِينَ البَأْسِ[7] ، أولئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ، وأولئِكَ هُمُ المُتَّقُونَ[8] . »

وقال تعالى : « وإذا حَضَرَ القِسْمَةَ أُولُو القُرْبَى واليَتامَى والمساكِينُ فارْزُقُوهُمْ منه ، وقولُوا لهمْ قولاً معرُوفاً[9] . »

وقال صلى الله عليه وسلم : « المؤْمنُ لِلمؤْمنِ كالبُنيانِ يَشُدُّ بَعْضُه بعضاً . » ثم شبَّك بين أصابعه .

فالرسول الكريم يحثنا على الوحدة والتضامن والتكافل ، والائتلاف والتعاون ، وإحسان الأغنياء منا إلى الفقراء . وفى تشبيك الأصابع مثل القوة التماسك ، والمشاركة فى الشعور ، والترابط فى الحياة .

وقال عليه الصلاة والسلام : « ما آمَنَ بى مَن باتَ شَبعانَ وَجارُهُ إلى جَنْبِه طاوٍ[10] . »

---

(١) فى الصلاة . (٢) أعطى . (٣) المسافر .
(٤) وفى تحرير الأرقاء والأسرى . (٥) شدة الفقر .
(٦) المرض . (٧) وقت شدة القتال فى سبيل الله .
(٨) البقرة : ١٧٧ . (٩) النساء : ٨ . (١٠) جائع .

وقال : « مَن كان عِندَهُ طعامُ اثنينِ فليَذهَبْ بثالثٍ ، ومَن كان عندَهُ طَعامُ أربعةٍ فليذهبْ بخامسٍ أوْ بسادسٍ . » فالفقير يجب إطعامه ، ولا يجوز أن يترك معرضاً للجوع . »

وقال محمد الكامل : « الخلقُ كلُّهم عيالُ اللهِ ، وأحبُّهم إليه أنفعُهم لعياله . »

وقال الرسول العظيم : « الفُقَراء عِيالى ، والأغنياء وُكلائى ، فإنْ بَخِلَ وُكلائى عَلَى عيالِى أذَقتُهم وَبالى وَلا أُبالى . »

وقال : « عَلَى كلِّ مسلم صَدَقةٌ[1] . »

فقالوا : يا نبيَّ اللهِ فإن لم يجدْ ؟

قال : « يَعملُ بيدِه ، فينفعُ نفْسَه ويَتصَدَّقُ . »

قالوا : فإن لم يَجِدْ ؟

قال : « يُعينُ ذا الحاجةِ الملهوفَ[2] . »

قالوا : فإن لم يَجدْ ؟

قال : « فَليعملْ بالمعروفِ . » وفى رواية أخرى : « فلْيأْمُرْ بالخيرِ أوْ بالمعروفِ ، وليُمْسِكْ عن الشرِّ . » وفى رواية : قالوا : فإن لم يفْعَلْ .

قال : « فليُمْسِكْ عن الشرِّ ، فإنها له صدَقةٌ . » وفى رواية أخرى فإنه •

وفى هذا الحديث أمر بالصدقة كل يوم ، والعمل للكسب والتصدق ، وإعانة المظلوم ، والأمر بالمعروف والخير ، والبعد عن الشر .

وقال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ فرَّج[3] عن مُسْلِم كُرْبةً[4] فرَّج اللهُ

(١) وفى رواية أخرى بزيادة : « كل يوم » .
(٢) المظلوم الذى يستغيث . (٣) أزال . (٤) شدة .

عنه كُربةً من كُرَبِ يومِ القيامةِ . ومَنْ يَسَّرَ عَلى مُعسرٍ يَسَّرَ (الله) عَليهِ في الدنيا والآخرةِ . »

وقال : أيُّ رجل مات ضَياعاً[1] بين أغنياءَ ، فقد بَرِئَتْ منهم ذمةُ اللهِ ورسولهِ . »

وروى أبو سعيد الخدرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مَن كان معه فَضْلُ ظَهرٍ فليَعدْ به على من لا ظَهرَ له . ومَن كان له فضلٌ من زادٍ فليعدْ به على من لا زادَ له . » قال أبو سعيد : فذكر رسول الله من أصناف المال ما ذكر ، حتى رأينا أنه لاحق لأحد منا فى فضل. والفضل الزيادة .

وقال : « مَثَلُ الأخوَينِ مَثَلُ اليَدينِ تغسِلُ إحداهُما الأخرَى . » ويدعو بهذا إلى أن يتعاون الأخ مع أخيه ، ويساعده بقدر استطاعته .

وقال صلى الله عليه وسلم : « ما مِن امرئ يخذُلُ امرأً مُسلماً فى موضعٍ تُنتَهكُ فيه حرْمتُه ، ويُنتقَصُ فيهِ منْ عِرضهِ إلاَّ خذلَهُ اللهُ فى موْطِنٍ يُحبُّ فيه نُصرتَه . ومَا منْ مُسلِم ينصرُ مُسلِماً فى موْضعٍ يُنتَقصُ فيهِ ويُنتَهكُ فيه منْ حُرْمتِه إلاَّ نصرَهُ اللهُ فى مَوْطِنٍ يُحبُّ فيهِ نُصرتَه . »

وقال : « المسلمُ أخو المسلِمِ لا يَظلِمُهُ ولا يُسلِمُهُ[2] . مَن كانَ فى حاجةِ أخيهِ فإنَّ اللهَ فى حاجتِهِ . ومَنْ فرَّج عنْ مسلِمٍ كُرْبةً فرَّج اللهُ عنه بها كُربةً مِنْ كُرَبِ يومِ القيامةِ . ومَن ستر مسلماً ستَرهُ اللهُ يومَ القيامة . »

وقد آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين كل اثنين من المهاجرين ، بين الغنى والفقير منهم حتى يتعاونا على السراء والضراء ، والسعادة والشقاء ، وأمر بالإخاء بين المهاجرين والأنصار ، وساوى بينهم عند قدومه المدينة .

---

(١) هلاكا . (٢) يخذله ويتركه بدون مساعدة .

وقد مدح الرسول عليه الصلاة والسلام قبيلة أبى موسى الأشعرى وقال :
« إن الأشعريين [1] إذا أرملوا [2] فى الغزو وفنى زادهم ، أوقل طعام عيالهم بالمدينة جمعوا ما كان عندهم فى ثوب واحد ، ثم اقتسموه بينهم فى إناء واحد بالسوية ، فهم منى وأنا منهم . »

وعند الوصول إلى المدينة المنورة نشر الرسول عليه الصلاة والسلام روح الأخوّة بين المسلمين ، وقال : « تآخَوْا فى الله أخوَين أخوين . » وأخذ بيد على بن أبى طالب ، وقال : « هذا أخى . » وكان أسد الله حمزة بن عبد المطلب عم النبى صلى الله عليه وسلم أخًا لزيد بن حارثة مولى رسول الله . وكان أبو بكر — رضى الله عنه — أخًا لخارجة بن زهير . وقد أثمرت تلك الأخوة أطيب الثمرات ، ودامت وشائجها وثيقة على الزمن ، حتى لقد حسِب الصحابة — رضوان الله عليهم — أنها وسيلة للميراث ، فأنزل الله :

« وأولُو الأرحامِ بعضُهم أَوْلَى ببعضٍ فى كِتابِ الله . »

على هذا النسق من تحقيق الأخوة والمساواة والتضامن والتعاون بين المسلمين — كان النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه من بعده . لم تأخذهم فى الحق لومة لائم ، ولم يحابوا إنسانا ، ولم يرهبوا أحدا ، ولم يزدروا حقيرا .

فالإسلام دين أخوّة ، ومساواة ، وعدالة يطبق على الجميع قانونا واحدا ، وينظر إلى الجميع نظرة واحدة ، حتى فى العبادة ، يقفون فى الصلاة أمام ربهم صفوفا على قدم المساواة ، وفى الحج يطرحون الدنيا وزخرفها وراءهم ، ويكونون على قدم المساواة فى مشاعر الحج ، لا فرق بين أبيض وأسود ، ولا تفضيل بين أمير وخفير ، ولاتفاوت بين شريف ووضيع ؛ لأن المسلم أخو المسلم.

(١) قبيلة من القبائل العربية .
(٢) يقال أرمل الرجل إذا نفِدَ زاده وافتقر .

وقال عليه الصلاة والسلام : « إنَّ اللهَ فرضَ عَلَى أغنياء المسلمينَ في أموالهم بقدرِ الَّذِي يسَعُ[١] فقراءهم ، وانْ يَجْهَدَ الفقراء إذا جاعوا وعَرُوا[٢] إلاَّ بما يَصنعُ أغنياؤُهمْ ، ألاَ وإنَّ اللهَ يُحاسبُهم حساباً شديداً ، ويُعذِّبُهم عذاباً أليماً . »

فالأغنياء مسئولون عن الفقراء أمام الله ، ملزمون بإعطائهم القدر الذى يحتاجون إليه ، حتى لايجوعوا ولايحتملوا مشقة الجوع والعرى . وسيحاسبهم الله حسابا شديدا إذا لم يعطوا الفقراء حقوقهم .

وقال : « أطْعِموا الجائعَ ، وعودُوا المريضَ ، وفُكّوا[٣] العانِيَ[٤] . »

فالرسول يأمرنا بإطعام الجائع من أحسن مالديناه من الطعام ، وزيارة المريض فى الوقت الملائم ، لمعاونته والترويح عنه ، وإنقاذ الأسير الذى حارب من أجلنا ، وتحريره من الأسر .

وقال صلى الله عليه وسلم : « مَن أصبحَ لا يَهتمُّ بأمرِ المسلمين فليس منهم . »

وقال : « لا يؤمنُ أحدُكمْ حتَّى يُحبَّ لأخيه ما يُحبُّ لنفسِهِ . »

وفى عهد الرسول كان أبو عبيدة بن الجراح يجاهد مع ثلاثمائة من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، ففنى زادهم ، فأمرهم أن يجمعوا أزوادهم فى مِزْوَدَيْن[٥] ، وجعل يقوتهم[٦] إياها على السواء .

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « لواستقبلت من أمرى ما استدبرت لأخذت فضول[٧] أموال الأغنياء فقسمتها على فقراء المهاجرين .

(١) يحتاج إليه فقراؤهم . (٢) يقال عَرِيَ من ثيابه بالكسر عُرياً .
(٣) أطلقوا سراحه وحرروه .
(٤) الأسير ، والعانى مشتق من عنا يعنو : خضع وذل واستكان .
(٥) المزود : مايجعل فيه الزاد وهو طعام المسافر .
(٦) يطعمهم . (٧) الفَضلة والفُضالة : مافَضَل من الشيء .

وقد ورد جماعة على ماء ، وكانوا فى حالة من العطش أشرفوا فيها على الموت ، هم ودوابهم ، فأبى أصحاب الماء أن يسمحوا لهم بالشرب منه . فلما قابلوا عمر أخبروه بالأمر ، فقال لهم : هلاَّ وضعتم فيهم السلاح ؟

وقد أسر الروم امرأة مسلمة ، فاستغاثت وقالت : وامعتصماه . فقام المعتصم من بغداد ومعه جيشه ، وحارب الروم حتى أنقذها من الأسر .

الاشتراكية الإسلامية :

يقول المرحوم الدكتور محمد حسين هيكل ، فى كتابه النفيس « حياة محمد » عن الاشتراكية الإسلامية فى موضوع « الحضارة الإسلامية كما صورها القرآن» صفحة ٥٢٤ من الطبعة الثانية :

« وفى القرآن اشتراكية لم تبحث بعد[1] . وهى اشتراكية لاتقوم على أساس من حرب رأس المال ونضال الطوائف ، شأن الاشتراكية اليوم فى الحضارة الغربية ، وإنما تقوم على أساس خلقى سام يكفل إخاء الطوائف ، وتكافلها وتعاونها على البر والتقوى ، لا على الإثم والعدوان . ومن اليسير أن يرى الإنسان قيام هذه الاشتراكية على الإخاء فيما فرضه القرآن من زكاة ومن صدقة ، وأن يقدر أنها ليست اشتراكية تسود فيها طائفةٌ طائفة ، أو تتحكم بها جماعة فى جماعة . فالحضارة التى صورها القرآن لاتعرف سيادة ولاتحكما ، بل أساسها الإخاء الصادق عن إيمان ثابت بهذا الإخاء ؛ إيمان يجعل من التحدث بنعمة الله إعطاء الفقير والبائس والمحروم ما يحتاجون إليه من غذاء وكساء ، ومأوى ودواء ، وتعليم وتهذيب ، وإعطاءهم ذلك من غير مَنٍّ ولا أذى . بذلك يزول الشقاء ، ويُتم الله نعمته على الناس ، وتسودهم السعادة » .

---

(١) من المؤلفات الثمينة التى ظهرت حديثا كتاب «اشتراكية الإسلام» تأليف الدكتور مصطفى حسنى السباعى ، وقد تكلم عنها بإسهاب .

« والاشتراكية الإسلامية لاتقتضى إلغاء التملك إطلاقا كما تقتضيه الاشتراكية الغربية وقد أثبت الواقع فى روسيا البلشفية وفى كل بلاد سادتها الاشتراكية، أن إلغاء التملك إطلاقا أمر غير ممكن. لكن المرافق العامة يجب أن تكون ملكا عاما مشاعا بين الناس جميعا. وتحديد المرافق العامة متروك أمره للدولة. ولذلك وقع الخلاف على هذا التحديد منذ الصدر الأول للإسلام. فكان من بين أصحاب النبى غلاة فى الاشتراكية يجعلون كل ماخلق الله ملكا مشاعا ، ومرفقا عاما ، ولذلك يجعلون شأن الأرض وما تحتويه شأن الماء والهواء لايجوز تملك شىء منه . وإنما يقع التملك على الثمرات ينال منها كلٌّ على قدر سعيه ومجهوده . وكان منهم من لايرون هذا الرأى ، ويقولون بجواز تملك الأرض ، ويعتبرونها من العروض التى يقع عليها التبادل . »

« على أن الاتفاق منعقد بينهم على قاعدة اشتراكية مقررة اليوم فى أوروبا تقضى بأنه يجب على كل إنسان أن يبذل للجماعة كل كفاياته، ويجب على الجماعة أن تبذل لكل فرد منها مايسد حاجاته . فلكل مسلم حق فى أن ينال من بيت مال المسلمين ما يكفل حاجاته وحاجات من يعول، مادام لايجد عملا يرتزق منه ،أو مادام العمل الذى يزاوله غير كاف لرزقه ورزق عياله. ومادامت قواعد الخُلق التى قرر القرآن هى ماقدّمنا فلن يكذب أحد ، ولن يزعم أحد أنه متعطل ، على حين هو فى الحقيقة لايريد أن يعمل ، ولن يزعم أنه لايجد من عمله ما يكفيه على حين يدرُّ عليه الكفاية . وقد كان أمراء المؤمنين فى الصدر الأول يفرضون على أنفسهم أن يتفقدوا أمور المؤمنين ، ليبذلوا للمحتاج منهم حقه ، وليدفعوا عنه عادية الحاجة . »

« ومن ثم نرى أن الاشتراكية فى الإسلام ليست اشتراكية المال وتوزيعه،

وإنما هى اشتراكية عامة أساسها الإخاء فى الحياة الروحية . وفى الحياة الخلقية ، وفى الحياة الاقتصادية . وإذا كان المرء لا يكمل إيمانه حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، فالمرء لا يكمل إيمانه إذا لم يحض على طعام المسكين ، ولم ينفق للخير العام مما رزقه الله سرا وعلانية . وكلما ازداد المرء إيثارا على نفسه كان أقرب إلى الله ، وأدنى إلى رضاه ، وكانت نفسه أكثر طمأنينة ، وقلبه أشد غبطة . وإذا كان الله قد جعل الناس بعضهم فوق بعض درجات ، وكان يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، فإن الناس لا صلاح لهم إلا إذا وقّر صغيرهم كبيرهم ، ورحم كبيرهم صغيرهم ، وأعطى غنيُّهم فقيرهم ، ابتغاء وجه الله ، وشكرً الله ، وتحدُّثاً بنعمته . »

هـذا ما قاله المرحوم الأديب الدكتور محمد حسين هيكل ، والحق أن الاشتراكية الأوروبية اليوم تتضمن حرب الطوائف ، ومحاربة الرأسمالية ، ولكن الاشتراكية فى الإسلام تتضمن تعاون الطوائف وإخاءها وتكافلها وتضامنها ، فقد أوجب الإسلام الزكاة ، وحث على الصدقة والإحسان ، وإعطاء الفقير والمسكين والمحروم ما يحتاجون إليه من طعام وملابس ومسكن ، والقيام بعلاج المرضى ، وتربية الأطفال ، ورعاية اليتامى والشيوخ بنفس راضية ، من غير منّ أو أذًى .

قال تعالى : « يأيها الّذين آمنوا لا تُبْطِلوا صَدقاتِكمُ بالمنِّ والأَذى » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « مَنِ استطاعَ أَنْ يَقِيَ وَجهَهُ من النارِ ولَوْ بشِقَّةٍ من تمرٍ فليفعَلْ . ومَن لم يجد فبكلمةٍ طيبةٍ ؛ فإنَّ بها تُجْزَى الحسنةُ عَشْرَ أمثالِها . »

كيف يعامل الإسلام اليتامى والفقراء ؟

الإسلام دين العطف والشفقة ، دين الرأفة والرحمة ، يفكر فى اليتامى

والفقراء والمحتاجين والضعفاء ، الذين لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم . قال عز وجل مخاطبا الرسول المصطفى صلى الله عليه وسلم ، ولنا فيه القدوة الحسنة:

« فَأَمَّا اليَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ ، وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ ، وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ. »

واليتيم : هو من مات أبوه وهو صغير . والسائل : هو من ألجأه الفقر إلى ذل السؤال ، وطلب المعونة . وإن الإسلام يتطلب أن يعامل اليتيم الفقير معاملة كلها إنسانية ، كما يعامل الأب الرحيم ابنه البار . فاليتيم يجب أن ينمى ماله ويحافظ عليه إن كان له مال ، وينال حقه من التربية والتعليم ، وألا يقهره أحد ، ولا يغضبه ، ولا يأخذ منه حقا هوله ، ولا يذله ولا يحتقره ، ولا يسىء إليه.

ولكى نحسن معاملة السائل يجب أن نعطيه ما يحتاج إليه ، ونمد له يد المعونة والمساعدة ، ونخلص له فى الجواب ، ونرده برحمة ولين وعطف .

ويبدو روح الإسلام وما فيه من النبل والإنسانية ، والمبادىء المثالية — فى قوله تعالى :

« قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى، وَاللهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ. »

فقولك للسائل المحتاج : « الله يعطيك » خير من أن تعطيه قرشا ثم تقول له : اذهب فى داهية .

وإن من أنعم الله عليه بالمال أو العلم يجب عليه ألا يمنع ماله أو علمه عمن يسأله . وجدير به أن يشكر الله على النعمة التى جعلته مسئولا ، وجعلت غيره سائلا ، وصيرته عزيزا وغيره ذليلا ، وجعلته غنيا وغيره فقيرا يتكفف الناس ويسألهم ، هذا يمنحه، وذاك يمنعه . هذا يعطيه ، وهذا يزجره . هذا يحسن إليه ، وذلك يطرده، ويشتمه ويسىء إليه .

وإن الله لم يعط الغنى مالا ليكنزه ، ويبخل به على غيره ، ولا يتصدق به

على المحتاجين ، ولكنه منحه الغنى ليعطى الفقير والمسكين ، ويساعد البائس والمحروم ، ويعاون بماله المؤسسات الخيرية .

قال تعالى : « والَّذِين يكنِزُون الذَّهبَ والفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونها فى سبيلِ اللهِ ، فبَشِّرْهُمْ بعذابٍ أليمٍ . »

وإن الإسلام يوجب على القادرين الموسرين من المسلمين الصدقة على المحتاجين ، والمساعدة فى إنشاء المدارس والمستشفيات والجماعات الخيرية ، لتعليم الفقراء ، وعلاج المرضى ، ورعاية المكفوفين والعجزة ، والمحتاجين من الغرباء وكبار السن .

قال تعالى : « لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ من سَعَتِه . » والإنفاق هو التصدق على أوجه الخير . وقال صلى الله عليه وسلم : « أنا وكافِلُ اليتيمِ فى الجنَّةِ هكذا . » وأشار بالسبابة والوسطى ، وفرج بينهما شيئاً .

وكافل اليتيم هو : من يكفله ، ويقوم بتربيته ، وتأديبه وتعليمه ، وصيانة ماله ، والمحافظة عليه ، وادخاره له حتى يبلغ أشده ، ويصل إلى سن الرشد . وجزاؤه الجنة .

وهناك أوصياء من الأقارب يهملون اليتامى كل الإهمال، ويأكلون أموالهم ظلما ، ويغتصبون أرضهم ، ولا يعطونهم ما يكفيهم من مالهم ليعيشوا منه . ولا يعنون بتربيتهم وتعليمهم ،ولا يعطفون عليهم ، ولا يرأفون بهم ، ويعاملونهم معاملة قاسية لا رحمة فيها . والإسلام برىء من هذا النوع من الأوصياء . وقد أعد الله لهم عذابا أليما .

وقال عز وجل : « إنَّ الَّذين يأكُلون أَموالَ اليتامَى ظُلْماً ، إنَّما يأكُلونَ

فى بُطونِهم نَاراً ، وسَيَصلَوْن سعيراً[1] . »

المرأة الأرملة والصبى اليتيم .

وقال عليه الصلاة والسلام : « اتَّقُوا الله فى الضَّعِيفَين : المرأة الأرملة ، والصبىّ اليتيم . » فالرسول الكريم يرى أن المرأة التى فقدت زوجها ضعيفة تحتاج إلى المعونة والعطف ، وأن الطفل الذى مات أبوه يعد ضعيفا ، ويحتاج إلى كل رعاية وعناية . وهو يأمرنا أن نتقى الله فى معاملة هذين الضعيفين وهما : الأرملة والطفل اليتيم . وفى معاملتهما يجب أن نراقب الله دائما ، ونعمل على إرضائه ، بأن نعاملهما كما نعامل بناتنا وأبناءنا ، معاملة حسنة عادلة تتمثل فيها الإنسانية والعناية التامة ، والشفقة والرأفة ؛ حتى لا يشعرا بأى حاجة أو نقص ، وحتى يحسا أنهما لم يفقدا شيئا .

وقال جل شأنه : « وآتوُا اليتامَى أموالَهم ، ولاتَتبَدَّلوُا الخبيثَ بالطَّيبِ ، ولاتأْكلُوا أموالَهُمْ إلَى أموالِكمْ ، إنَّهُ كان حُوباً[2] كبيراً[3] . »

أى وأعطوا اليتامى الصغار الذين لا أب لهم أموالهم إذا بلغوا ، ولاتتبدلوا الحرام بالحلال أى لاتأخذوه بدلا منه، كما تفعلون من أخذ الجيد من مال اليتيم ، وجعل الردىء من مالكم مكانه . ولا تضموا أموالهم إلى أموالكم ، إن أكلها كان ذنبا عظيما .

وقال عز وجل : « أرأَيْتَ الذى يُكَذِّبُ بالدِّينِ ؟ فذلكَ الذى يَدُعُّ اليتيمَ ، وَلايَحُضُّ عَلَى طعامِ المِسكينِ . »

أى هل عرفت الذى يكذب بالجزاء والحساب ؟ وإن لم تعرفه فهو ذلك

(١) سورة النساء : ١٠ . (٢) ذنبا

(٣) سورة النساء : ٢ .

الذى ينهر اليتيم و يزجره ، و يدفعه عن حقه بعنف . ولا يحض نفسه ولا غيره على إطعام المسكين .

الإحسان وتنظيمه فى الإسلام

ماهية الإحسان :

الإحسان شعار النفوس الكريمة ، وعنوان السجايا الرحيمة ، و إلهام من الله اللطيف الخبير ، أودعه قرارة النفوس فضلا منه وكرماً ؛ ليمحو الشقاء من الوجود، ويمسح دموع البائسين ، و يعيش الناس إخواناً متحابين،لا تحاسد بينهم ولا تحاقد، ولا اعتداء ولا بغضاء . ولقد رغب الإسلام فى الإحسان وحث عليه فى كثير من الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية ، . وقد قرن الله التصدق بالأمر بالمعروف ، والإصلاح بين الناس ، فقال :

« لاخَيْرَ فى كثيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ[1] إلاَّ مَنْ أمرَ بصَدَقةٍ أَوْ معرُوفٍ ، أَوْ إصلاحٍ بينَ النَّاسِ ، ومَنْ يَفعلْ ذلكَ ابتِغاءَ مَرْضاةِ اللهِ فسَوْفَ نُؤْتيهِ أجراً عظيماً . »

بل جعل الله الإنفاق وهو التصدق على الفقراء والمحتاجين من أبرز صفات المؤمنين ، فقال :

« إنمَّا المؤْمنونَ الذين إذا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ[2] قلوبُهم . وإذا تُلِيَتْ عَليهم آياتُه زادَتْهُمْ إيماناً ، وعلَى ربِّهِمْ يتوكَّلون . الذين يُقِيمونَ الصلاةَ ، ومِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنفِقون . أُولئِكَ همُ المؤْمنون حقًّا . »

---

(١) النجوى : السر والعبادة سراً .   (٢) خافت .

وقد أنبأنا النبي صلى الله عليه وسلم بأن التصدق ولو بالقليل كنصف تمرة وقاية من النار. ولاريب أن في هذا ترغيبا أي ترغيب في الصدقة، و بيانا لما يجنيه صاحبها من ثمرات عظيمة ، ولو كانت الصدقة قليله ضئيلة ، فقال :

« اتَّقُوا النَّارَ وَلَو بِشِقِّ تمرةٍ . »

وقال أيضاً : « الصدقةُ تُطْفِىءُ الخطيئة ، كما يُطْفِىءُ الماءُ النارَ . »

وقال : « الزَّكاةُ قنطرةُ الإسلامِ . »

فلا يعد المسلم مسلما حقا إلا إذا أدى الزكاة ، وقد حدد الإسلام مقدارها وزمانها . وقال الإمام على كرم الله وجهه : « صونوا إيمانكم بالصدقة ، وحصنوا أموالكم بالزكاة . » أي احفظوا إيمانكم بالصدقة والإحسان إلى المعوزين ، ونموا أموالكم بالزكاة .

ومن أجل هذا كثر المحسنون والمتصدقون في العصور الإسلامية الخالية ، ووقفوا أموالهم على الأعمال الخيرية ، ابتغاء رضاء الله . ولا تكون الصدقة مقبولة إلا إذا خلت من المن والتعيير .

قال عز وجل : « الذين يُنفقونَ أموالَهمْ في سبيلِ اللهِ ثمَّ لا يُتبِعونَ ما أنفقوا[1] مَنًّا وَلا أذًى ، لهمْ أجرُهمْ عِندَ ربِّهم ، وَلا خَوْفٌ عَليهم ، ولا هُمْ يَحْزَنون . »

بل إن الكلمة الطيبة تعتذر بها للسائل خير عند الله من صدقة تمُنّ بها عليه ، وتؤذيه بها ؛ لأن في ذلك مَسًّا لكرامته ، و إهداراً لإنسانيته .

(١) تصدقوا .

قال تعالى : « قولٌ معروفٌ ومغفرةٌ خيرٌ مِنْ صدقةٍ يَتبَعُها أذًى ، والله غنيٌّ حليمٌ . »

والرسول الكريم يقول : « الكلمةُ الطَّيبةُ صدقةٌ . »

وإذا أعوزك العطاء والإحسان فاعتذر للسائل اعتذاراً جميلاً ، ليس فيه إيذاء له ، قال تعالى :

« وإمّا تُعرِضَنَّ عنهمُ ابتغاء رَحمةٍ من ربِّك تَرْجوها فقلْ لهمْ قوْلاً ميسوراً . » أى اعتذر لهم اعتذاراً جميلاً .

وقد ذمّ الله تعالى الذين يعيبون على غيرهم قِلّةَ ما أعطوه مع أنهم بذلوا ما فى وسعهم ، فقال :

« الذين يَلمِزون[1] المطَّوِّعين منَ المؤْمنين فى الصدقاتِ ، والذين لا يَجِدون إلاّ جُهْدَهمْ فيَسْخَرون منهمْ ، سَخِرَ اللهُ منهمْ ، ولهمْ عذابٌ أليمٌ . »

وعن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : دخلَتْ علَيَّ امرأةٌ معها ابنتان لها تسأل ، فلم تجد عندى شيئاً غيرَ تمرة ، فأعطيتها إياها ، فقَسَمَتْها بين ابنتيها ، ولم تأكل منها ، ثم قامت فخرجت ، فدخل النبى — صلى الله عليه وسلم — علينا ، فقال : « من ابتُلِيَ[2] من هذه البنات بشيء كنّ له سِتْراً[3] من النار . »

أى من اختبِر بذرية من البنات فقام بتربيتهن راضياً بنعمة الله عليه كنّ له حجاباً ووقاية من النار .

ومع أن الدين الإسلامى رغب فى الصدقة وحث عليها ، وجعلها من أبرز صفات المؤمنين فإنه دعا إلى العمل ، قال تعالى: « هُوَ الذى جَعلَ لكم الأرضَ ذَلولاً[4] ، فامشُوا فى مَناكبها ، وكلُوا مِن رزقِه . »

---

(١) يغتابون ويعيبون . (٢) اختبر .
(٣) حجاباً ووقاية . (٤) لينة لاصعوبة فيها .

اليد العليا خير من اليد السفلى :

و إن الدين الإسلامى قد أوصى الفقراء ألا يأخـذوا الصدقة إلا إذا كانوا فى حاجة إليها . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «اليد العليا خيرمن اليد السفلى» أى اليد التى تعطى خير من اليد التى تأخذ . وفى هذا حث ودعوة إلى السعى لكسب الرزق من طريق العمل.

غير أن هناك أناساً يقعد بهم المرض عن كسب قوتهم ، فيمدون أيديهم يطلبون عطف غيرهم و بره ، فهؤلاء يستحقون الإحسان والعطف والشفقة ابتغاء مرضاة الله .

و إنه لمن قساوة القلب أن يتناول الإنسان من ألوان الطعام ما يتخمه ، وجاره ينهب قلبَه الجوعُ ، ويحول بينه و بين الهجوع ، أو يرفل فى حلل الحرير والديباج والصوف وذوو قرابته لا يجدون من رخيص الثياب ما يستر أبدانهم ، أو يتيه أولاده يوم العيد فى ثيابهم الجديدة وحولهم صبية وأطفال ما بين جائع عار، أو فقير محروم ، أو شريد مطرود .

فيأيها الأغنياء أدُّوا حقوق الفقراء ، واعلموا أن فى أموالـكم حقًّا معلوماً للسائلين والمحرومين فلا تغتصبوه . فإذا أديتم لهم حقوقهم فزتم بجنة عرضها السموات والأرض أعدها الله للمتقين ، الذين يتصدقون فى السراء والضراء .

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه   لا يذهب العرف بين الله والناس

فشاركوا فى تخفيف و يلات الإنسانية ، وصلوا الرحم ، وأغيثوا الملهوف ، وساعدوا الضعيف ، وأعطوا المسكين ، فهذا قرض حسن يضاعفه الله لكم أضعافاً كثيرة ، و يد بيضاء يردها الناس لكم فى المحن ، وجميل تسدونه فتجنون ثمرته حمداً وشكراً ، وثناء عطرا .

وتسابقوا فى الخيرات ، وأنشئوا الملاجىء ، وأقيموا المدارس والمستشفيات والمصحات ، وسارعوا إلى الإحسان ، وابذلوا أموالكم فى وجوه الخير بنفوس راضية ، وأفئدة راغبة . وتذكروا قوله تعالى :

« وَمَا تُنْفِقوا من خَيْرٍ يُوَفَّ إليكم ، وأنتم لا تُظْلَمون . »

ومن الواجب أن نبث الروح الإنسانى فى الشعب ؛ حتى يفكر الموسر فى المعسر ، ويفكر الغنى فى الفقير ، وننظم الإحسان تنظيما كاملا ؛ حتى نعين المريض إذا مرض ، والعامل إذا تعطل عن العمل ، والشيخ إذا كبرت سنه وصار عاجزا عن الكسب ، وننشىء من الملاجىء ما يكفى كل العجزة واليتامى والمشردين من الأطفال ، ومن المستشفيات ما يتسع لجميع المرضى .

وإننا ننتظر منكم أيها الموسرون بذلا وسخاء ، لا شحاً وبخلا ، اتستلوا الأضغان من القلوب ، وتطبعوا النفوس على حبكم ، وتنالوا رضا ربكم . والله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه .

تنظيم الإحسان

غرس الروح الإنسانى فى الأمة :

لقد وصف الله جل شأنه المحسنين الأبرار فى قوله: « وَيُؤْثِرونَ على أنفُسِهم ولو كانَ بِهِم خَصاصةٌ . » فهم يقدمون غيرهم على أنفسهم ولو كان بهم فقر وحاجة إلى مايحسنون به .

ولايكفى أن يتبرع المحسنون ، ويتصدق المتصدقون ، بل يجب أن نغرس الروح الإنسانى فى الأمة ؛ حتى يفكر الأثرياء فى أحوال الفقراء ، ويشعر الأغنياء بما يشعر به البؤساء ، وننظم الإحسان والتبرعات تنظيما دقيقاً ؛ بأن نعين المرضى

والمساكين والمتعطلين عن العمل ، والشيوخ والمقعدين العاجزين عن الكسب ، والعمى واليتامى من المحتاجين، ونعطى المستحقين، ونحرم غير المستحقين ، ونجمع المشردين والسائلين ، وننشىء للجميع ما يحتاجون إليه من مستشفيات وملاجىء لرعايتهم وعلاجهم ، والتفكير فى شئونهم ، والعمل على تحسين أحوالهم ؛ حتى نكمل ما ينقصهم من علاج ، وغذاء وكساء ، وتعليم وتربية ، وعطف وشفقة ، ورحمة ، وعناية ، ويشعروا بأن لهم حقوقاً ، وعليهم واجبات . ويجب أن يعاملوا معاملة تتمثل فيها الإنسانية الكاملة .

فى العهد الماضى ، عهد الطغيان والاستعمار والاستغلال كان السائلون لدينا كثيرين منتشرين فى الميادين العامة ، وحول الأضرحة والمساجد . ولكثرتهم كان السائحون من الأجانب يقولون : إن مصر بلد السائلين . والحق أنه كان لدينا عدد كبير من السائلين ، وهم لا يعدمون من يعطف عليهم ، سواء أكانوا مستحقين أم غير مستحقين .

وفى هذا العهد السعيد قد أنصف الفقراء والعمال والفلاحون ، ونالوا حقوقهم كاملة، وعوملوا معاملة إنسانية إسلامية، فالسائلون من اليتامى والعجزة والمقعدين والعمى والصم والبكم قد أنشئت لهم مؤسسة فى المرج ، وملاجىء متنوعة، وجمعوا، وبحثت أحوالهم الاجتماعية والصحية والأسرية ، وعمل القائمون بأمورهم على إصلاحهم ، وتوجيه كل منهم إلى الوجهة التى تلائمه ، فالقادر على العمل الزراعى حول إلى الزراعة ، والصانع وُجه إلى المصنع ، وعلّم المستعد للعمل صناعة يكسب منها عيشه بعرق جبينه ، وحول المرضى إلى المستشفيات ، وأرسل المسنون والعاجزون عن العمل إلى الملجأ لرعايتهم، ودرست نفسية المجرمين من السائلين، وعوملوا معاملة خاصة بهم ، وعمل المشرفون على إصلاحهم من النواحى النفسية والاجتماعية والخلقية . ورفعت أجور الفلاحين والعمال والصناع ، فارتفع مستوى معيشتهم ، وقد أعطوا فى الميثاق الوطنى من الحقوق ما يعوض عليهم الظلم الذى لحقهم فى العهود الماضية

الظالمة . وسيكون نصف الأعضاء فى مجلس الأمة منهم ، وقد أصبح كثير من الأجراء ملاكا للأرض الزراعية .

وإن حالة الفقراء والمرضى واليتامى فى مصر فى العهود الغابرة تذكرنى بحالتهم فى إنجلترا فى القرن التاسع عشر . فقد كان غذاء الأطفال رديئا ، وملابسهم ممزقة، والعناية بالصحة معدومة. وقد وصف (شارلز دكنز) الكاتب العبقرى ، والمصلح الاجتماعى حال اليتامى واللقطاء فى الملاجىء بانجلترا فى القرن الماضى فى روايته المضحكة المبكية (أوليفرتويست) حيث كان أطفال الملجأ لا يجدون من الطعام ما يكفيهم ، وكان الطفل لا يعطى أكثر من مغرفة من الحساء فى الأكلة الواحدة ،ثم يمتص أصابعه حتى تحين الوجبة الأخرى ، واشتد الجوع بهؤلاء اللاجئين ، واصفرت وجوههم ، واقترعوا على من يتوجه إلى مدير الملجأ ليرجوه مضاعفة القدر المخصص لكل وجبة ، فأصابت القرعة (أوليفر تويست) ، وأقبل المساء ، وأخذ الغلمان أماكنهم على مائدة الطعام ، ووقف المدير ، ولم تمض هنيهة حتى التقموا مافى الأوانى ، وبدأت أعناقهم تشرئب إلى (أوليفر) . وكان جيرانه يدفعونه بأطرافهم خفية ؛ رغبة فى طلب الزيادة من المدير . فقام (أوليفر) وقدم إلى المدير الإناء والملعقة قائلا ، والذعر يملأ جوانب نفسه : « سيدى ، أرجو أن تعطينى مغرفة أخرى من الحساء . »

فاصفر وجه المدير ، ثم نظر إليه مستغربا، وسأله بصوت خافت : ماذا تقول أيها الطفل الشره » ؟

فأجاب (أوليفر) : « أرجو ياسيدى أن تسمح بإعطائى ملعقة أخرى . » فلم يطق المدير هذا القول ، وانهال عليه ضربا بكلتا راحتيه ، واجتمع مجلس الإدارة فى الحال ، وحدثت مناقشة عنيفة فى المجلس حول (أوليفر) لطلبه زيادة ملعقة أخرى من الحساء . وقرر المجلس التخلص منه ، وكتب إعلان علق على

جدار الملجأ الخارجي هذا نصه : « يمنح مجلس إدارة الملجأ مكافأة قدرها خمسة جنيهات كل من يتقدم إليه طالبا الغلام : (أوليفر تويست) ليساعده في عمله .

وبهذه الوسيلة تخلص الملجأ منه . فالحال في ملاجئنا اليوم أحسن كثيرا من حال الملاجيء في إنجلترا في عصر (شارلز دكنز) .

وقد تألم (الدكتور بارناردو) لحال الملاجيء المحزنة الألم كله ، فأخذ يعالج المرضى من الفقراء ، ويخفف آلامهم ، وأنشأ في البدء ملجأ يدعى بيت (الدكتور بارناردو) يضم بين جوانبه هؤلاء المهملين من أبناء السبيل الذين لفظتهم الحياة ، وتنكرت لهم الإنسانية ، وقام بتعليمهم ، والعناية بشئونهم الصحية والتعليمية والعملية ، حتى وجد كل منهم ما فقده من عناية الآباء ، وعطف الأمهات .

انتشرت هذه الملاجيء في المدن الكبيرة ، وكونت جماعات خيرية لجمع التبرعات لها ، والقيام بتنظيم شئونها . وتسود في هذه الجماعات الخيرية الأمانة والإخلاص ، وحب الإحسان والثقة . وبالمال الذي يجمع تنشأ ملاجيء تقوم برعاية اليتامى واللقطاء والعاجزين من الكبار والصغار ، وتأويهم حيث لا مأوى لهم .

وإذا أنشأنا عددا كافيا من الملاجيء أمكننا أن نقضى على جميع المتحايلين من السائلين الفقراء والضعفاء والمسنين . ولو اتبعنا الدين الإسلامي ، وأدينا الزكاة ، وأحسنا إلى الفقراء والمحتاجين ما كان هناك سائل أو محروم .

قال تعالى : « فأمَّا اليتيمَ فلا تَقْهَرْ . » أي فلا تظلمه ، ولا تهمل تعليمه ، والعناية بشئونه .

وقال الرسول صلى الله عليه وسلم : « خَيرُ بيتٍ في المسلمين بَيْتٌ

فيه يتيمٌ يُحْسَنُ إليه . وشرُّ بيتٍ فى المسلمين بيتٌ فيه يتيمٌ يُساء إليه . أنا وكافلُ اليتيم فى الجنَّةِ ..»

وقال : لكلِّ شىء مفتاحٌ ، ومفتاح الجنةِ حبُّ المساكين والفقراء . »

وقال : « الساعِى علَى الأرملةِ والمِسكين كالمجاهدِ فى سبيل اللهِ . »

والساعى عليهما هو من يقضى حاجتهما من مسكن وطعام ولباس .

فلو اتبعنا الدين الإسلامى ونظمنا الإحسان، وأكثرنا الملاجىء والمستشفيات وأحسنا إدارتها ، وقام كل فرد فيها بواجبه ما شعر فقير بحاجة ، وما مد مسكين يده ، وما شكا مريض سوء المعاملة فى أى مستشفى .

وليس فى استطاعة أى دولة فى العالم أن تقوم وحدها بكل مشروع تحتاج إليه بلادها ، فيجب أن يقوم القادرون من الأفراد بواجبهم ، وبخاصة الأغنياء والموسرون منهم . وإن قانون سنة ١٩٣٣ الذى يحرم السؤال (التسول) لم ينفذ إلا فى عهد الثورة للقضاء على هذه المشكلة. بعدأن أنشىء المدد الكافى من الملاجىء .

وإذا أحسنا معاملة اللاجئين فى المؤسسات والملاجىء، ودرسنا نفسية كل منهم، وعاملناهم كما يعامل الإنسان الحر لا السجين فى القفص ماهربوا منها ، وما حاولوا إحراقها . فإذا وجدوا من يعطف عليهم ، ويؤاسيهم ويعالجهم ، ويرشدهم إلى الطريق المستقيم ، طريق العمل الصالح ، ووجدوا فيها الطعام الصحى ، واللباس الضرورى ، وتعليم صناعات ملائمة، ووجدوا فراش النوم المريح — ما شكوا وماهربوا.

وفى استطاعة الطلبة والطالبات فى الجامعات أن يسهموا فى مشروعات المؤسسات والملاجىء أسوة بالطلبة فى الأمم الأخرى ؛ فكثيرا ما يقومون بمساعدة المشروعات الخيرية التى تتطلبها الإنسانية ؛ كتخصيص يوم يجمعون

فيه التبرعات لمستشفى من المستشفيات ، أو ملجأ من الملاجىء ، وكإقامة حفل في المساء لليتامى واللقطاء والمشردين من أطفال المؤسسات والملاجىء، تعمل فيه كل الوسائل لإدخال السرور على نفوسهم باللعب والضحك معهم ، والتمثيل الهزلي أمامهم ، ثم يحييهم الطلبة والطالبات في أثناء طعامهم ، ويهدون إلى كل منهم هدية قبيل الانتهاء من الحفل ، ثم يؤخذون إلى المؤسسة أو إلى الملجأ .

وكثيرا ما يتبرع الأغنياء بأوروبة وأمريكا بآلاف الجنيهات لمشروع خيرى ، ويشترطون أن يذكر أمام المتبرع : « فاعل خير » ؛ لأنهم لا يريدون جزاء ولا شكورا ، ولا يفكرون في الإعلان عن أنفسهم كما نفعل .

إلى الأغنياء والفقراء :

فيأيها الأغنياء ، راعوا حقوق الفقراء ، وأعطوهم من مال الله الذى أعطاكم؛ فقد تبنون قصراً لن تسكنوه ، وتشيدون ما لن تتمتعوا به ، وتزرعون حقولا لن تجنوا ثمارها . وأحسنوا إلى المساكين ، وساعدوا الجماعات والمؤسسات الخيرية ، ولا توصدوا الأبواب في وجوه المحتاجين ، وأسهموا في إنشاء الملاجىء لإيواء اللقطاء والعجزة واليتامى والضعفاء ، ولا تظنوا أن جمع المال هو السعادة ، أو السعادة هى جمع المال وكنزه ؛ فالفقراء في أكواخهم قد يكونون أكثر سعادة من الأغنياء في قصورهم .

ويأيها الفقراء ، ارفعوا أيديكم إلى السماء ، ولا تسألوا إلا خالق الشمس والقمر ، ومرسل المياه ومنزل المطر ، اسألوا من يعز من يشاء ، ويذل من يشاء ، إنه على كل شيء قدير . ولا تظنوا أن الفقر عار أو منقصة ، فليس من العار أن تكون فقيرا ، ولكن من العار أن تكسل عن العمل ، وتجلس بجانب الحائط ، وتمد يدك . ليس من العار أن تنشأ فقيرا ، فما في الفقر عيب ولا

منقصة ، فالفقر من أكبر العوامل لرقى هذا العالم فى الفكر والاختراع والإبداع. فإذا نظرت نظرة الباحث المدقق وجدت أكثر العلماء ، وأعظم الكتاب ، وأكبر المصلحين كانوا من الفقراء . فالفقر ساقهم إلى العمل ، والمثابرة والجد فى سبيل الحياة ، حتى وصلوا إلى مآربهم ، وأدركوا أمانيهم ، ووصلوا إلى مخترعاتهم .

ولو خلق العالم كله غنيا لقلت الأيدى العاملة ، وجمدت العقول النابهة . فالحاجة تفتق الحيلة ، وهى وحدها تحمل الإنسان على أن يهب وقته وراحته فى سبيل إدراك أغراضه التى يسعى ليدركها . فهناك كثير من الأذكياء لا يعملون إلا حينما يشعرون بأنهم فى حاجة إلى العمل ؛ كى يصلوا إلى المال الذى يريدونه. فأمثال هؤلاء الأفراد ربما لا تجنى من ورائهم ثمرة إذا خلقوا أغنياء . ولا يكمل نجاح العالم إلا إذا كان هناك تضامن وتعاون وتكافل بين الأغنياء والفقراء ، وشعر كل منهم بحاجته إلى الآخر ، وقام كل فرد بواجبه . وليس معنى هذا أننا ندعو إلى إهمال حقوق الفقراء ، ولكننا ندعو الفقراء إلى العمل؛ حتى لا يعيشوا عالة على غيرهم ، ولا يمدوا أيديهم إلى إنسان ، وندعو الأغنياء إلى التبرع والتصدق والإحسان ؛ لأن فى أموالهم حقا معلوما للسائل والمحروم ؛ كى يطهروا أنفسهم وأموالهم بالزكاة والإحسان إلى الفقراء والمساكين .

قال تعالى فى وصف الأبرار : « وَيُطعِمون الطَّعامَ عَلَى حُبِّهِ مِسكيناً وَيَتيماً وَأسيراً . إنَّمـا نُطْعِمُكم لِوَجْهِ اللهِ ، لا نُريدُ مِنكم جزاءً وَلا شُكوراً . »

وقد سُئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أىُّ الإسلامِ خيرٌ ؟

فقال : « تُطْعِمُ الطَّعامَ ، وتقرأُ السلامَ على مَنْ عَرَفْتَ ومَنْ لم تعرفْ . »

وقال : « الرَّاحمون يَرْحمهُم الرحمنُ . »

« ارحَموا مَنْ فى الأرْضِ يَرْحمكُم مَنْ فى السَّماء . »

الإسلام يدعو إلى العمل وكسب الرزق

«العمل شرف. والعمل حق، والعمل واجب. والعمل هو الحياة.» (الميثاق)

الدين الإسلامى خير دين أخرج للناس؛ لما جاء به من أحكام وآداب، لو تمسك المسلمون بها لعاشوا فى ظل السعادة آمنين هانئين. لقد حث هذا الدين الحنيف على العمل، وكسب الرزق. ودعت الأديان كلها إلى العمل. وإن شعارنا اليوم: العمل الصالح هو الحياة، والحياة هى العمل الصالح. ولا تعد الحياة حياة بغير العمل المثمر المنتج.

قال تعالى: « فَامْشُوا فى مَنَاكِبِها وكُلُوا من رِزْقِه. »

ويقول جل شأنه: « فإذا قُضِيَتِ الصلاةُ فانتَشِروا فى الأرض، وابتَغوا من فَضْلِ اللهِ. » انتشروا فى الأرض للعمل والزراعة، والصناعة والتجارة، راجين الرزق من فضل الله.

وقال عز وجل: « ولِكلٍّ درجاتٌ مِمَّا عمِلوا، ولِيوفِّيَهم أعمالَهم، وهُمْ لا يُظلمون. »

وقال جل شأنه: « إنِّى لا أُضيعُ عملَ عاملٍ مِنكُمْ، مِن ذَكَرٍ أو أُنثَى. »

فالعمل مصدر القوة، ومصدر الحياة. يقول الله تعالى:

« وقُلِ اعمَلوا فسيَرَى اللهُ عمَلَكم ورَسولُه والمؤْمنون. »

ويقول عز شأنه: « وأنْ ليس للإنسان إلاَّ ما سَعَى. »

ويحث على العمل للدين والدنيا معاً، فيقول تبارك وتعالى:

« وابتَغِ فِيما آتاكَ اللهُ الدَّارَ الآخرةَ، ولاَ تنْسَ نصيبَكَ مِنَ الدُّنيا. »

العمل أساس العمران :

العمل أساس العمران الحافل بالخير ، وروح الحياة الدائبة النشيطة . وسبيل الـكمال فى هذا الوجود الذى نعيش فيه . وهو منبع فياض بالثروة والمال . ولولا العمل ما كانت تلك القصور الشاهقة ، ولا هذه الحدائق الغناء التى ننعم بما فيها من الطيبات . ولولاه ما رأينا سفينة تجرى على سطح الماء ، ولا طائرة تحلق فى الفضاء . والعمل المثمر هو طريقنا فى تحصيل هذه النعم الجليلة الوافرة ، التى أنعم الله بها علينا . والعاملون فى كل أمة وكل عصر هم الذين شيدوا لنا صروح الحضارة الزاهرة ، وأقاموا دعائم المدنية الراقية ، التى أفاضت علينا الـكثير من الخير والهناءة والسعادة . وقد لحظ النبى صلى الله عليه وسلم أن رجلا يلازم المسجد معظم ساعات النهار ، فسأله عمن يعوله ، فقال له : يعولنى أخ لى .

فقال له الرسول الأمين : « إن أخاك لأكرم عند الله منك . » فالرسول يوضح لنا أن الإسلام دين عمل وجهاد .

وللإسلام بالنسبة للعمل موقف عظيم تحسده عليه كل الأديان؛ فهؤلاء العرب الأمجاد فى الصدر الأول من الإسلام ، حينما كان هذا الدين الـكريم مثلهم العالى الذى إليه يهدفون ، وعقيدتهم الراسخة التى على ضوئها يهتدون — دانت لهم الدنيا ، وقبضوا على منابع الثروة والمال ، وأخذ الخير يتفجر من بين أيديهم ، والنضار يسيل تحت أقدامهم .

بالعمل تنهض الأمم :

فبالعمل تنهض الأمم ، وتسود الشعوب ، وينجح الأفراد فى كل مجتمع من المجتمعات . و بغير العمل لا يستطيع الإنسان أن يعيش عيشة الحر الـكريم . و إن الرجل الخامل الـكسلان الذى ينام نهاره ، و يقضى ليله فى اللهو والميسر والملاذ

عيال على المجتمع ، ولا يعد من الأحياء . والكسل الجسمى والعقلى من أكبر أعداء الإنسان فى هذه الحياة . وما الفائدة من ذكاء المرء وقوته الجسمية إذا كان خاملا كسلا لا يميل إلى العمل ، ولا يعنى بالإنتاج ؟ قال القديس بولس : «لا طعام لمن لا عمل له . »

وفى التاريخ لا يحكم على الإنسان بمقدار عمره ، بل يحكم عليه بمقدار عمله أو أثره فى الحياة . فقد يحيا الشخص حياة قصيرة ، و يملؤها بالأعمال الجليلة . وقد يعمر و يحيا حياة طويلة ، ولكن لا نجد له أثرا أو عملا جليلا يذكر به .

ليس من مات فاستراح بميت إنما الميت ميت الأحياء

وللدعوة إلى العمل والحث عليه قال الرسول الكريم : « إذا قامت القيامة ، وكان فى يدِ أحدِكم فَسيلة[1] ، فلا يشغلْه هولُ الساعةِ عن غرسِها . » يالله ! ما أعظم هذا الرسول الكامل الذى يحث أمته على العمل فى أحرج الساعات . والزراعة مصدر ثروة لا ينضب معينه ، ومورد رزق لا ينقطع ، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

« أفضل الكسب الزراعة ؛ فإنها صنعة أبيكم آدم . » والزراعة أساس كل حضارة فى التاريخ . والمدنيات القديمة والحديثة مازالت تعتمد على الزراعة . وقد نوه الإسلام بما للزراعة من شأن فى نظام الكون ، وتوفير الثروة ، وتحصيل مواد المعيشة . قال تعالى : « والأرضَ فرشناها فَنِعمَ الماهِدون » أى بسطناها لكم ، ومهدناها لتستطيعوا الانتفاع بزراعتها ، وقال جل شأنه : «وفَجرنا فيها مِن العيونِ ، لِيأكلوا من ثمرِه . » أى أن الله تعالى أجرى الينابيع فى الأرض لنروى بها الأرض الزراعية ؛ كى يأكل الناس من ثمارها .

ويقول الغزالى فى كتاب الإحياء : كان النبى جالسا مع أصحابه يوما ، فرأوا شابا

---

(١) نخلة صغيرة .

ذا جلد وقوة ، وقد بكر يسعى ، فقالوا : ويح هذا (يقصدون بذلك إظهار الشفقة والترحم). لو كان شبابه وجلده فى سبيل الله[1] .

فقال عليه الصلاة والسلام : « لا تقولوا هذا ، فإنه إن كان خرج يسعى على ولده صغارا فهو فى سبيل الله ، و إن خرج يسعى على أبوين ضعيفين ، ليغنيهم و يكفيهم فهو فى سبيل الله ، و إن خرج يسعى على نفسه يُعفها[2] فهو فى سبيل الله، و إن خرج يسعى رياء ومفاخرة فهو فى سبيل الشيطان . » وقال : « أطيب الكسب عمل الرجل بيده »

فالرسول الكريم يحض على السعى فى طلب الرزق للصغار من الأبناء ، والكبار من الآباء ، والسعى على النفس ، و يعد كل هذا سعيا فى سبيل الله يثاب عليه الإنسان ، و ينهى عن الرياء والمفاخرة فى السعى ؛ لأن ذلك ليس فى سبيل الله ، بل هو فى سبيل الشيطان ، و يحث الرسول على العمل ، وعلى الصناعات اليدوية .

الإسلام يحارب الفقر بالعمل :

والإسلام يحض على العمل ، ويحارب الفقر حربا عنيفة لا هوادة فيها . فالرسول يقول : « لأن يأخذَ أحدُكم حبلاً ، ثم يَغدوَ إلى الجبلِ ، فيحتطبَ ، فيبيعَ ، و يتصدقَ خيرٌ من أن يسألَ الناسَ » وفى رواية أخرى: « والذى نفسى بيدهِ لأن يأخذَ أحدُكم حبلَه فيحطتبَ على ظهرِه خيرٌ له من أن يأتىَ رجلاً فيسألَه أعطاه أو منعه . » ويقول : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا . » ويقول صلى الله عليه وسلم: « التمسوا الرزق فى خبايا الأرض. » بزراعتها واستخراج ما فيها من المعادن، و يقول عمر بن الخطاب رضى

(١) أى فى الطاعات الدينية من صلاة وصيام وجهاد وغيرها .

(٢) يقصد رسول الله يكفها عن الحرام .

الله عنه : «لا يقعدْ أحدُكم عن طلبِ الرزقِ وهو يقولُ : اللّهم ارزقْني . وقد علم أن السماء لا تمطرُ ذهبا ولا فضة، ولكن الله يرزقُ بعضَهم من بعض . » فكل إنسان يريد أن يدرك حظه من الحياة ، ويعيش سعيدا من غير سعى وعمل هو جاهل أحمق . يقول الشاعر العربى :

ومن أراد العلا عفوا بلا تعب   قضى ولم يقضِ من إدرا كـها وطَرا

لا بـد للشهد من نحل يمنّعه   لا يجتنى النفع من لم يحمل الضررا

ولما كان الدين الإسلامى قد رفع من شأن العمل ، ورغب فيه ، وضع له نظاما يحقق الغاية منه ، وهو ألا يكون بإرهاق النفس ، وتحميل الجسم ما هو فوق طاقته ؛ فذلك مما يؤدى ولا شك إلى ضعف البدن ، وعجزه عن العمل . والعمل كما وضع الدين نظامَه يكون بالمواظبة والإتقان والإخلاص . والرسول يقول : « أحبُّ الأعمالِ إلى اللهِ أدومُها وإن قلَّ . »

وغيرُ شك أن كل أمةٍ مجدة نشيطة عاملةٍ تتسع أرضها ، ويعظم شأنها ، وتَخفُق أَلْوِيتُها فى البر والبحر ، وعندئذ تروج تجارتها ، وتنتشر لغتها ، ويسيح أبناؤها فى أقطار الأرض طلباً للعيش وكسب المال . وبقدر ما تكون عليه الأمة من نشاط وعمل وكفاح يكون نصيبها من خير الدنيا ونعيمها .

وقد أصابت الأمة العربية بالعمل فى عصورها الزاهرة حظاً عظيما ؛ فهذا أبو بكر رضى الله عنه كان بزّازاً يبيع الثياب . وفى اليوم الذى بويع فيه بالخلافة خرج إلى السوق سعياً وراء الرزق مع أنه كان من الأثرياء قبل الإسلام ، وأنفق ثروته فى سبيل الإسلام — فعارضه الصحابة فى ذلك ؛ خوفاً من أن تَشْغَلَه أمور التجارة عن النهوض بأعباء الخلافة ، وفرضوا له كفايته من بيت المال . وكان عمر سمساراً . وكان عثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب يشتغلان بالتجارة . وكان عمرو بن العاص جزاراً .

الإسلام دين عمل :

فالدين الإسلامي دين عمل ، ويحثُّ على العمل . وكل أمة تستمرىء الكسل، وتُؤْثِرُ الراحة — خليق بها أن تتوارى ، وأن تتخلف عن ركب الحياة . وقد أوعد الرسول — صلوات الله عليه — الكسلان بأشد العقاب ، فقال : « أشدُّ الناس عذاباً يوم القيامة المكفيُّ الفارغُ . » والمكفيُّ : هو الذى يكفيه غيره ضروراتِ العيش . والفارغ : هو المتعطل .

وكان لأبى الأسود الدؤلى ابن يقال له أبو حرب، فلزم منزل أبيه فى البصرة ، لا ينتج أرضاً ، ولا يطلب رزقاً ، فعاتبه أبوه فى ذلك فقال : « إن كان لى رزق فسيأتينى ، فقال أبو الأسود :

وما طلبُ المعيشــــة بالتَّمنِّى ولكن ألق دلوك فى الدلاء
تجىء بملئها طوراً(١) ، وطَوراً تجىء بحَمْأةٍ(٢) وقليل ماء

وبهذا أرشد أبو الأسود ابنه إلى المعنى المقصود من التوكل ، وأن المعيشة تكون بالعمل والكد وبذل الجهد والتجارة ، فتارة يكسب الإنسان كثيراً ، وتارة يكسب قليلا .

فالتشجيع على العمل ، والسعى فى طلب الرزق، والاعتماد على النفس فى البحث عن العيش واجب كل الوجوب ؛ فالعمل أقتل دواء للفقر ؛ وأنجع علاج للفاقة . وقد حث الرسول صلى الله عليه وسلم على العمل ؛ فقال: « إن اللهَ كتبَ عليكم السعىَ فاسعَوْا . » فالحياة ليست يوم عيد ، ولا يوم حداد ، وإنما هى يوم عمل .

---

(١) مرة. (٢) طين أسود .

وإننا الآن سائرون بسرعة نحو مكافحة الفقر ، بنشر الصناعات المختلفة ، وإنشاء المصانع الكثيرة ، وتنظيم العلاقة بين ملاك الأراضي والمستأجرين ، والعمل على رفع مستوى المعيشة بين الفقراء ، قال رسول الله : «اتخذوا لدى الفقراء صنائع[1] فإن لهم الدولةَ يوم القيامة .» فالرسول الكريم يأمر بالإحسان إلى الفقراء ، وإعطائهم حقهم ، والتفكير في شئونهم ، ومد يد المساعدة لهم .

إن الإسلام يمجد العمل ، ويكثر من الحث عليه في مواضع كثيرة من الكتاب الحكيم ، وسنة الرسول الكريم . يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « إذا صلّيتم الفجرَ فلا تناموا عن طلب أرزاقكم . » ويقول : « ما أكل أحدٌ طعاما قط خيرا من أن يأكلَ من عملِ يدِه . وإن نبيَّ اللهِ داودَ كان يأكلُ من عملِ يدِه .»

وروى أن عمر رضى الله عنه قال : « إنى لأرى الشابَّ فيُعجِبنى ، فأسأل : هل له من كسب ؟ فيقال : لا ، فيسقط من عينى . »

ويحدثنا التاريخ أن الرومانيين لم يبيدوا ، ولم يسقطوا ، ولم يذهب سلطانهم الكبير إلا حين احتقروا العمل ، وألفوا البطالة والكسل ، واعتمدوا في أعمالهم على العبيد والخدم . وقد حذر الرسول عليه الصلاة والسلام من البطالة وسوء نتائجها . فقال : « إذا قصَّر العبد في العمل ابتلاه الله بالهمِّ .» فالهموم والأكدار من نتائج البطالة والكسل والفراغ .

العمل في الإسلام أسمى منزلة من الانقطاع إلى العبادة .

ولم يكتف الدين الإسلامي بالحث على السعى والعمل ، بل جعل العمل أسمى منزلة من الانقطاع إلى العبادة ؛ فقد روى أن قوما قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا :

(١) الصنيعة : المعروف ، والإحسان ، والطعام ، وجمعها صنائع .

إن فلانا يصوم النهار، ويقوم الليل ، ويكثر الذكر ، فقال : « أيكم كان يكفي[1] طعامه وشرابه ؟ »

فقالوا : كلنا . فقال : « كلكم خيرٌ منه . »

فالرسول يدعو إلى العمل ، والسعي في طلب العيش الحلال .

وقد خرجت ألمانيا بعد الحرب العالمية الأولى[2] فقيرة ، مكسورة الجناح ، ولكن بالعمل ، والمثابرة على العمل ، استعادت قوتها وعظمتها ، واستطاعت أن تحارب العالم كله في الحرب العالمية الثانية . وكان العامل الألماني إذا قيل له : إن بلادك في حاجة إلى أن تشتغل عشر ساعات بأجر كذا أطاع ، وعمل بإخلاص ونفس راضية ، لينهض بأمته ، ويعيد إليها مجدها .

إن الإسلام وهو دين الفطرة السليمة عاب الكسل ، وذم القعود عن العمل ، فسبق بذلك المصلحين في العصر الحاضر من أبناء الأمم الراقية ، الذين أخذوا يعنون بمقاومة الترف والدعة والتواكل ، والميل إلى الكسل ، بتشجيع الصناعة والهجرة إلى البلاد النائية ومجاهل الأرض ، ومكافأة المجيدين من العمال والصناع لتشجيعهم على زيادة الإنتاج والإخلاص في العمل .

وفي البلاد المتمدنة يعطى المتعطل إعانة إذا ذهب إلى مكتب العمل ، يلتمس عملا لم يجده ؛ لأنه أثبت بهذا استعداده للعمل . فاستحق المكافأة من الدولة ، وتقرير إعانة له ولأسرته ، إلى أن يجد عملا . وتختلف الاعانة باختلاف عدد أفراد الأسرة . وبهذه الوسيلة يستطيع العاجز أن يعيش . ويتمكن المسن من أن يجد الوسائل الضرورية للحياة . وذلك هو الضمان الاجتماعي الذي نفكر فيه اليوم .

---

(١) يقصد الرسول : يكفيه طعامه .
(٢) ١٩١٤ — ١٩١٨ م .

إن الإسلام وهذا موقفه من العمل لجدير بأهله فى مشارق الأرض ومغاربها — أن يكون شعارهم الكفاح المتصل ، والعمل الدائب ؛ فلقد كان هذا شأن سلفهم الصالح ، الذين نعموا بالحياة الطيبة ، والعيش الرغيد ، وظفروا بالقوة والسلطان ، والبطش الشديد .

و إذا درست حياة العظماء من الرجال ، وجدت أنهم بتوفيق الله فى العمل المستمر ، والكفاح والمثابرة والصبر ، وصلوا إلى ما نالوه من قوة وعظمة . ولله در شاعرنا الموهوب المرحوم أحمد شوقى حيث يقول :

وما نيل المطالب بالتمنى ولكن تؤخذ الدنيا غلابا

وأعتقد أننا بالعمل المثمر ، مع الإخلاص ، والتفكير فى المصلحة العامة ، مصلحة الوطن وحده ، نستطيع أن نعيد مجد آبائنا ، وحضارة أجدادنا ، وعظمة أسلافنا . لقد كنا منار العالم فيما مضى فى العلوم والآداب والفنون . و بالإخلاص فى العمل لجمهوريتنا العربية المتحدة الفتية ، والتفكير فى الوطن العربى والوحدة العربية الشاملة ، نستطيع أن نقود العالم فى القريب العاجل ، كما كنا نقوده فى العلم والفن والحضارة والمدنية فيما مضى .

الميثاق الوطنى والعمل :

وقد ورد فى الباب الثامن من الميثاق الوطنى ما يأتى :

« العمل شرف . والعمل حق . والعمل واجب . والعمل هو حياة . إن العمل الإنسانى هو المفتاح الوحيد للتقدم . » « هناك عمل واحد للرجل الواحد . إن ذلك لم يكن إجراء عدل فقط ، ولكنه محاولة للوصول إلى أن يكون الفرد المناسب فى العمل المناسب لخبرته وقدرته » .

والحق أن كل فرد فى المجتمع مطالب بأن يعمل ، و ينبذ حياة الكسل ،

و إضاعة الوقت فيما لا يفيد ، والنوم نهارا ، والعبث ليلا ، كما يفعل الأغنياء المتعطلون بالوراثة . و إن الأمة تنتظر من كل وطنى أن يؤدى رسالته ، و يقوم بواجبه فى الحياة ، فى الناحية التى أعد نفسه لها ، سواء أكان غنيا أم فقيرا ، رفيعاً أم وضيعاً ، فالأمة فى حاجة إلى مواهب كل فرد من أبنائها ؛ لتنتفع بها فى السلم والحرب ، وفى الرخاء والشدة . و إذا كان للإنسان الحق فى أن يعمل ، فليس له الحق فى أن يقضى حياته بغير عمل.

إن كل إنسان مدين بحياته لبلاده ، فيجب أن تنتفع بلاده بتلك الحياة،وأن يفرض العمل على كل إنسان ، فلا يسمح لأحد أن يكون متعطلا ، ولو كان غنيا بالوراثة . ولكى ننهض بالوطن سريعاً يجب أن يعمل كل فرد من أفراده فيما خلق له ، و يهجر حياة النوم والخمول والكسل ، والجلوس بغير عمل؛ فليس الوقت من ذهب فحسب ، ولكن الوقت هو الحياة . فمن أضاع وقته فقد أضاع حياته . فليعمل كل فرد منا ، حتى يكون له أثر خالد فى الحياة .

دقاتُ قلبِ المرء قائلةٌ له إن الحيـــــاةَ دقائق وثوانِ

و إن نظرة واحدة إلى المقاهى لدينا تبين لنا أنه ليس للوقت قيمة فى نظر الجالسين فيها باستمرار ، بغير عمل. فإذا حكمنا على الأمة بما نحكم به على هؤلاء المتعطلين الذين لاعمل لهم - كان الحكم قاسياً ، يأباه كل عربى حر ، يفكر فى الوطن ، و يحيا للوطن ، و يخلص للعروبة ، و يعمل للنهوض ببلاده .

ومن الحقوق الأساسية التى كفلها الميثاق لكل فرد : « حق كل مواطن فى عمل يتناسب مع كفايته واستعداده ، ومع العلم الذى يحصل عليه . إن العمل فضلا عن أهميته الاقتصادية فى حياة الإنسان — تأكيد للوجود الإنسانى ذاته »، ومظهر للحياة الحقة .

وقد برهنت التجارب على أن العربى المصرى إذا أعطى الفرصة استطاع أن يكون صانعاً ماهراً ، أو تاجرا موفقا ، أو زارعا ناجحا فى عمله .

وإن الصحراء الشرقية تفيض بالمعادن . وإن فى أسوان كنوزا ثمينة من الحديد وغيره ، وبين البحر الأحمر ووادى النيل مناطق بها من المعادن الذهب والفضة ، والنحاس والزمرد والكروم ، والزنك والرصاص والنيكل ، والقصدير والمنجنيز ، والنترات والمغنزيوم والفوسفات والكبريت وغيرها. وليس فى استطاعتنا الانتفاع بهذه الثروة ، وهذه الكنوز الثمينة ، إلا إذا كثر لدينا العلماء المكافحون ، والعمال الماهرون ، واستطعنا استخراج هذه الكنوز من باطن الأرض ، والانتفاع بها فى الصناعة والتجارة .

وإن كان هناك عيب فى مدارسنا الزراعية والصناعية والتجارية فهو العناية بالنظريات أكثر من العناية بالناحية العملية . وربما كان هذا أكبر سبب فى عدم إقبال المتخرجين فى هذه المدارس على العمل الحر فى حياتهم العملية . ولسنا فى شك مطلقاً من أن العلم قوة ، لا بل أكبر قوة فى يد الإنسان ، وهو قوة اليوم كما كان قوة بالأمس ، وسيكون قوة إلى الأبد ، ولكننا فى حاجة إلى العلم الذى يؤدى إلى العمل، والعلم الذى يمكن تنفيذه والانتفاع به عملياً بتحويله إلى عمل ، فالعلم بلا عمل لا خير فيه ، مثله مثل شجرة بغير ثمر . قال الرسول الكريم : « من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم ». وقال: « كونوا للعلم دعاة ، ولا تكونوا رواة . » أى ادرسوا العلم واعملوا به ، ولا تكونوا له كالرواة يقولون ما لا يفعلون . وقال جعفر الصادق رضى الله عنه : « يهتف العلم بالعمل ، فإن أجابه وإلا ارتحل» . وما الفائدة من دراسة الكهربا إذا كان المتعلم لا يستطيع أن يصلح الكهربا إذا انطفأ النور ؟ وما الفائدة من معرفة النجارة إذا كان النجار لا يستطيع أن يصلح بابا أو نافذة ؟ وما فائدة التعليم الزراعى إذا كنا لا نستطيع أن نصل إلى مضاعفة الإنتاج ، ونتغلب على آفات الزراعة ؟

ويتوقف نجاح الصانع فى حياته العملية على إعداده المهنى والعلمى ، وعلى حسن استعداده ، وسداد تفكيره ، وأمانته فى عمله ، ومتانته فى خلقه . ولا يكفى العلم

للنجاح فى الحياة ، بل يجب أن يصحب العلم بالعمل ، وحسن الخلق ، وصواب الرأى، والتفكير فيما يجب أن يفعل، وماينبغى أن يترك. قال المرحوم حافظ إبراهيم:

لا تحسبن العلم ينفع وحده   ما لم يتوج ربه بخلاق

وإذا نظرنا إلى التاريخ وجدنا أن مصر القديمة لم تكتف بالزراعة — كما اكتفينا نحن خطأ بسبب الاحتلال ؛ لأنه أدخل فى نفوس المصريين أن مصر بلد زراعى ، ولا يصلح إلا للزراعة . — بل عنيت بالصناعة والتجارة ، فكانت ماهرة فى صناعتها ، غنية بتجارتها ، ثرية بمنتجاتها . وإن زيارة واحدة لدار الآثار المصرية تبرهن لنا على أن المصريين لهم عقول يبتكرون بها، وأيد ماهرة يستخدمونها ، وعيون فاحصة يلحظون بها . فلا عجب إذا عرفوا قديما بالمهارة الصناعية ، وحب الفن والجمال ، والعلم والعمل ، فى وقت كانت فيه الأمم المتمدنة اليوم فى ظلمة وجهالة .

فالإسلام يدعو إلى العمل ، والسعى وراء الرزق . ولا يدعو إلى الخمول والكسل . ويعد العمل حقا للإنسان . وواجبا عليه. فالعمل هو الحياة . والحياة هى العمل . ومن العدالة أن يكون هناك عمل واحد للرجل الواحد ، فلا يوضع شخص فى عدة شركات ، فى حين أن الآخر لا يجد أى عمل يعمله . ومن الحكمة أن يختار الرجل الصالح للعمل الذى يجيده ، حتى ننهض ونصل إلى القمة فى أقصر وقت ممكن .

الفصل الحادى عشر

الإسلام ينادى بالتربية والتعليم

« علموا أولادكم فإنهم مخلوقون لزمان غير زمانكم »

« حديث شريف »

الدين الإسلامى دين علم ونور ، لا دين جهالة وظلمة ؛ فأول آية نزل بها الوحى ، فيها أمرٌ للرسول بالقراءة ، وتكرير لذلك الأمر ، وتنويه بشأن العلم والتعليم نلمسه فى إسناد التعليم إلى الله :

« اقرأْ باسمِ ربكَ الّذى خلَقَ ، خلَقَ الإنسانَ منْ عَلقٍ ، اقرأْ وربُّكَ الأكْرَمُ ، الذى علّم بالقلم ، علّمَ الإنسانَ ما لمْ يَعلم . »

وقوله تعالى مخاطباً نبيه : « وقُلْ ربِّ زدْنى علماً . »

وفى مواطن كثيرة نوه القرآن الكريم بشأن العلماء ، وما لهم من منزلة رفيعة فقال :

« هلْ يستوِى الّذين يعلَمون ، والّذين لا يَعلمون ؟ »

وقال : « يرْفع اللهُ الذين آمنوا منكمْ ، والذينَ أوتُوا العِلمَ درَجات . »

ودعا الرسول الكريم إلى التعليم وأوجبه فقال :

« علّموا أوْلادكمْ ، فإنهمْ مخلوقونَ لزَمانٍ غير زمانكم . »

ولم يقف عند الدعوة إلى نشر التعليم فحسب ، بل دعا إلى الاستمرار فى طلب العلم والتعلم ، والبحث والاطلاع فقال :

« لا يَزالُ الرَّجلُ عالماً ما طلَب العلم ، فإذا ظنّ أنّهُ قد عَلِم فقدْ جهلَ . »

الرسول يشجع التعليم :

وكان صلى الله عليه وسلم يشجع التعليم عملاً وقولاً ؛ فقد كان يطْلق سراح الأسرى إذا علّموا بعض المسلمين القراءة والكتابة ، حرصاً منه على ذيوع التعليم ونشره بين جمهرة المسلمين ، ولم يفته صلى الله عليه وسلم أن يجعل للمرأة نصيباً فى تعلم القراءة والكتابة ؛ فقد سأل الشفاء العدوية أن تقوم بتعليم زوجه السيدة حفصة القراءة والكتابة ، ضارباً بذلك أحسن الأمثال فى وجوب تعليم الفتاة ، مؤكداً ذلك بقوله : « طلبُ العلمِ فريضةٌ عَلَى كلّ مسلِم ومُسلِمة . »

وقد خرج صلى الله عليه وسلم ذات يوم فرأى مجلسين : أحدهما فيه قومٌ يدعون الله عز وجل ، ويرغبون إليه ، وفى الثانى جماعة يعلمون الناس فقال : « أمّا هؤلاء فيسألون اللهَ ، فإنْ شاء أعطاهم ، وإنْ شاء منَعهمْ . وأما هؤلاء فيعلّمون النّاس ، وإنما بُعِثْتُ مُعلِّماً . » ثم عدل إليهم وجلس معهم .

وبذلك ضرب النبى لنا خير مثل فى تشجيع العلم ونشر التعليم ، والإشادة بفضل المعلمين ، ومحاربة الجهل ، ومكافحة الأمية .

وحسبك أن تعلم أن العلم فى نظر الرسول قوام الدنيا ، وقوام الدين حيث قال : « مَنْ أَراد الدُّنيا فعَليه بالعِلم ، ومَنْ أَراد الآخرةَ فعَليهِ بالعِلم ، ومَنْ أرادهما معاً فعليه بالعلم »

وقال أيضاً : « النَّاسُ رجُلان : عالِمٌ ومتعلِّم ، ولا خيْرَ فيما سِواهما . »

وقد خيِّر أحد الحكماء بين المال والمُلْك والعلم ، فاختار العلم ، فأُعطى الملك والمال لاختياره العلم .

الخلفاء يجلون العلم والعلماء :

وكان الخلفاء ـ و بخاصة الرشيد والمأمون ـ يجلون الأدباء والعلماء ، ويغدقون عليهم المنح والعطاء . أكل أبومعاوية ـ وكان ضريرا ـ طعاما مع الرشيد ، فلما قام أبومعاوية لغسل يديه ، نهض الرشيد ، وأخذ الإبريق ، وصب الماء على يدى الضرير ، وهو لا يدرى ، ثم قال له : «أتدرى من يصب الماء على يديك ؟» قال : «لا».

فقال الرشيد : « أنا » . قال : أنت يا أمير المؤمنين ؟

قال : « نعم ، إجلالا للعلم » .

ومما يدل على إجلالهم للعلم أنهم كانوا يحثون أبناءهم على تلقيه و يرغبونهم فيه ، و يشجعونهم على دراسة الأخبار ، وحفظ الأشعار . فهذا عبد الملك بن مروان يوصى أبناءه فيقول : «يابنىّ تعلموا العلم ، فإن كنتم سادة فقتم ، و إن كنتم وسطا سدتم ، و إن كنتم سوقة عشتم . فالتعليم يجعل السادة فائقين ، و يصير المتوسطين سادة ، و يمكن السوقة من كسب العيش والحياة .

وذاك مصعب بن الزبير يقول لابنه : «تعلم العلم ، فإن لم يكن لك جمال كان لك جمالا ، و إن لم يكن لك مال كان لك مالا . » فالعلم زينة من لا زينة له ، ومال من لا مال له .

وذلكم الرشيد يعهد إلى سيبويه بتأديب ابنه المأمون ، و إلى الأحمر بتأديب ابنه الأمين . ومن وصيته التى يجب على المربين أن يتخذوها نبراسا لهم فى تربية أبنائهم ما يأتى : يا أحمر[1] ، إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه ، وثمرة قلبه ، فصير يدك عليه مبسوطة ، وطاعته لك واجبة ، فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين . أقرئه القرآن ، وعرفه الأخبار ، وروه الأشعار ، وعلمه السنن ، و بصره بمواقع الكلام و بدئه ، وامنعه من الضحك إلا فى أوقاته ، وخذه بتعظيم بنى هاشم إذا دخلوا عليه ، ورفع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه . ولا تمرن بك ساعة إلا وأنت مغتنم فيها فائدة تفيده إياها ، من غير أن تحزنه فتميت ذهنه . ولا تمعن فى مسامحته

(١) الأحمر : هو على بن الحسن .

فيستحلى الفراغ و يألفه . وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة ، فإن أباها فعليك بالشدة والغلظة » .

وفى هذه الوصية تتمثل الحكمة وسداد الرأى ، فهى تحتوى منهجا من أحسن المناهج الدراسية للمعاهد الثانوية ، فمن قراءة للقرآن الكريم ، إلى دراسة للتاريخ والأخبار ، ومن رواية للأدب والأشعار ، إلى تعلم السنن ودراسة اللغة و بلاغتها ، ومن تربية دينية أدبية علمية إلى تربية خلقية اجتماعية . و إن الجزء الأخير من الوصية خير دستور فى المعاملة الطبيعية ، والعقوبة المدرسية ، حيث يقول : « ولا تمعن فى مسامحته ، فيستحلى الفراغ و يألفه ، وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة ، فإن أباها فعليك بالشدة والغلظة .

اطلبوا العلم ولو بالصين :

وقد أفاض الحكماء والأدباء والفلاسفة فى هذه السبيل ؛ فالغزالى يقول : « من أصاب علما فاستفاده وأفاده ، كان كالشمس تضىء لنفسها ولغيرها وهى مضيئة » . وليس يغيب عن ذهننا ما قاله بعض الحكماء : « اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد . اطلبوا العلم ولو بالصين » . وقيل لأبى عمرو بن العلاء : « هل يحسن بالشيخ أن يتعلم ؟

قال : إن كان يحسن به أن يعيش فإنه يحسن به أن يتعلم » .

ولا جدال فى أن التعليم حق من حقوق الإنسان ، وضرورى من ضروريات الحياة ، كالماء والهواء والغذاء ، فإذا أراد أن يحيا وجب عليه أن يتعلم ، ووجب علينا القيام بتعليمه .

و إذا المعارف أشرقت فى أمة　　نالت أمانيها بغير توان

ولقد قيل : التعليم أفضل شىء يملكه أفضل الرجال ، وهو خير منحة يمكن

أن تمنح ، والجهل أس الرذائل ، فحياة الجهل موت ، والإنسان فى حاجة إلى العلم ؛ لأن العلم وسيلة الحياة ، وهو الجناح الذى نستطيع أن نطير به إلى السماء .

ولقد نبهت الحرب العالمية الأولى الأمم فى أمريكا وأوروبة إلى شعور جديد نحو التعليم ، فلما انتهت الحرب أخذت إنجلترا تفكر فى الوسائل التى تنهض بالتعليم ، فبعد أن كان إجباريا إلى الرابعة عشرة من العمر مدت مدة التعليم الإجبارى إلى سن الثامنة عشرة ، ورحبت بقانون التعليم سنة ١٩١٨ لرفع مستوى الجيل الجديد فى التربية والتعليم . وقد تحملت فى ذلك المشروع عبئا ماليا ثقيلا أكثر من العبء الذى كانت تتحمله قبل تلك الحرب ؛ لأنها واثقة بأن التعليم أول الواجبات ، وأكبر وسيلة للرقى . ولا غرابة ، فالتعليم بانجلترا أمر يهم الشعب والحكومة معا ؛ لأن كل فرد يشعر بفائدة التعليم وأثره .

قال الفيلسوف إرسمس : «أعطنى إدارة التعليم وأنا أتعهد لك بقلب العالم» .

وأنا أقول له : « أعطنى إدارة التعليم ، وأنا أتعهد لك بإصلاح العالم » .

ولقد قال بسمارك بعد الحرب السبعينية : « إننا غلبنا جارتنا بمعلم المدرسة » .

لماذا أمر الدين الإسلامى بالتعليم ؟

لسنا فى حاجة إلى أن نذكر ثمرات العلم والتعليم ، ومضار الجهل والأمية ، فمن المحال أن ترقى أمة من الأمم إلا بتعميم التعليم ، ولا وسيلة لإنقاذ الناس من شر الجهل والرذيلة إلا بالعلم ، فالمدنية والحضارة ، والتقدم فى العلم والاختراع ، والإبداع الذى نراه بأعيننا فى الأمم الراقية نتيجة التربية العامة ، والتعليم المنتشر بين جميع الطبقات .

بالتعليم نرفع مستوى الشعب :

كثيرا ما نسمع نقدا مرا عن انتشار أمراض (البلهارسيا والأنكلستوما) فى البلاد ، وكثرة السائلين والعجزة ، وفاقدى البصر، حتى صارت نسبة فقد البصر عندنا قبل الثورة أكثر من أى نسبة فى العالم . ونسمع أيضاً عن فساد الأخلاق ، وكثرة الجرائم والحوادث، ولو علمنا الأمة تعليما حقا وربيناها تربية حقة لارتفع المستوى الصحى والاجتماعى والخلقى . وقد أحسنت وزارة التربية والتعليم فى جعلها التعليم الثانوى وما فى مستواه بالمجان حتى يشمل الفقراء والأغنياء ، ولا يحرم أحد التعليم بسبب الفقر. ومن الواجب أن نعلم كل عربى إذا أردنا أن تتبوأ الأمة العربية مركزها اللائق بها بين الأمم ، فإن العلم سبيل الغنى والرقى .

ولكى يتحقق مبدأ تكافؤ الفرص قرر الرئيس المحبوب جمال عبد الناصر فى سنة ١٩٦٢ جعل التعليم الجامعى والعالى بالمجان، وأعطى الفقراء الفرصة فى أن ينالوا حقهم فى التربية إلى آخر مرحلة من مراحل التعليم ، حتى لا يقبر ذكاء فقير من الفقراء. و بهذه الوسيلة سبقنا كثيرا من الأمم الغنية. وهذه حسنة تضاف إلى كثير من حسنات الرئيس الملهم ، منقذ العرب والعروبة ، و بطل الحرية والاستقلال.

يجب أن نعلم الأمة حتى يقل الفقراء منها ، ولا نسمح للأطفال بالعمل إلا بعد التعليم . يجب أن نعلمهم حتى نعدهم للكسب ، ولحياة أحسن من الحياة التى يعيشونها غير متعلمين . يجب أن نعلمهم التعليم النظرى أولا ، ثم الصناعى أو الزراعى أو التجارى ثانيا ، ونبحث لهم عن عمل يسيرون فيه بعد معرفتهم حرفة من الحرف ، أو صناعة من الصناعات ، حتى نقضى على الجهل والفقر والمرض ، ولا يقبر ذكاء عربى من العرب .

إنكم إن فعلتم ذلك نشأ الجيل الجديد نشأة صالحة ، فسلم جسمه ، وحصف

عقله ، وكل خلقه، واستطاع أن يحقق لأمته ما تصبو إليه نفوسها من مجد مؤثل، وعزة خالدة .

ولكى تعيد البلاد الإسلامية مجدها القديم وعظمتها السالفة ، يجب أن تعمل على نشر التعليم وتعميمه بها ، فالجهل علة العلل ، وهو السبب الأول فى التخلف عن الأيام الأولى، أيام المجد والعظمة . والتعليم هو الوسيلة الوحدة للرقى فى كل ناحية من النواحى، والإسلام دين العلم والنور ، ولا عيب فى الإسلام ؛ فالإسلام يطالب بتعليم الرجل وتعليم المرأة، و « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » كما يقول الرسول الكريم . فمتى يأتى اليوم الذى يعمم فيه التعليم ؟ ومتى نقضى على الأمية ، ومتى نحتفل بدفن آخر أمى من العرب ؟

أثر العلم والتربية فى الإسلام :

قال تعالى : « هو الذى بَعَثَ فى الأُمِّيِّينَ رسولاً مِنهم ، يَتلو عَلَيهم آياتِه ، وَيُزَكِّيهِمْ ، ويُعَلِّمُهُمُ الكِتابَ والحِكمَةَ ، وإنْ كانوا مِنْ قَبلُ لَفِى ضَلالٍ مُبِينٍ . »

والمقصود من هذه الآية أن الله أرسل إلى الأميين رسولا منهم ليقرأ عليهم آياته ، ويطهر أخلاقهم ويقومها ويهذبها ، وليعلمهم الكتاب والحكمة ، ويثقف عقولهم ، ويربيهم ويهديهم الصراط المستقيم ، ولو كانوا من قبل فى ضلال مبين . فالعلم خير أنيس لمن كان وحيدا، وأحسن صديق فى الوحدة ، يعود الإنسان الصبر على السراء والضراء ، والغنى والفقر، والصحة والمرض ، والسعادة والشقاء، ويساعده على نيل ما يريده ، ويجعل البعيد قريبا، والغريب صديقا ، يحيى القلوب، وينير الأبصار . وأهل العلم سعادة لغيرهم ، وقادة لسواهم ، يتبع الناس آثارهم ، وينتفعون بآرائهم وأفكارهم .

وكفى العلم رفعة قوله جلت حكمته : « وقال الَّذِين أوتُوا العِلْمَ وَيْلَكُم ، ثوَابُ اللهِ خيْرٌ لِمَنْ آمنَ وعَمِلَ صالحًا . »

وقول النبي عليه الصلاة والسلام : « إن الحِكمَةَ تَزِيدُ الشرِيفَ شرَفًا ، وتَرْفعُ المملوكَ حتّى يُدْرِكَ مَدارِكَ الملوكِ . »

وقوله صلى الله عليه وسلم : « أقربُ النَّاسِ منْ دَرَجةِ النُّبُوَّةِ أهلُ العِلم والجِهادِ . »

لأن العلماء قد دلوا الناس على ما أتت به الرسل ، والمجاهدين قد جاهدوا بأنفسهم وسيوفهم على ما جاءت به الرسل .

والتعليم الحق يؤدى إلى رجاحة فى العقل ، و إضاءة فى الفكر ، وتفهم حقائق الأمور ، والأخذ بأحسن الأعمال والعادات ، والتحلى بأكمل الأخلاق، ويعود المتعلم التفكير العميق ، ويقوده إلى الابتكار والاختراع ، والنظر فى الكائنات والمخلوقات .

« أفلَا يَنظُرُونَ إلَى الإبِلِ كيفَ خُلِقَتْ ، وإلى السَّماء كيفَ رُفِعَتْ ، وإلى الجبالِ كيف نُصِبَتْ ، وإلى الأرضِ كيفَ سُطِحَتْ . »

وقد انتفع الغربيون بهذا النوع من التعليم ، فحاكوا الطبيعة ، وانتهجوا نهجها ، فنجحوا فى محاكاة الطيور فى طيرانها ، حتى أصبحنا نسافر بالطائرات من قارة إلى قارة ، بعد أن كنا نسافر بالإبل . ومهروا فى محاكاة السمك فى الغوص تحت الماء، فاخترعوا الغواصات التى تسير تحت الماء ولا يراها أحد .

و بالعلم استخرجوا ما فى الجبال من معادن ، وما فى الأرض من خيرات ومناجم ، وما فى البحار من ثروات ، وانتفعوا بهـــا فى صناعاتهم التى لا نهاية لها .

فأصبحنا نستطيع أن نسافر بالقطار أو الطائرة أو الباخرة ، ونستطيع أن نتحدث مع أبنائنا أو بناتنا وهم فى أوروبة أو الولايات المتحدة بأمريكا ،ونحن فى الجمهورية العربية المتحدة . نتحدث معهم بصوت واضح كأنهم معنا يتكلمون . وفى استطاعتنا اليوم أن نسجل محاضرة من المحاضرات أو خطبة لعظيم من العظماء على شريط من الأشرطة لنسمعها فى أى وقت شئنا ، وفى أى مكان أردنا.

مآثر التربية الإسلامية :

إن التربية الإسلامية تمتاز بالقوة والعمق والإيمان ، والعمل عن عقيدة ، ولهذا تركت أثرا واضحا فى تقدم الإنسانية ، والتربية الوجدانية،والخلقية والعقلية . ولا يستطيع أحد أن ينكر أن الثقافة الإغريقية القديمة قد وصلت إلى الغرب عن طريق الشرق والإسلام ، بعد أن ارتقت تلك الثقافة ، واتضحت وازدهرت على أيدى العلماء والفلاسفة من المسلمين .

وإن المثل الإسلامية السامية ، والمبادىء الخلقية الخالدة ، والطرق التربوية الكاملة تعد أثراً من آثار التربية الإسلامية المثالية .

وقد اشتركت التربية الإسلامية اشتراكا فعليا فى تقدم التفكير الإنسانى ، وتدعيم المثل العليا فى الدين والأخلاق ، وتثبيت المبادىء الإنسانية ، والنظم التعاونية (الديمقراطية) ؛ فقد نادت بأهمية الإخاء والمساواة بين جميع المؤمنين فى البلاد الإسلامية المختلفة ، ولم تكتف بالمطالبة بها بين أبناء الوطن الواحد . ولاريب أن فى تقرير تلك المبادىء ثورة كبيرة على العهود القديمة قبل الإسلام، وهى عهود الإغريق والفرس والرومان ، تلك العهود التى لم تنجح فى إقامة وحدة روحية ، على الرغم من قوتها وعظمتها ؛ لأنها لم تعمل على تأليف القلوب ، وإهمال الفروق بين الأجناس ، والبناء على أساس مبادىء الإخاء والمساواة .

وإلى المسلمين يرجع فضل السبق فى تحقيق تلك المبادىء الإنسانية العظيمة بوسائل عملية فعالة أهمها التربية الإسلامية .

أثر التربية الإسلامية فى النهوض بطرق التدريس :

لقد كان للتربية الإسلامية أثر كبير فى النهوض بطرق التدريس ، فعلى أيدى علماء الإسلام انتشرت طريقة المحاضرة ، وطريقة المناظرة فى التدريس ، وسهلت المواد الدراسية ؛ كى تلائم عقول الأطفال .

١ — وقد وضع ابن خلدون والعبدرى من فلاسفة الإسلام خطوات للمدرس ليتبعها فى المحاضرة ، وهى ترمى إلى أن يعرف المدرس مادة الدرس معرفة تامة ، حتى يستطيع أن يشرح الآراء المختلفة للطلاب فى المحاضرة ، ويبين لهم رأيه الخاص فى الموضوع المختلف فيه ، ثم يسمح لهم بالأسئلة والمناقشة كما يشاءون .

٢ — وتعد طريقة المناظرة أثرا هاماً من آثار التربية الإسلامية . وكانت المناظرات منتشرة فى المعاهد الدراسية ، لأنها من أهم الوسائل للترويح النفسى ، وساعدت على انتشار الحرية فى إبداء الرأى والتفكير ، والحرية فى الخطابة ، وشحذ العقل ، وحضور البديهة ، وسرعة الخاطر ، والنشاط الذاتى . وفى القرون الوسطى تأثرت الجامعات الأوروبية بالأساليب الإسلامية فى المناظرة ، فأخذت تلك الجامعات بتلك الطريقة . ومازالت المناظرات حتى اليوم تعد ناحية من نواحى النشاط العقلى والاجتماعى فى المعاهد الإسلامية والشرقية والغربية .

٣ — وقد ترك المربون من المسلمين منذ أكثر من ألف سنة مبادىء نفيسة فى التربية نعدها اليوم من مبادىء التربية الحديثة ؛ فقد أرشدوا المعلم إلى تسهيل المادة الدراسية ؛ حتى تلائم عقول الأطفال ، تلك العقول التى لم تنضج ، وإلى البدء فى التعليم بالأمور المحسة المعلومة القريبة قبل الانتقال إلى الأمور

المعنوية المجهولة البعيدة ، وهذا مايعنيه علماء التربية اليوم من القواعد الأساسية للتدريس فى نصحهم بالانتقال من السهل إلى الصعب ، ومن المحس إلى المعقول، ومن المعلوم إلى المجهول ، ومن البيئة القريبة إلى البعيدة ، ومن العالم الذى يعيش فيه الطفل إلى العالم الذى يبعد عنه .

كما نصح فلاسفة الإسلام بإعطاء قليل من المعلومات السهلة فى الدرس الواحد ، ومراعاة الفروق العقلية والميول الفردية بين الأطفال . ومع المطالبة بسهولة المادة ووضوحها نادوا بأنه يجب أن تلائم ميولهم ، وتتصل بحياتهم ، وتوضح لهم مايشاهدونه فى بيئتهم .

كتب إسلاميـــة فى التربية والتعليم :

ويجب ألا ننسى ما ألفه علماء الإسلام من كتب فى التربية والتعليم؛لأنها أثر من الآثار الخالدة فى التربية الإسلامية ؛ فقد تركوا عدة كتب ، فيها موضوعات فى التربية ، مع موضوعات أخرى متنوعة ، دينية وخلقية واجتماعية وأدبية مثل :

كتاب المدخل للعبدرى ، والسياسة لابن سينا ، والمقدمة لابن خلدون ، ومؤلفات الإمام الغزالى ، والبيان والتبيين للجاحظ ، وكتاب جامع بيان العلم وفضله للنمرى القرطبى .

وهناك كتب ورسائل لا تذكر إلا موضوعات التربية نفسها ، مثل :

١ — تعليم المتعلم للزرنوجى .

٢ — أحكام المعلمين والمتعلمين لمحمد بن أبى زيد .

٣ — التربية عند العرب لخليل طوطح .

٤ — الإسلام والحضارة العربية لمحمد كرد على .

٥ — تهذيب الأخلاق لابن مسكويه .

الإسلام يدعو إلى التربية الاستقلالية

قال صلى الله عليه وسلم : « لا يكنْ أحدُكم إمَّعةً ، يقولُ أنا مع النَّاس ، إنْ أحسَنوا أحسنْت ، وإنْ أساءوا أسَأْت ، ولكنْ وَطِّنُوا أنْفُسَكم ، إنْ أحسنَ النَّاس أنْ تُحْسِنُوا ، وإنْ أساءوا ألاَّ تُسيئوا معهم . »

والإمعة هو الرجل الذى يتابع غيره فى رأيه ، ولا يثبت على رأى .

فالرسول عليه الصلاة والسلام يأمرنا باستعمال عقولنا وتفكيرنا ، وتربيتنا تربية استقلالية ، فلا نحاكى الناس محاكاة عمياء ، إن أحسنوا حاكيناهم فى الإحسان ، وإن أساءوا أسأنا مثلهم ، بل نعتمد على أنفسنا فى تفكيرنا، وأقوالنا وأفعالنا ، ونحسن إذا أحسنوا ، ولا نسيء مثلهم إذا أساءوا .

ومن الصفات الأساسية للنجاح فى الحياة الثقة بالنفس ، والاعتماد عليها. ومتى وجدت الثقة بالنفس فمن السهل الاعتماد عليها فى كل عمل ممكن من الأعمال ، وفى التغلب على مشاق الحياة . والسبب فى كثرة الاعتماد على النفس أن الغريزة الاجتماعية قوية فى الجنس البشرى متأصلة فيه ، وأننا اعتدنا التفكير الجمعى، لا التفكير الاستقلالى .

فينبغى أن نعود المتعلمين الاعتماد على أنفسهم ، والاستقلال فى تفكيرهم من غير اتكال على أحد ؛ كى يستطيعوا فى المستقبل أن يعيشوا معتمدين على أنفسهم .

ولا يراد بذلك أن يعتزل الإنسان العالم ، وينقطع عن الناس ، ويفكر فى

نفسه فحسب ، فليس هذا من الإنسانية فى شىء ، بل إنه باعتزاله غيره يفقد كثيراً ، ولا يربح إلا قليلا . ولكننا نريد تعويد المتعلمين الاستقلال الشخصى والتربية الاستقلالية ، والقدرة على القيام بأعباء الحياة من غير اتكال على غيرهم فى كل شىء ، حتى يمكنهم أن يقوموا بواجبهم نحو أنفسهم ، ونحو وطنهم . وكثيراً ما يحتاج الإنسان إلى معاونة صديقه ، ومساعدة رئيسه ، ومعونة خادمه ، فالتعاون ضرورى للمجتمع الذى تربط أفراده روابط وثيقة من المحبة والإخلاص .

والاعتماد على النفس أساس التربية الاستقلالية ،وتتطلب أن يكون لدينا شىء جوهرى يمكن الاعتماد عليه هو الثقة بالنفس ، والدقة فى العمل ، والتحقق منه ؛ حتى تكون أحكامنا صائبة ، وأقدامنا ثابتة ، أما إذا انتفت الثقة بالنفس ، أو الدقة فى العمل ، أو التثبت منه ، فالاعتماد على النفس حينئذ يكون عبثا ومن قبيل الأحلام .

وينبغى أن نسأل : هل قامت التربية وقام المربون حقًّا بواجبهم نحو تربية الأطفال تربية استقلالية ؟ هل قاموا بواجبهم وقد صرنا نفكر فيما فكر فيه غيرنا ، ونتكلم بما قاله سوانا ، ونفعل مثل من سبقنا؟إننا صرنا محاكين(مقلدين) فى أفكارنا وأقوالنا وأفعالنا ، مهملين أنفسنا وشخصياتنا ؛ لأن التربية فى بيوتنا ومدارسنا تربية اتكالية ، لا تعرف معنى الثقة بالنفس ، والاعتماد على النفس فى التفكير والقول والعمل .

وقد نادى المربون والمصلحون بالتربية الاستقلالية ،وذكروا أن الغرض من التربية الحديثة هو التربية المستقلة ، ولكن كتب التربية فى واد ، والمدارس والجامعات فى واد آخر ، فبينما نقول : يجب أن يربى الفرد تربية استقلالية من كل الوجوه ، نجد أن الفرد مهمل من جميع الوجوه ، وأنه يصب فى

قالب خاص ، ويطبع بطابع ينافى التربية الاستقلالية ، ويربى بطريقة تقتل نفسيته ، وتضعف مواهبه ، وتهمل ميوله وغرائزه وعقليته ، وأخلاقه وإرادته ، وبيئته وظروفه .

وإن تعويد المتعلم الاعتماد على نفسه فى كل عمل من الأعمال أمر ضرورى فى التربية الاستقلالية . ولن ينجح الإنسان فى أى عمل إلا إذا اعتمد على نفسه فى أداء ذلك العمل ، وانتفع بقواه الشخصية ، ووثق بقدرته على القيام بما يحتاج إليه ، من غير أن يلجأ إلى سواه إلا عند الحاجة والضرورة . وفى المثل : ماحك جلدك مثل ظفرك ، فتول أنت جميع أمرك .

وإن الرجل الواثق بنفسه ثقة بعيدة عن الغرور والاستبداد ، الواثق بقوله وفعله — يستطيع أن يقف وينادى برأيه ، ويبرهن على سداده وصوابه . وليس من يستقل برأيه فى أمر من الأمور يكون مخطئاً دائماً ، بل قد يكون مصيباً فى رأيه ، وقد يسبق فى آرائه المجتمع الذى يعيش فيه بعشرات السنين ، كأمثال المصلحين ؛ فإنهم غالباً يكونون فى واد ، والمجتمع فى واد آخر . لا يقدر رأيهم إلا بعد مماتهم . وبالمصلحين الذين يثقون بأنفسهم ، وينادون بآرائهم يحيا المجتمع .

وقد ورد فى الميثاق : « إن الطفولة هى صانعة المستقبل ، ومن واجب الأجيال العاملة أن توفر لها كل ما يمكن لها من تحمل مسئولية القيادة بنجاح . » ولن يستطيع الأطفال تحمل مسئولية القيادة بنجاح إلا إذا اعتادوا من الصغر الاعتماد على أنفسهم ، وربوا تربية وطنية استقلالية من الطفولة الأولى ، وقاموا بكل مايستطيعون القيام به فى البيت والمدرسة والمجتمع ، بدون أن يكونوا إمعات معتمدين على غيرهم ، متسكلين على كل من يتصل بهم .

كيف نصل إلى التربية الاستقلالية ؟

ولكي نصل إلى التربية الاستقلالية يجب أن يعمل الطفل على أن يخدم نفسه بنفسه ، و يستعمل مواهبه وقواه فى تدبير شئونه ، ولا يلجأ إلى غيره مادام قادراً عل القيام بعمله . و يجب أن يعد نفسه للنزول فى معترك الحياة ؛ كى يخرج إلى المجتمع فى المستقبل رابط الجأش ، قوى العزيمة ، ثابت القلب ، صادق الوطنية ، قوى الإيمان بالله و بنفسه ، قادراً على أداء رسالته نحو نفسه ووطنه فى المستقبل ، و ينجح فى حياته العملية .

و إذا مدحنا الثقة بالنفس فإننا لا نمدح الإفراط فيها ؛ لأنه قد يكون علامة على الضعف لا على القوة ، كما لا نمدح ضعف الثقة ، فإنه دليل على ضعف الإنسان. و إننا ننصح للمربين والمربيات ألا يكثروا من الأوامر والنواهى ؛ لأن الإكثار منها يميت شعور الطفل ، وقوة التفكير لديه ؛ كأن تقول له : تعال هنا ، اذهب هناك ؛ قف، افعل هذا ، ولا تفعل ذاك،وكأن تقوده فى كل عمل يريد أن يعمله، ولا تترك له فرصة للتفكير ، وتستولى على كل إرادته وأفعاله ، وتجعله قاصرا يعتمد على غيره فى كل شأن من شئونه . ولا ريب أن هذا ضار بالطفل ومستقبله . وكيف يكون حينما يصير رجلا ، و يجد نفسه آلة فى يد غيره ، متعطل الفكر ، لا يستطيع الاعتماد على نفسه،ولا يمكنه أن يدبر شأناً من الشئون إلا إذا وضع يده على كتف غيره ؟ ولاعجب ؛ فقد عطلنا ما وهب الله له من مواهب بكثرة تدخلنا فى أعماله ، وكثرة الأوامر والنواهى التى نمطرها عليه فى كل وقت ، لغير ضرورة أو مناسبة .

و ينبغى ألا يألو المربى جهدا فى السير بالأطفال إلى التربية الاستقلالية ، إلى التربية الوطنية الحقة ؛ إلى الطريق المستقيم ، إلى الأمام ، إلى الرقى، إلى العلا ، إلى تحمل مسئولية القيادة بنجاح ، إلى الكمال أو ما يقرب من الكمال .

المعلم والمتعلم فى الإسلام

المعلم والتلميذ :

لقد عنى فلاسفة الإسلام بالكتابة عن العالم والمتعلم ، أو المعلم والتلميذ ، ومالهما من حقوق ، وما عليهما من واجبات ، وكتبوا كثيرا عن الصفات التى يجب أن يتحلى بها كل منهما ، فقد كتب النمرى القرطبى فى كتابه : (جامع بيان العلم وفضله) عن « آداب العالم والمتعلم » ، وكذلك فعل الغزالى فى كتابيه : (فاتحة العلوم) و (إحياء علوم الدين) . وقد خص المعلم بالتقديس والتبجيل ، وجعله فى منزلة تلى منزلة الأنبياء ، قال الرسول الكريم . « إن مداد العلماء لخير من دماء الشهداء . » فالعالم العامل خير من المتعبد الذى يصوم النهار ، ويقضى الليل فى التعبد والصلاة . وقد وصف الغزالى منزلة العلم والعمل فى قوله[1] :

« فمن علم وعمل بما علم فهو الذى يدعى عظيما فى ملكوت السماء ، فكأنه كالشمس تضىء لغيرها وهى مضيئة فى نفسها ، وكالمسك الذى يطيب غيره وهو طيب . ومن اشتغل بالتعليم فقد تقلد أمرا عظيما ، وخطرا جسيما ، فليحفظ آدابه ووظائفه » .

وقد اعترف الشاعر أحمد شوقى بفضل المعلم فقال :

قم للمعلم وفه التبجيلا ... كاد المعلم أن يكون رسولا

فهو الأب الروحى للمتعلم ، وهو الذى يقوم بتغذية النفس بالعلم ، وتهذيب الأخلاق وتقويمها ، فتبجيله تبجيل لأبنائنا ، وتقديره تقدير لهم ، به يحيون ، وبه ينهضون إذا أدى رسالته خير أداء .

(١) إحياء علوم الدين للغزالى ح ١ ص ٥٢ .

وقد وصف أبو الدرداء المعلم والمتعلم بأنهما زميلان فى الخير ، ولا خير فيما عداهما .

وفى العصور الوسطى كان الأستاذ فى معاهد الغرب بأوروبة يعامل بكل قسوة وشدة، فكان يحلف لعميد الكلية بأداء فروض الطاعة له ، وتنفيذ النظام الذى تفرضه الجامعة عليه . ويعد غائبا، ويعرض لغرامة محددة إذا لم يحضر محاضرته خمسة من الطلبة على الأقل. وكان الطالب يكلف التبليغ عن أستاذه إذا غاب عن درسه بغير إذن . فى حين أن الأستاذ فى المعاهد الإسلامية كان يتمتع فى ذلك الوقت بكل رعاية وتقديس ، ويعامل بكل إجلال وتقدير ، وكانت له مكانة سامية ، وحرية مطلقة فى التدريس ، واختيار المادة، والوقت الذى يدرس فيه ، والعدد الذى يؤديه من المحاضرات .

الصفات التى يجب أن تتوافر فى المعلم فى التربية الإسلامية

١ — الزهد والتعليم ابتغاء مرضاة الله :

كان للمعلم منزلة سامية مقدسة ، وعليه واجبات تلائم مكانته؛ فقد كان زاهداً كل الزهد ، يقوم بالتعليم ابتغاء مرضاة الله ، ولا ينتظر أجراً أو راتبا أو مكافأة مالية ، ولا يريد من مهنة التعليم سوى إرضاء الله ، ونشر العلم والتعليم . وكان الأساتذة يستعينون على المعيشة والحياة بنسخ الكتب وبيعها لمن يريدها ، ويكسبون عيشهم بهذه الوسيلة . وقد استمر علماء المسلمين عدة قرون وهم لايقبلون أى أجر على تدريسهم، ولكن بمضى الزمن أنشئت المدارس ، وحددت المرتبات للمعلمين ، فعارض هذا النظام كثير من العلماء ونقدوه ، ووقفوا ضده ، لزهدهم وورعهم . وفى اعتقادنا أن قبول المرتبات لايتعارض مع إرضاء الله ، والزهد فى الدنيا ؛ لأن العالم — مهما يكن زاهدا متقشفا — يحتاج إلى شىء من المال يستعين به على مطالب الحياة وتربية الأولاد .

٢ — طهارة المعلم :

يجب أن يكون المعلم طاهر الجسم والجوارح ، بعيدا عن الذنوب والآثام ، طاهر الروح ، بريئا من الكبر والرياء والحسد ، والعداوة والبغضاء ، وغيرها من الصفات الذميمة . قال الرسول الكريم : « هلاك أمتى رجلان : عالم فاجر ، وعابد جاهل ، خير الخيار خيار العلماء ، وشر الأشرار شرار العلماء » .

٣ — الإخلاص فى العمل :

إن إخلاص المدرس فى عمله أكبر وسيلة لنجاحه فى مهنته ، ونجاح تلاميذه . ومن الإخلاص أن يعمل بما يقول ، وتتفق أعماله مع أقواله ، ولا يخجل من قول « لا أدرى » إذا كان لا يدرى . فالعالم حقا هو الذى يشعر على الدوام بحاجته إلى الاستزادة من العلم ، ويضع نفسه موضع تلاميذه فى البحث عن الحقيقة ، ويخلص لهم ، ويحافظ على أوقاتهم ، ولا مانع يمنع التعلم منهم ؛ لأنه يتحلى بالتواضع فى التربية الإسلامية ، ويكون حكيما حازما فيما يقول وما يفعل ، يلين فى غير ضعف ، ويشتد فى غير عنف .

٤ — الحلم :

يجب على المدرس أن يكون حليما مع تلاميذه ، يستطيع أن يضبط نفسه ، ويكظم غيظه ، ويكون رحب الصدر ، كثير الصبر ، لا يغضب لأتفه الأسباب .

٥ — الهيبة والوقار :

ليكون العالم كاملا يجب أن يتصف بالهيبة والوقار ، ويكون ذا كرامة ، يربأ بنفسه عن الدنايا ، ويستنكف من القبيح ، ولا يصخب ، ولا يلغو ، حتى يكون مرفوع الرأس ، موضع التبجيل والاحترام .

٦ — يجب أن يكون المدرس أبا قبل أن يكون مدرسا :-

يجب أن يحب المعلم تلاميذه محبته لأبنائه، ويفكر فيهم كما يفكر في أولاده. وعلى هذا المبدأ الإسلامي تبنى التربية الحديثة اليوم ، ويجب أن يكون الولد الإلهي (وهو الطالب) أحب إلى المعلم من الولد الصلبي . وإن الأب الذي يضع أولاده في قلبه أب عادي جدا ، ولكن الأب الذي يضع أبناء غيره في قلبه يعد من الآباء الطاهرين المثاليين . وإن أولى التلاميذ بالعطف والشفقة أولئك الفقراء الذين يأتون من منازل حكم عليها بالشقاء ، لا يحبون أحدا لأنهم لم يشعروا بحب أحد . وهنا الفرصة أمام المدرس في أن يعمل ، للوصول إلى قلوب هؤلاء البائسين ؛ لينقذ حياتهم ، وينجي أرواحهم من الموت والشقاء ، ويجتهد في مساعدتهم ، وتسهيل الأمور في سبيلهم ، بحيث يكون أبا شفيقا ؛ يعطف عليهم ، ويقوي ضعيفهم ، ويشاركهم شعورهم .

٧ — يجب أن يكون عالما بطبائع الأطفال وميولهم، وعاداتهم وأذواقهم ، وتفكيرهم ؛ كي لا يضل في تعليمهم . هذا ما ينادي به علماء التربية في القرن العشرين : ففي التربية الإسلامية كان المدرس مطالبا بالعلم باستعدادات الأطفال وطبائعهم ، ومراعاتها في أثناء التدريس لهم ؛ كي يختار لهم الموضوعات الملائمة التي تكون في مستواهم العقلي، « ولا يرقيهم من الجلي إلى الدقيق ، ومن الظاهر إلى الخفي دفعة وفي أول مرتبة، بل على قدر الاستعداد » . فلا ينتقل من السهل إلى الصعب، ومن الواضح إلى الخفي مرة واحدة ، بل يتدرج معهم على قدر استعدادهم وإدراكهم وفهمهم.

٨ — يجب أن يتمكن المدرس من مادته ويستمر في البحث والاطلاع :-

حتى لا يصير تعليمه سطحيا ، لا يسمن ولا يغني من جوع . وقد كان للمعلم منزلة كبيرة في المرحلة العالية من التعليم . وكان موضع ثقة وتقدير لدى الطلاب والآباء .

ويختلف عن المعلم فى المرحلة الأولى كثيرا ، ولا يتمتع بالمنزلة التى كان زميله يحظى بها فى تعليم الكبار . فقد نظر بعض الكتاب إلى المعلم الأولى نظرة لا تبجيل فيها ولا احترام . فالجاحظ مثلا ينصح ألا تسترشد بمن يكثر الاختلاط بالأطفال والنساء، فى حين أن كثيرين من العلماء المشهورين كانوا معلمى أطفال، مثل الكميت [1] والضحاك بن مزاحم ، وعبد الله بن الحرث ، وأبى عبيدالقاسم الذى ولى قضاء خراسان .

وقد عير الحجاج بأنه معلم أطفال فى الطائف ، وكان اسمه وقتئذ كليبا ، فقال الشاعر فى ذمه مشيرا إلى أنه كان يأخذ الخبز على سبيل الأجر :

أينسى كليب زمان الهزال ... وتعليمه سورة الكوثر
رغيف له فلكة ما ترى ... وآخر كالقمر الأزهر

وفى الكتب الإسلامية إرشادات كثيرة خاصة بالمعلم الأولى ، نختار منها النصائح الآتية :

ألا يقسم الطعام مع الأطفال ، ولا يكتب إعلانات ويلصقها على باب الكتاب ، ليجتذب التلاميذ إليه ؛ لأن مثل هذا العمل لا يصدر إلا عن السوقة من الناس ، ولا يفرق بين الأغنياء والفقراء من التلاميذ ، ولا يستخدم الأطفال فى شئونه المنزلية ، وأن يعامل الجميع بروح العدل والإنصاف ، ويقوم بتعليم الأطفال بنفسه ، وإذا صعب عليه ذلك أمكنه أن يكلف بعض الكبار من الطلبة تعليم الصغار من التلاميذ . وهو نظام العرفاء فى التربية ، وهو نظام يسمح بإشراك التلاميذ فى أن يعلم بعضهم بعضا ، ويملى بعضهم على بعض.

وقد لخص أبو شامة الشافعى فى كتابه : « مجموعات الرسائل » آداب معلم الصبيان فيما يلى :

---

(١) كان يعلم الأطفال فى مسجد الكوفة .

« يبدأ بإصلاح نفسه ، فإن أعينهم إليه ناظرة ، وآذانهم إليه مصغية ، فما استحسنه فهو عندهم الحسن ، وما استقبحه فهو عندهم القبيح ، ويلزم الصمت في جلسته . . ويكون معظم تأديبه بالرغبة ، ولا يكثر الضرب والتعذيب . . ولا يمازح بين أيديهم أحدا .. ويقبح عندهم الغيبة ، ويوحش عندهم الكذب والنميمة ، ولا يكثر الطلب من أهلهم » . وكلها توجيهات قيمة ، لا اعتراض عليها في التربية .

المؤدب أو المدرس الخاص .

المؤدب : هو مدرس خاص يقوم بتعليم طفل أو أكثر من أبناء العظماء والخلفاء ، وتأديبه وتثقيفه في بيته أو قصره ، ويشترك الأب مع المؤدب في اختيار المواد التي يدرسها الابن ، ويستمر المتعلم في دراسته حتى يصل إلى المستوى المنشود من التعليم ، ولكي يشرف المؤدب على تلميذه من الأمراء إشرافا تاما كان يخصص له جناح في قصر الأمير ليعيش فيه ، ويتناول طعامه وشرابه وينام فيه . وكان المؤدب يعطى تلميذه أربع ساعات أو أكثر كل يوم من وقته ، ويمكث معه عدة سنوات يقضيها في تعليمه وتهذيبه .

وكان الآباء من الخلفاء يحترمون المؤدبين لأبنائهم ، ويعنون بهم عناية كبيرة ، حتى كان لهم مركز أدبى كبير في المجتمع . ولم يرفض هذه الوظيفة إلا قليل من الزاهدين لعزة أنفسهم ، وزهدهم في المال ، كالخليل بن أحمد ، وعبد الله بن إدريس ، فإنهما كانا يفضلان التدريس للجماعة لا لأبناء الطبقة الخاصة .

وفي عصر الدولة الفاطمية ، أنشأ الفاطميون في قصورهم مدارس خاصة ، لتعليم أبناء الولاة ، وسراة المسلمين ، وتربيتهم تربية تمكنهم من ملء المناصب الهامة في الدولة .

حقوق الطلبة وواجباتهم فى التربية الإسلامية :

عنيت التربية الإسلامية بحقوق الأساتذة وواجباتهم ، كما عنيت بما للطلبة من حقوق ، وما عليهم من واجبات، وما يجب أن يتمسكوا به من آداب . فمن حقوقهم : تيسير سبل التعلم لهم ، وإعطاؤهم كل فرصة فى أن يتعلموا من غير تفرقة بين الغنى والفقير منهم . وقد وصف الرحالة ابن جبير السبل التى يسرت للطلبة العلم والتعلم ، والمدارس العظيمة التى أنشئت لهم ، والأوقاف التى رصدت لهم وللمدرسين ، والقصور التى شيدت لسكناهم ، والربط التى أعدت وجهزت لهم، عدها كلها فخرا عظيما من مفاخر الإسلام والمسلمين . . . فمن أراد الفلاح وفليرحل إلى بلاد المغرب ، ويتغرب فى طلب العلم، فيجد كثيرا من المساعدات. ولا عجب ؛ فقد كان المسلمون ينظرون إلى طلاب العلم بعين الإجلال والتقدير ؛ لأنهم يسعون فى طلب أسمى شىء فى الوجود ، وهو العلم والمعرفة ، وكانوا يقولون إن من يسعى فى طلب العلم يسير فى طريق الجنة .

ومن الواجبات التى يجب أن يعمل بها كل طالب ، ويجعلها نصب عينيه دائما :

١ — قبل أن يقبل الطالب على العلم يجب أن يبدأ بتطهير قلبه من الرذيلة ؛ لأن التعلم والتعليم يعدان من العبادة ، ولا تصح العبادة إلا مع طهارة القلب ، والتحلى بالأخلاق الكريمة كالصدق والإخلاص ، والتقوى والتواضع ، والزهد والرضا ، والبعد عن الصفات الذميمة ، كالحقد والحسد ، والكراهية والكبرياء ، والغش والفخر والخيلاء .

٢ — أن يقصد من تعلمه تجميل روحه بالفضيلة ، والقرب من الله، وليس الظهور بين الناس ، والمباهاة والجاه .

٣ — أن يثابر على تحصيل العلم ، ويبعد عن الأهل والوطن ، ولا يتردد في الرحيل إن استدعى الأمر الذهاب إلى أقاصي المعمورة للبحث عن أستاذ من الأساتذة .

٤ — ألا يكثر من تغيير مدرسيه ، بل يجب عليه أن يتريث قبل أن يقدم على التغيير .

٥ — أن يحترم أستاذه ويبجله ، ويوقره لله ، ويعمل على إرضائه بكل وسيلة من الوسائل .

٦ — ألا يضايق الأستاذ بكثرة الأسئلة ، ولا يعنته في الجواب ، ولا يمشي أمامه ، ولا يجلس مكانه ، ولا يبدأ بالكلام حتى يؤذن له .

٧ — ألا يفشي لأستاذه سرا ، ولا يغتاب عنده أحدا ، ولا يطلبن عثرته ، وأن يقبل معذرته إن زل .

٨ — الجد والدأب في الدرس ، ووصل الليل بالنهار في إحراز المعرفة ، بتحصيل الأهم من العلوم .

٩ — أن تسود روح المحبة والمودة بين الطلبة ، حتى يروا كأنهم أبناء رجل واحد .

١٠ — أن يبدأ الطالب أستاذه بالسلام ، ويقلل بين يديه الكلام ، ولا يقول له : قال فلان خلاف ما قلت ، ولا يسأل جليسه في مجلسه .

١١ — وأن يواظب على الدرس والتكرار في أول الليل وآخره . « فإن ما بين المساء ووقت السحر مبارك » . وإن هذا يذكرنا بقول الشاعر :

يا طالب العلم باشر الورعا ... واترك له النوم واترك الشبعا

١٢ — أن يوطن النفس على التعلم إلى آخر العمر ، وألا يستهين بشيء من العلوم ، بل يجعل لكل واحد منها حظه الذي يستحقه ، ولا يحاكي ما سمعه من بعض أسلافه ، من الطعن في بعض العلوم كالمنطق ، وعلوم الحكمة . . .

وأهم المبادئ التي قيلت في التربية الإسلامية عن « المعلم والمتعلم » :

١ — الخلق الكامل أفضل من العلم :

لقد عد المسلمون الأخلاق الكاملة أفضل من العلم ، وجعلوها أساسا لنجاح المعلم والمتعلم على السواء ، فكما أن الوضوء يجب أن يسبق الصلاة كذلك ينبغي أن يبدأ المعلم والطالب بتطهير نفسيهما من الرذائل والنقائص ؛ لأن العلم أيضا نوع من العبادة . ولا ريب أن في ذلك لب الحكمة ، ونهاية الرشد ، فكل تربية لا تؤسس على الخلق الكامل تعد تربية فاشلة ، وكل مدنية لا تؤسس على الخير والفضيلة ، تعد مدنية خداعة زائفة كالسراب .

٢ — تقديس العلم والعلماء :

إن من أروع مبادئ التربية الإسلامية تقديس العلم والمعرفة ، وتقديس العلماء والمعلمين ، فالعلم كان مقدسا ، والمعلمون كانوا مقدسين لدى الإسلام والمسلمين ؛ لهذا أخلص المعلم والمتعلم الإخلاص كله في الدراسة والبحث ، وثابرا عليهما ، فوجد بين المسلمين أفذاذ لا نظير لهم من العلماء والمتعلمين ، ولكن المغالاة في هذا التقديس قد أدت إلى إضعاف روح النقد بينهم .

٣ — العناية التامة بتقوية الروابط الشخصية ، والألفة والمحبة بين العلماء والمتعلمين .

فالمعلم مطالب بالشفقة على المتعلمين ، ومعاملتهم كما يعامل الأب أبناءه ، والمتعلمون مطالبون بإرضاء أساتذتهم واحترامهم وتبجيلهم . وفي تقوية الرابطة

والألفة والمحبة بين العلماء والمتعلمين دعم لأسس النجاح فى التربية والتعليم . فإن نجاح المربى يتوقف على غرس روح الثقة والمودة بينه و بين تلاميذه. فإذا أخلص المدرس لتلاميذه ، وأحسوا بعطفه عليهم وحبه لهم كان العسير من المواد ميسرا ، والصعب سهلا . وقد ينفر الطالب من علم من العلوم لنفوره من مدرس ذلك العلم . وقد يحب المتعلم مادة من المواد و يتعلق بها كل التعلق لحبه لمدرس تلك المادة وتعلقه به .

ولقد نبه فلاسفة التربية الإسلامية إلى أثر حسن الصلة بين المدرس وتلاميذه فى التربية والتعليم ، فعنوا كل العناية بهذا المبدأ ، ودرسوا ميول الطلاب ، ومستواهم العقلى والعلمى ، و بحثوا عن خير السبل لإفادتهم والنهوض بهم ، واستعملوا فى تعليمهم الترغيب والتشويق ، لا الإرهاب والتخويف ، وشجعوا استعمال المدح والثناء ، وتركوا التوبيخ والتأنيب ، فنجحوا كل النجاح فى أداء رسالتهم العلمية ، وكانت التربية الإسلامية تربية مثالية تتمثل فيها الناحية الإنسانية .

واجبات المعلم فى نظر الغزالى :

ولنذكر هنا الواجبات التى يجب على المعلم مراعاتها فى رأى الغزالى .

١ — ألا يقصد بالتعليم جزاء ولا شكورا ، بل يقصد به وجه الله ، والتقرب إليه .

٢ — أن يشفق على المتعلمين ، و يجريهم مجرى بنيه. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنما أنا لكم مثل الوالد لولده . » فيعاملهم المعلم كما يعامل أبناءه .

٣ — ألا يدع من نصح المتعلم شيئاً ، بل ينتهز كل فرصة لنصحه وإرشاده .

٤ — أن يزجر المتعلم عن سوء الأخلاق ؛ بطريق التعريض ما أمكن ، ولا يصرح ، و بطريق الرحمة لا بطريق التوبيخ ، فالغزالى ينصح بالزجر بالإشارة.

والتلميح لا التصريح إذا حدث من المتعلم ما ينافى الأخلاق ، مع مراعاة الرأفة والرحمة فى زجره .

٥ — أن يراعى مستوى الأطفال من الناحية العقلية ، ويخاطبهم على قدر عقولهم . ولا يلقى إليهم أشياء فوق مستوى إدراكهم ؛ حتى لا ينفروا من التعلم ، ويتخبطوا فيما يفهمون . وهذا خير مبدأ فى التربية الحديثة اليوم .

٦ — ألا يقبح فى نفس المتعلم علوم غيره ، بل ينبغى أن يوسع على المتعلم طريق التعلم فى غير علمه . ومعنى هذا أنه يجب ألا يتعصب لمادته .

٧ — ينبغى أن يلقى إلى المتعلم القاصر (الضعيف) الجلى اللائق به ، ولا يذكر له أن وراء هذا تدقيقاً وهو يدخره عنه ؛ حتى لا تفتر رغبته ، ويضطرب عقله ، ويقصد بهذا مراعاة مستوى الضعفاء من المتعلمين ، واختيار المادة السهلة الواضحة التى تناسبهم . ويجب ألا يشعرهم بأنهم ضعفاء أو أغبياء ؛ حتى لا يؤثر فى نفوسهم تأثيراً سيئاً . فإن هذا النوع من الإيحاء مضر بهم .

٨ — أن يعمل المعلم بعلمه ، فلا يكذب قوله فعله . قال الله تعالى : «أتأمُرُون الناسَ بالبرِّ وتنسَوْن أنفسَكم؟» وقال : «كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون » . وقال عليه الصلاة والسلام : « لا يكون المرء عالماً حتى يكون بعلمه عاملا » . وقال أيضاً : « من ازداد علما ولم يزدد هدى ، لم يزدد من الله إلا بعداً » .

الإسلام والعناية بالطفولة

لقد ورد فى الباب السابع من الميثاق الوطنى :

« إن الطفولة هى صانعة المستقبل ، ومن واجب الأجيال العاملة أن توفر لها كل ما يمكن لها من تحمل مسئولية القيادة بنجاح » .

حقاً إن الطفولة صانعة المستقبل ، وعليها يتوقف مستقبل الوطن ؛ لأن طفل اليوم هو رجل الغد ، وأثر التربية اليوم يظهر فى الغد ، وما تزرعه اليوم تجنى ثماره غدا ، والوسيلة الوحدة لإصلاح الجيل المقبل وتربيته والنهوض به هى العناية بالطفولة فى الجيل الحاضر ، فإذا عنينا بأطفال اليوم ، وتربيتهم تربية استقلالية صالحة فى البيت والمدرسة والملعب انتظرنا ثمرة طيبة ، وشعبا كاملا يستطيع أن يتحمل مسئولية القيادة بنجاح ، ويقود العالم فى المستقبل ، كما كان يقوده منذ آلاف السنين .

الطفولة صانعة المستقبل :

حقاً إن الطفولة صانعة المستقبل ، وكما يكون الطفل يكون الرجل . ومن أطفال اليوم يمكننا أن نكون رجال الغد والمستقبل . وعلى المربين من آباء وأمهات ، ومعلمين ومعلمات ، ونظار وناظرات أن يفكروا فى أبنائهم وبناتهم ، وتلاميذهم وتلميذاتهم ؛ ليكونوا منهم قادة الأفكار والأعمال فى المستقبل ، ويوفروا لهم كل ما يمكن من الوسائل لتربيتهم تربية كاملة ، مع تعويدهم الاعتماد على النفس ، وتحمل التبعة (والمسئولية) فى كل عمل يتولونه ، حتى ينجحوا فى حياتهم العلمية والعملية التى تنتظرهم ، ويقوموا بواجبهم نحو بلادهم ، ويتحملوا (مسئولية) القيادة بنجاح .

ففى الطفولة تستطيع الأم والأب فى البيت أن يبثا فى نفوس أولادهما ما يشاءان من المبادئ الدينية والوطنية والخلقية والاجتماعية ، ويستطيع المعلمون والمعلمات فى المدرسة أن ينشروا فى المتعلمين والمتعلمات المثل العالية فى التربية ؛ لتكوين جيل من الشباب الكامل ، المؤمن بربه ، المتمسك بدينه ، المخلص لوطنه ، المنظم فى تفكيره ، القوى الشخصية ، النافذ الإرادة ، الصادق الوطنية ، السليم الجسم

والعقل ، المحب للاطلاع ، المهذب الوجدان ، الجميل الذوق ، الذى يستطيع أن يعتمد على نفسه فى كسب عيشه ، و يعيش لغيره كما يعيش لنفسه ، و يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، و يضحى بمصلحته الخاصة فى سبيل مصلحة المجتمع الذى ينتسب إليه ، و يجيد التعبير بقلمه ولسانه ، والعمل والإنتاج بيده وعقله ، و يؤمن بالله وكتبه ورسله ، و يتمسك بالحرية والوحدة والاشتراكية و (الديمقراطية) ، والعدالة الاجتماعية ، والروح التعاونى ، ومبادىء الميثاق وأهدافه .

« لأَنْ يُؤَدِّبَ الرَّجلُ ولدَه خيرٌ له من أَنْ يتَصدقَ بصاع » :

(حديث شريف)

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَأَنْ يُؤَدِّبَ الرَّجلُ وَلدَه خيرٌ له منْ أَنْ يتَصدَّقَ بصاعٍ . »

وقال : « ما نحَـلَ والدٌ ولدَه أَفضلَ من أَدبٍ حَسنٍ . »

فالرسول الكريم يحثُّ على التربية الخلقية ، وهى المثل الأسمى فى التربية .

وقال عليه الصلاة والسلام : « اتَّقوا اللهَ واعدِلوا فى أولادكم . »

وهذا أمر من الرسول بالعدالة فى معاملة الأطفال ، فلا يجوز أن يميز الوالدان طفلا على آخر ؛ لأن الطفل يحس بهذا التمييز ، فتتولد الغيرة والحقد والكراهية بين الإخوة والأخوات ، بسبب تفضيل بعضهم على بعض . ولكى تستمر المحبة بين الأولاد يجب أن تكون هناك مساواة تامة فى معاملة الآباء والأمهات لهم .

« أمرتُ أَنْ أخاطبَ النَّاسَ عَلَى قدْرِ عُقولِهمْ »

(حديث شريف)

قال صلى الله عليه وسلم : « أُمِرْتُ أَنْ أُخاطِبَ النَّاسَ عَلَى قَدْرِ عُقولِهِمْ . »

وهو قول يجب أن يكتب بقلم من النور على باب كل مدرسة ؛ حتى يخاطب

المدرس تلاميذه على قدر عقولهم ، ويتكلم معهم بالأساليب التى يفهمونها ، فيفرق بين الأذكياء والأغبياء والمتوسطين من الأطفال عند شرح المسائل وتفهيمها لهم ، فالذكى يفهم بالإشارة ، والغبى يفهم الشىء بعد أن يكرر له عدة مرات ، وتستعمل معه كل الوسائل الحسية التى تقرب مسائل الدرس إلى ذهنه ، والمتوسط يفهم بعد أن تعاد له المسألة مرتين أو ثلاثا .

وقد ورد فى الإنجيل فى الإصحاح الثالث عشر من رسالة (بولس) الأولى إلى أهل كورينثوس : « حينما كنت طفلا كنت أتكلم كطفل ، وكنت أفهم كطفل ، ولكن لما صرت رجلا أبطلت أمور الطفولة . » .

وهذا خير مثل وخير مبدأ للتربية الحديثة ، فلا تنتظر من الطفل أن يتكلم كرجل ، أو يفهم كرجل ، أو يفكر كرجل ، كما لا تنتظر من الرجل أن يكون طفلا فى كلامه وفهمه وتفكيره . فيجب أن نفكر فى اللغة التى يفهمها الطفل ، والمادة التى يهضمها ، والطريقة التى تلائمه.

أهمية الطفل والطفولة فى التربية الحديثة :

ولا عجب ؛ فالتربية الحديثة فى القرن العشرين تضع الطفل فى المكان الأول من الأهمية فى التربية ، وهى مؤسسة على العلم بالطفل والطفولة . فالطفل يتأثر بالمثل الذى يراه ، وبالبيئة التى يعيش فيها ، وباللغة التى يسمعها ، وبالكتب التى يقرؤها بعد أن يتعلم القراءة والكتابة ؛ أى يتأثر بالقدوة والمحاكاة كل التأثر .

حقا إن الطفولة صانعة المستقبل ، ولكن مع الأسف الشديد قد أهملت الطرق الملائمة للطفولة كل الإهمال فى التربية والتعليم ، وصارت إلى حيث لا يهتم بها أحد ، فى الوقت الذى تنادى فيه التربية الحديثة والميثاق الوطنى بأن العناية

بالطفولة هى النقطة الجوهرية والفـكرة الثمينة للتربية الـكاملة ، والتعليم الصالح. وإن الطفل يجب أن يـكون المادة الأساسية للبحث والعمل . ولسوء الحظ قد أهملت الطفولة فى حجرة الدراسة. فالأطفال فى المدرسة يعاملون فى اعتقادنا كأنهم خلقوا لـكتبهم المدرسية ، ولم تؤلف الـكتب المدرسية لهم . فقبلَ أن نُعِدَّ الـكتاب المدرسى يجب أن نفـكر فى الأطفال الذين يدرسونه ، وننظر إلى ميولهم وغرائزهم وعاداتهم ، ومستواهم ، ونعمل على أن تـكون هذه المادة ملائمة لهؤلاء الأطفال . ويجب ألا ننسى أننا نكتب لأطفال لا لرجال يجب أن يكون الـكتاب صالحا للأطفال ، فلا نـكلفهم شيئا فوق مستواهم ومستوى طفولتهم .

وقد تعجب إذا قلت لك إنه لا فرق بين المصورات الجغرافية التى تستعمل فى المدارس الابتدائية والإعدادية والمصورات التى تستعمل فى المدارس الثانوية والجامعة فى قسم الجغرافيا بكلية الآداب . أليس هناك فرق بين الطفل والرجل ، أو بين التلميذ فى المدرسة الابتدائية والطالب فى الجامعة حتى نستعمل مصوراً جغرافياً واحداً للاثنين ؟ هل مقدرة الطفل كمقدرة الرجل حتى يؤتى لهما بمصور واحد ؟ هل يتصور العقل أن ما يصلح الرجل يصلح للطفل ؟ ادخل أى مدرسة إعدادية أو ثانوية ، وألق نظرة فى حجرة الدراسة بها ، تجد المصورات الجغرافية فى المدارس الإعدادية هى عينها فى الثانوية، وهى نفسها فى كلية الآداب. لماذا ؟ لأننا نعتقد خطأ أن الطفل يستطيع أن يفعل ما يفعله الرجل ، ويفهم مايفهمه ، ويرى ما يراه ، ويشعر بما يشعر به،ويحس ما يحس به . فالطفل طفل ، والرجل رجل، وما يناسب أحدهما لايناسب الآخر ، اللهم إلا إذا أردنا أن نغير الحقيقة ، ونعكس الطبيعة ، ونقلبها رأساً على عقب . ولقد ذكرنا ما ذكرنا من المصورات الجغرافية على سبيل المثل للخطأ فى فهم الطرق المناسبة لحال الطفولة .

وواجبنا اليوم أن نفـكر فى الطفل والطفولة . وفى معاملة الأطفال يجب ألا

نفكر فى أنفسنا أو فى معلوماتنا وأفكارنا، بل يجب أن نفكر فى الطفل ومايعرفه، وما يفكر فيه وفى بيئته . يجب ألا نفكر له بعقولنا ، بل بعقول الأطفال ، فعقل الطفل يخالف عقل الرجل ، ونظرات الطفل تختلف عن نظرات الرجل ، ولكن كثيراً ماينسى المربى أنه يتكلم مع أطفال ، فيعطيهم من المادة أو الدواء ما لا يصلح لهم ، مما يجب أن يعطى للكبار ، لا للأطفال.

ونصيحتنا للمربى أن يسأل نفسه على الدوام : هل هذا فى مستوى التلاميذ؟ حتى يعطى كل طفل الدواء أو الطعام الذى يناسبه ؟ فمقدار الدواء للكبار لا يصلح للصغار ، وطعام هؤلاء لا يناسب أولئك . وإذا أعطيناهم إياه أحدثنا لهم سوء هضم المعلومات ، وآلمناهم من حيث لا نشعر . فعلى المربين أن يذكروا الطفل ، ويذكروه دائماً ، ولا يضحوا به بأى حال من الأحوال . وليعلموا أن الطفولة صانعة المستقبل ، كما ورد فى الميثاق الوطنى .

الإسلام والعناية بالتربية الصحية

العناية بالصحة والعلاج فى الإسلام :

لقد شغل الناس منذ فجر حياتهم بمعرفة الوسائل التى تساعد فى مكافحة الأمراض ، وتقوية صحة الأبدان . ولذلك راعت الشرائع السماوية فى كل الواجبات والفرائض الدينية ما يحقق هذه الغاية . وكان علم الطب أقدم علم اشتغل به الإنسان . وكان الكهنة فى معابد المصريين القدماء هم رجال الدين ، ورجال الطب .

وإن السنة الشريفة مليئة بأحاديث الرسول التى تحث على العناية بالصحة ؛ لما لها من جليل الأثر فى الحياة . وقد عنى الإسلام كل العناية بالناحية الصحية ، وسلامة الأجسام والأبدان ؛ لتظل بمأمن من الأمراض والأسقام ، حتى لقد قال عليه الصلاة والسلام : « إن لبدنك عليك حقًّا » .

وقال صلوات الله عليه : « المؤْمنُ القوىُّ خيْرٌ مِن المؤْمِنِ الضعيفِ . »

وقال صلى الله عليه وسلم : « سافِرُوا تصِحوا . » وقد جاء فى أمثال قدماء اليونان : الصحةُ فى الهواء .

وقد بُنى الإسلامُ على النظافة ، فقال رسول الله : « الطهورُ شطرُ الإيمان. »

وقال : « النظافةُ من الإيمان. » « الإسلامُ نظيفٌ فتنظَّفوا ، فإنه لايدخلُ الجنَّةَ إلا نظيف . »

ولا ريب أن النظافةَ سبيلٌ إلى الصحة . والصحةُ تاجٌ على رءوس الأصحاء ، لا يراه إلا المرضَى .

وإننا نلمسُ العنايةَ الإسلاميةَ بالصحةِ الجسميةِ فى اتخاذِه النظافةَ وسيلةً

من وسائله فى محاربة المرض والقضاء عليه ؛ فالصلاة — وهى ملاك الدين ودعامته — سُداها ولُحمتها نظافة الجسم والثوب والمكان .

والوضوء للصلاة كله نظافة ، وهو يؤخذ من قوله تعالى :

« يأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق ، وامسحوا برءوسكم وأرجلكم إلى الكعبين[1] . »

فالمضمضة فى الوضوء سنة ، وفيها نظافة للفم واللثة والأسنان . والاستنشاق سنة ، وفيه نظافة للأنف ، ووقاية من الزكام . وفى غسل الوجه والأيدى ومسح الرأس والأذنين[2] وغسل الرجلين إلى الكعبين عدة مرات فى اليوم نظافة وتطهير لهذه الأعضاء ، ووقاية من الأمراض الجلدية التى تنشأ عن الوساخة ، وتتسرب إلى الجسم عن طريق الجلد .

العناية بالتغذية فى الإسلام :

وفى التغذية أمر الله باختيار الأطعمة الصحية ، وحرم الأغذية الضارة بالصحة للوقاية من الأمراض ، قال جل شأنه :

« يأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم ، واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون[3] . إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير ، وما أهل به لغير الله[4] . » :

وفى النهى عن الانتحار ، وعما يؤدى إلى هلاك الإنسان ، كاختلاط المرضى بأمراض معدية يقول تعالى :

---

(١) الآية ٦ من المائدة .
(٢) مسح الأذنين سنة .
(٣) الآية ١٧٢ من سورة البقرة .
(٤) أى ذبح على اسم غير الله .

« ولا تُلقُوا بأيديكمُ إلى التَّهلُكةِ ، وأحسِنوا إنّ اللهَ يُحِبُّ المحسنين . »

كي نُراعى صِحّتنا ، ونَتّقىَ ما يضرُّ الصحةَ كرداءةِ الغذاء ، وفسادِ الهواء ، ورطوبةِ المسكنِ ، والجلوسِ فى التيّاراتِ الهوائيّة .

الرضاعة الصحّية فى الإسلام :

وفى المدة الصحيةِ لرضاعةِ الطفل وفطامهِ قال عزّ وجلّ :

« والوالِداتُ يُرضِعْنَ أوْلادَهُنّ حَوْلَيْنِ كامِلَينِ لِمَنْ أرادَ أنْ يُتِمَّ الرَّضاعةَ . »

وقد أثبتَ الأطباء بالتجربةِ أن الرضاعةَ يجبُ أنْ تكونَ أكثرَ من سَنةٍ ، وأن الأفضلَ أنْ تكونَ سنتَين ؛ حتّى يقوَى جسمُ الطّفل وأسنانه ، ولا يتعرضَ للإصابةِ بالأمراض المَعويةِ ، وأن الأم ينبغى أنْ تقومَ بإرضاع أطفالها ؛ لأن لبنهَا خيرُ غذاء للطفل .

الصيام من الناحية الصحية :

وقد فرضَ الإسلامُ صيامَ شهر رمضانَ فى قوله تعالى :

« يأيُّها الَّذين آمنوا كُتِبَ عليكمُ الصيامُ ، كما كُتِبَ على الذين من قَبلِكمُ لَعلّكمْ تتّقون . »

لأن الصيامَ من الناحيةِ الصحيةِ وقايةٌ للصائم ، وهو مفيدٌ لمن كان مريضاً باضطرابِ الأمعاء ، أو البولِ السُّكّرى ، أو التهابِ المفاصل أو الكُلى ، أو ضغطِ الدم .

لماذا حرم الإسلام الخمر ؟

للرعايةِ الصحيةِ نهَى الإسلامُ عن شُربِ الخمر ؛ لأنه يُضعِفُ القلبَ ، ويؤدّى

إلى تصلُّبِ الشرايين ، ويؤثرُ تأثيراً مُضرًّا فى الكَبِدِ والكُلى والأعصابِ ، ويُبعدُ الإنسانَ عن الشعور والإدراك .

قال تعالى : « يسألونكَ عن الخمر والمَيْسِر ، قُلْ فيهما إثمٌ كبيرٌ ومَنافعُ للنَّاس ، وإثمُهُما أكبرُ من نفْعِهما : »

والنفعُ محصورٌ فى أن الخمرَ يسبِّبُ قليلاً من الانتعاشِ الوهمى المبنى على التخيل والوهم ، ثم يزولُ بفقد التفكيرِ السليم ، وفقد التصرُّفِ الكاملِ ، ويضرُّ الصحةَ ضررا بالغا .

الصحة الوقائية فى الإسلام :

والصحة الوقائية التى ينادى بها الأطباء اليومَ فى قولهم :

« الوقايةُ خيرٌ من العلاج » ليست من مبتكراتِ القرنِ العشرين ، بل هى دعوةٌ إسلاميةٌ خالصةٌ ؛ فقد تحدث النبى صلى الله عليه وسلم ذات يوم فقال :

« نحنُ قومٌ لا نأكلُ حتَّى نجوعَ ، وإذا أكلْنا لا نَشبعُ . »

وقال : « ما ملأ ابنُ آدمَ وعاءً شرًّا من بَطْنِه . بحسبِ ابنِ آدمَ لقيماتٍ يقِمْنَ صُلْبَه ، فإنْ كانَ لا محالةَ فاعلاً ، فثُلثٌ لطَعامِه ، وثُلثٌ لشرابِه ، وثلثٌ لنفَسِه . »

وذلك لينبه العقول والأذهان إلى ما فى إدخالِ الطعامِ على الطعامِ من ضررٍ بصحة الإنسان ، فيحذرَه ويخشاه .

وحتى عزلِ المرضى ، خوف انتشارِ المرضِ وتفشِّيه — قد فطن إليه المسلمون فى صدرِ الإسلام .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فِرَّ من المجذومِ كما تفِرُّ من الأسد . »

وقد زارَ أميرُ المؤمنينَ عمرُ بن الخطابِ — رضى الله عنه — الشام ، وكان

وباء الطاعون يفتكُ بأهلِها، ويُبين وتقدَ إليها من جنودِ المسلمين . فلما رأى سيدُنا عمرُ أن هؤلاء الجنودَ ينزلون فى مكانٍ منخفض بجوارِ دمشقَ ، بالقرب من مُستنقعٍ ، أمرَهم بالرحيلِ عنه ؛ لأنه غيرُ صحّىٍّ ، إلى حيثُ ضُرِبت لهم الخيامُ فوق تلٍّ مرتفعٍ بجوارِ المدينةِ . وقد سأله أبو عبيدةَ بنُ الجراحِ ، وكان يتولى قيادةَ الجيش : أنَفِرُّ من قضاءِ اللهِ ؟

فأجابه عمرُ المفكر العظيم : نعم ، نَفِرُّ من قضاءِ اللهِ إلى قضاء الله . »

وبهذه الأسلحة فكَّرَ الإسلامُ فى الرعايةِ الصحيةِ ، ومحاربةِ المرضِ ، فهل لنا أن نحذوَ حذوَهُ ، ونسيرَ على نهجه ، فنكسب الأجسام قوةً ومَناعةً نقهرُ بهما عادياتِ الأمراضِ والأسقام ؟

وقال الرسول الكريم : « نفسُك مَطيتُك فارفُق بها . » أى كن رفيقاً بنفسِكَ ، ولا تحمِّلْها ما لا تستطيع ، وعالجها إذا مَرِضت ، وأعطِها قسطاً من الرَّاحةِ إذا تعبت ، حتّى تعودَ إليها قوَّتُها وصحتُها ونشاطها .

وقد حث الرسول على العلاج بقوله : « إنَّ اللهَ أنزلَ الداء والدواء ، وجعل لكلِّ داء دواء . » وقوله : « ما أنزلَ اللهُ داءً إلا أنزلَ له شفاء . »

وقال صلى الله عليه وسلم فى ردِّه على من يُهملون علاجَ أنفسِهم ، محتجِّين بالقضاء والقدر : « الدَّواء من القدَر ، وقد ينفع بإذن الله . »

وفى ذلك تنبيه لنا بالعناية بصحتنا ، و بالتداوى ، وكثيرا ما ينفع الدواء و يكون سبباً فى الشفاء بإذن الله و إرادته ، ولا يتعارضُ مع أحكام القدَرِ التى لا يعرفها إلا الله . فيجب ألا نهمل صحتَنا، ونعرِّضَها للمرض ، متعلِّلين بالقضاء والقدر .

آراء فلاسفة الإسلام فى تربية الطفل ومعاملته

كيف نعامل الطفل ؟

إننا نقتبس هنا شيئا من كلام العرب وفلاسفة الإسلام ، كى يمكننا أن نعرف كيف كان المسلمون يقدرون الأطفال ، وكيف كانوا يعاملونهم ، ويهذبونهم ويربونهم .

دخل الأحنف بن قيس على معاوية بن أبى سفيان ، ويزيد بين يديه ، وهو ينظر إليه إعجابا به . فقال : يا أبا بحر ، ما تقول فى الولد[1] ؟

ففهم ما أراد ، فقال : يا أمير المؤمنين ، هم عماد ظهورنا، وثمر قلوبنا ، وقرة أعيننا . بهم نصول على أعدائنا . وهم الخلف منا لمن بعدنا، فكن لهم أرضا ذليلة، وسماء ظليلة . إن سألوك فأعطهم، وإن استعتبوك[2] فأعتبهم . لا تمنعهم رفدك[3] فيملوا قربك ،ويكرهوا حياتك ، ويستبطئوا وفاتك .

فقال : لله درك يا أبا بحر ! هم كما وصفت .

وصية عبد الملك بن مروان لمؤدب أولاده :

ولنذكر هنا جزءا من وصية عبد الملك بن مروان لمؤدب أولاده ؛ لنعرف الأغراض التى كان يرمى إليها من تربيتهم : « علمهم الصدق كما تعلمهم القرآن، وجنبهم السفلة ، فإنهم أسوأ الناس رعة[4] ، وأقلهم أدبا ، وجنبهم الحشم[5] ؛ فإنهم لهم مفسدة ... وأطعمهم اللحم يقووا . وعلمهم الشعر يمجدوا . وينجدوا[6]

---

(١) الولد : جمع ولد .
(٢) إن استرضوك فأرضهم .
(٣) الرفد : العطاء والصلة .
(٤) أقلهم ورعا .
(٥) الخدم .
(٦) يرتفعوا .

ومرهم أن يستاكوا عرضا ، ويمصوا الماء مصا ، ولا يعبوه عبا . وإذا احتجت إلى أن تتناولهم بأدب فليكن ذلك فى ستر؛ لا يعلم به أحد من الغاشية فيهونوا عليه » .

فعبد الملك ينصح المؤدب لأولاده بأن يعود أبناءه الصدق ، ويعنى بالناحية الخلقية عنايته بالقرآن الكريم ، وحفظه وفهمه ، ويبعدهم عن السافلين الساقطين من الناس ، كى لا يحاكوهم فى أقوالهم البذيئة ، وأفعالهم الذميمة ، ولا يتشبهوا بهم فى قلة ورعهم ، وسوء أدبهم . ويجنبهم الحشم والخدم ؛ فإنهم مفسدون لأخلاقهم وآدابهم . وعليه أن يعتنى بإعطائهم اللحوم ، والاهتمام بتغذيتهم ؛ كى تقوى أبدانهم ، ولا تضعف أجسامهم ، ويعلمهم الشعر وأوزانه وقوافيه ، حتى يتذوقوا ما فيه من الجمال ، ويصيروا من العظماء، ويرتفعوا فى مراكزهم فى الحياة . ولا تهمل العناية بأسنانهم ، وتنظيفها بالسواك؛ لأنها موصلة إلى المعدة ، والمعدة تتأثر بما يصل إليها من طعام وشراب . وعودهم أحسن العادات الصحية عند شرب الماء . وإذا أردت أن توبخهم أو تؤدبهم أو تعاقبهم فاجتهد أن يكون ذلك كله سرا ، لا يعلم به أحد ممن يفشون الأسرار ، ويذيعونها ؛ كى تحافظ على مركزهم ومنزلتهم ، ولا يحتقرهم أحد .

وفى هذه الوصية لم يفكر عبد الملك بن مروان فى التربية العلمية والدينية ، والأدبية وحدها ، ولكنه فكر أيضا فى التربية الخلقية والجسمية واللسانية ، والتربية الصحية ، والتربية الاجتماعية .

وصية عمر بن عقبة لمؤدب ولده :

وقال عمر بن عقبة لمؤدب ولده : « ليكن أول إصلاحك لولدى إصلاحك لنفسك ؛ فإن عيونهم معقودة بك ، فالحسن عندهم ما صنعت ، والقبيح عندهم ما تركت . علمهم كتاب الله ، ولا تملهم فيه فيتركوه ، ولا تتركهم منه فيهجروه . روهم من الحديث أشرفه ، ومن الشعر أعفه ، ولا تنقلهم من علم إلى علم حتى يحكموه ؛

فإن ازدحام الكلام فى القلب مشغلة للفهم . وعلمهم سنن الحكماء ، وجنبهم محادثة النساء ، ولا تتكل على عذرمنى لك ، فقد اتكلت على كفاية منك .
وفى رواية أخرى : « وعلمهم سير الحكماء ، وأخلاق الأدباء ، وكن لهم كالطبيب الذى لا يعجل بالدواء حتى يعرف الداء . »

فهو ينصح لمؤدب أولاده بإصلاح نفسه أولاً ؛ ليكون قدوة حسنة لهم ، فإنه فى نظرهم مثلهم العالى ، ينظرون إليه بعيونهم ، ويحاكونه فى أقواله وأفعاله ، يستحسنون ما يفعل ، ويستقبحون مايترك ، وعليه أن يعلمهم كتاب الله ، ليهتدوا بهديه ، ويستضيئوا بنوره . واحذر أن تصل السآمة والملل إلى قلوبهم فيتركوه ، وشجعهم على فهمه وحفظه ، والانتفاع به ، ولا تتركهم منه فيتركوه ويهجروه . وكما تعنى بالقرآن الكريم يجب أن تعنى برواية الحديث الشريف . واخترلهم من الشعر العربى أعفه ، وأبعده عن الغزل والهجاء ؛ كى لايتأثروا بما يدرسون وما يقرءون . ولاتنقلهم من علم إلى علم حتى يجيدوا العلم الأول ويتقنوه ، فإن إتقان المادة يسهل على المتعلم تذكرها . وكثرة المواد الدراسية فى المناهج تشغل الطالب عن الفهم . وعلمهم طرق الحكماء فى حياتهم وأعمالهم وتصرفاتهم ، حتى يقتدوابها . وأبعدهم عن محادثة النساء ، خوفا عليهم من الفتنة والوقوع فى الضلال ، ولاتتكل على عذرمنى لك ، فقدا تكلت على كفايتك ، ووثقت بإخلاصك وأمانتك . وكن لهم كالطبيب الماهر الذى يشخص المرض ، ويعرف كنهه أولا ، ثم يعمل على معالجته . وهى نصيحة ثمينة يجب أن ينتفع بها كل مؤدب أو معلم ، يتطلب أن يكون مثلا عاليا فى الأخلاق ، ماهرا فى التدريس ، يشجع طلبته على حفظ القرآن ، ودراسة الحديث ، ويرغبهم فيهما ، ويختارلهم من الشعر أعفه وأحسنه ، بحيث يجيدون كل مادة ، ويقتدون بالحكماء فى حياتهم ، ويبتعدون عن النساء ، ويتفرغون للعلم والدراسة .

وصية هشام بن عبد الملك لمؤدب ابنه :

وقال هشام بن عبد الملك لسليمان الكلبي مؤدب ابنه . « إن ابني هذا هو جلدة ما بين عيني . وقد وليتك تأديبه ، فعليك بتقوى الله ، وأد الأمانة . وأول ما أوصيك به أن تأخذه بكتاب الله ، ثم روه من الشعر أحسنه ، ثم تخلل به في أحياء العرب ، فخذ من صالح شعرهم ، و بصره طرفا من الحلال والحرام،والخطب والمغازي » .

فهشام يقول لمؤدب ولده : إن ابني أعز شيء لدي ، وقد تركت لك تعليمه وتهذيبه . وقد وصاه بتقوى الله ، وأداء الأمانة ، فإن لصلاح المعلم أثرا في نفس المتعلم ، والرجل الصالح ينتفع بعلمه وتقواه . وأول وصية يوصي بها هشام العناية بالقرآن الكريم وحفظه ودراسته ، ثم رواية أحسن الشعر ، حتى يكسب ابنه ذوقا في الشعر ، يمكنه من أن يقدر ما فيه من روعة الأسلوب ، وجمال الخيال ، وصواب الفكرة ، ثم الرحيل معه ، والانتقال بين أحياء العرب ؛ ليروي عنهم أحسن الشعر ، ويتلقى منهم أجمله ، وتفهيمه ما أحله الله ، وما حرمه ؛ حتى يكون بصيرا بدينه ، ويعرف حلاله من حرامه ، فيفعل الأول ، ويجتنب الثاني . وشجعه على دراسة خطب الخطباء وحفظها ، والانتفاع بما فيها من حكم رائعة ، وآراء سديدة ، ونصائح ثمينة ، وأساليب بليغة ، ومعرفة مغزى كل خطبة ، وما يرمي إليه الخطيب من خطبته .

المتعلمون في نظر أبي نصر الفارابي :

وقال أبو نصر الفارابي[1] في رسالته في السياسة بعد ذكر المتعلمين ووجوب مراعاة استعدادهم :

(١) هو أبو نصر الفارابي ، ولد بمدينة فاراب من بلاد الترك ، سنة ٢٦٠ هـ و٩٤٩ م ، وتوفي بدمشق سنة ٣٣٩ هـ . وكان أبوه فارسي الأصل . والفارابي من أشهر فلاسفة =

« منهم أولو الطبائع الرديئة يقصدون تعلم العلوم ليستعملوها فى الشرور ، فينبغى للمرء أن يحملهم على تهذيب الأخلاق ، ولا يعلمهم شيئا من العلوم التى إذا عرفوها استعملوها فيما لا يحب . ومنهم البلداء الذين لا يرجى ذكاؤهم وبراعتهم ، فينبغى أن يحثهم على ماهو أعود عليهم . ومنهم المتعلمون ذوو الأخلاق الطاهرة ، والطبائع الجيدة ، فيجب ألا يدخر عنهم شيئا مما عنده من العلوم . »

فالفارابى ينصح بتهذيب الأشرار ، والعناية بهم من جهة التربية الخلقية ، وحث البلداء على العمل والاجتهاد والمثابرة ، ومنح ذوى الأخلاق الكريمة أكبر قسط من العلوم والمعارف ، بحيث يعطى كل تلميذ على حسب مستواه .

وذكر فى رسالته : « فيما ينبغى أن يقدم قبل تعلم الفلسفة » أن يبدأ بعلم إصلاح الأخلاق ، وذلك أن من لم يصلح أخلاق نفسه لا يمكنه أن يتعلم علما صحيحا ، والشاهد على ذلك أفلاطون فى قوله : « إن من لم يكن نقيا زكيا فلا يدنو من نقى زكى . »

ويرى الفارابى أن إصلاح الأخلاق لا يكون بالقول فقط ، بل بالأفعال أيضا . وبعد إصلاح النفس الشهوانية يجب إصلاح النفس الناطقة ، بمعنى أنه يجب أن نعنى بالأخلاق العملية ، قبل أن نعنى بالأخلاق النظرية . وقد أجاد الفارابى فى ذلك أيما إجادة ، وإن رأيه يتفق مع آراء فلاسفة الأخلاق ، وعلماء التربية فى القرن العشرين .

= الإسلام ، له مؤلفات كثيرة كتبها فى رسائل قصيرة فى الفلسفة والتربية وعلم النفس والمنطق ، والموسيقا ، والعلوم الرياضية ، والحكمة .

وله رسالة السياسة ، وقد نشرتها مجلة الشرق الكاثوليكية فى سنتها الرابعة ، بدار الكتب ، رقم ١١٤ مجلات .

آراء ابن سينا فى مراعاة الميول الفطرية عند اختيار المهنة فى الحياة :

وقد طالب ابن سينا[1] بمراعاة ميول الصبى واستعداداته الفطرية ، وقدراته الطبيعية عند إرشاده إلى المهنة التى يختارها فى مستقبل حياته لخدمة بلاده. حيث قال :

« ليس كل صناعة يرومها الصبى ممكنة له مؤاتية ، ولكن ما شاكل طبعه وناسبه . وإنه لو كانت الآداب والصناعات تجيب وتنقاد بالطلب والمرام دون المشاكلة والملاءمة ما كان أحد غفلا من الأدب ، وعاريا من صناعة ، وإذاً لأجمع الناس كلهم على اختيار أشرف الآداب ، وأرفع الصناعات . . . وربما نافر طباع الإنسان جميع الآداب والصناعات ، فلم يعلق منها بشىء . . . ولذلك ينبغى لمدبر الصبى إذا رام اختيار صناعة أن يزن أولا طبع الصبى ، ويسبر قريحته، ويختبر ذكاءه . فيختار له الصناعات بحسب ذلك » .

وهى نصيحة ثمينة لابن سينا ، ينصح فيها المربين ، من الآباء والمعلمين ، الذين يرومون اختيار صناعة من الصناعات ، لصبى من الصبيان ، أن يزنوا طبع الصبى أو ميله ويعرفوه ، ويختبروا قريحته وعقله وذكاءه . حتى يختاروا له من الصناعات ما يناسب ميله وعقله . وهذا رأى من أثمن الآراء فى التربية الحديثة . فهو يرى أن من الواجب البحث عما يناسب ميول الصبى وطباعه وغرائزه . ومراعاتها فى اختيار ما يرغب التخصص به فى المستقبل . فإذا أحب الدراسة العقلية أو العلمية أرشد إليها ، وأعطى الفرصة فى دراسة ما يريد . وإذا رغب فى الناحية العملية شجع عليها ، وإذا كان يميل إلى الدراسة الأدبية وجه إليها . وهذا ما ننادى به اليوم فى عالم التربية .

---

(١) فى كتاب السياسة ، وابن سينا : طبيب عربى ، وفيلسوف إسلامى ، وعالم نفسانى (٣٧٠ هـ — ٤٢٨ هـ) .

فمن كان يميل بطبيعته إلى العلوم الرياضية لايمكنه أن يفوق فى الدراسة الأدبية ، وليس من السهل أن يظهر المتعلم التفوق والنبوغ والمهارة فى كل مادة يدرسها ، ولكنه يستطيع أن يفوق وينبغ ويكون ماهرا فى المواد التى يحبها ويميل إلى دراستها ، أما المواد التى يكرهها وينفر منها فمن المحال أن يتفوق فيها، فكل متعلم ميسر لما خلق له . وهذا مايريده ابن سينا بقوله : « وربما نافر طباع الإنسان جميع الآداب والصناعات ، فلم يعلق منها بشىء . » ولو كان من السهل أن يحقق المتعلم كل ماينبغى لكان أديباً أو عالماً أو رياضياً ، أو طبيباً كما أراد، ولكن ميول الشخص وذكاءه وعقليته هى التى تتحكم فى فوزه أو خيبته ، وتؤثر فى نجاحه أو إخفاقه .

ابن سينا يعالج المرضى بالتحليل النفسى :

وقد كان لابن سينا صيت ذائع فى علاج المرضى بطريقة التحليل النفسى التى ينادى بها علماء النفس فى القرن العشرين . ومما يؤثر عنه : أن رجلا أصيب بالماليخوليا قد أخذ منه المرض كل مأخذ . حتى وصلت به الحال إلى أن كان يعتقد أنه قد أصبح بقرة . وقد امتنع عن الطعام والشراب مع بنى الإنسان، وأصبح يقلد الأبقار فى خوارها . ويحب تعهد أمكنتها ، والأكل معها .ومازال كذلك حتى خارت قواه ، وضعف جسمه .

فعرضه ذووه على الأطباء ، فعجزوا عن علاجه . وكان ابن سينا — إذذاك مشهورا بمهارته فى التطبيب النفسى، وعلاج مرضى العقول ، فلم يكن هناك مفر من استدعائه لمعالجة هذا المريض . فلما حضر أمر بإحضار المريض أمامه . فلما مثل بين يديه ، قال له ابن سينا : مابالك ؟ وما الذى حل بك ؟

وأجابه : لم يحل بى شىء سوى أننى أصبحت بقرة ؛ آكل ما تأكل البقر ، وأفعل ماتفعل .

فقال له ابن سينا : إذن نذبحك .

فقال : افعل ما تشاء .

فأمر ابن سينا بأن يقيد المريض بحبل ، ويلقى على الأرض . ويؤتى بسكين حاد . فلما أتى إليه بالسكين أخذه وأهوى على المريض . متظاهراً بأنه يريد ذبحه. فلما قرب من نحره والسكين في يده ، قال له: مابال هذه البقرة هزيلة ؟ إنها لا تصلح للذبح .

قال المريض : نعم ، إنها تصلح للذبح فاذبح .

فقال ابن سينا : لا ، لن أذبحها حتى تمتلئ لحما وشحما .

فقال المريض : وماذا أفعل حتى أصير سميناً ؟

فأجابه : تأكل (أكلا صحيا) ، وتشرب كما يأكل الناس ويشربون .

فقال المريض : أو تذبحني إذ فعلت ذلك وأصبحت سمينا ؟

فقال ابن سينا : نعم . ثم أخذ على نفسه العهود والمواثيق أن يفعل كما أمره وأخذ يأكل ويشرب في حال عادية ، فعادت إليه صحته الطبيعية ، وقوى جسمه ، فارتد إليه عقله ، وذهب عنه المرض .

ثم زاره ابن سينا بعد ذلك ، فلما رآه سليم الجسم والعقل ، قال : ما بال هذه البقرة قد سمنت ؟

فأجاب : نعم ، وقد أصبحت عاقلة .

وقد روى أنه عرض على ابن سينا أحد الأمراء ، وقد أعيا الأطباء أمره . فلما رآه وخاطبه في شأن مرضه تبين له أن مرضه هو الحب. ولم يشأ المريض أن يبوح باسم محبوبته . ولما علم ابن سينا أن شفاء المريض متوقف على معرفة محبوبته ، وإزالة ما عنده من وجدانات وعواطف كامنة مرتبطة بها ، أخذ على عاتقه أن

يعرف اسمها بأى وسيلة ؛ فأمر بإحضار أكبر سكان المدينة سنا . فلما حضر قال له: أتعرف شوارع هذه المدينة وسكانها ؟ قال : نعم ؛ فأمره بأن يذكر أسماء الشوارع شارعا شارعا ، وهو قابض على يد المريض ليتحقق من مقدار سرعة نبضه . فلما ذكر الرجل اسم أحد الشوارع أسرع نبض المريض . فأمر الرجل بأن يذكر أسماء الشوارع المتفرعة من هذا الشارع ، فلما أتى إلى اسم أحدها ازدادت سرعة النبض ثانية . فأمر الرجل أن يقص عليه أسماء البيوت الواقعة فى هذا الشارع الصغير ، فلاحظ ابن سينا ازدياد نبضه عند ذكر أحد البيوت، فقال له : أخبرنى عن أسماء سكان هذا البيت من الفتيات . فلما أتى اسم المحبوبة أسرع النبض .

فالتفت ابن سينا إلى المريض ، وقال له : أليست هذه محبوبتك ؟

فأجابه : نعم . و بالبحث علم أنها ابنة عمه ، وأن الشاب كان يحبها حبا جما ، ولم يجرؤ أن يذيع سره خوفا من أهله . ولكنهم لما علموا أن شفاءه فى التزوج بها زفوها إليه ، فبرئ من مرضه ، وعاد إلى حالته الطبيعية .

كيف نعامل التلاميذ فى نظر الغزالى ؟

وقال الغزالى (١) فى كتاب الإحياء (ج٣ . ص٥٢) من (كتاب رياضة النفس وتهذيب الأخلاق) ، مشيرا فى معاملة الأطفال إلى مراعاة أحوالهم وسنهم ، وأمزجتهم ومقدرتهم : « وكما أن الطبيب لو عالج جميع المرضى بعلاج واحد قتل أكثرهم ، كذلك المربى لو أشار على المريدين بنمط واحد من الرياضة أهلكهم ، وأمات قلوبهم . وإنما ينبغى أن ينظر فى مرض المريد وفى حاله ، وسنه ومزاجه ، وما تحتمله نفسه من الرياضة ، و يبنى على ذلك رياضته . »

---

(١) هو قدوة المربين ، وحجة المسلمين ، ولد سنة ٤٥٠ هـ . وتوفى سنة ٥٠٥ هـ . وفى كتابه : « إحياء علوم الدين » كثير من الآراء السديدة فى التربية والتعليم .

وهذا ما ينادى به علماء النفس والتربية اليوم ؛ من مراعاة مستوى الأطفال ومقدرتهم ، وميولهم وأمزجتهم . وفى صفحتى ٦٢ و ٦٣ من الجزء الثالث يقول: « اعلم أن الطريق فى رياضة الصبيان من أهم الأمور وأوكدها . والصبى أمانة عند والديه . . . فإن عوِّد الخير وعلمه نشأ عليه . . . وإن عوِّد الشر وأهمل إهمال البهائم شقى وهلك . . . (وإذا أخطأ) فإنه (ينبغى أن يعاتب سرا . ويقال له : . . . إياك وأن تعود بعد ذلك لمثل هذا . . . ولا تكثر القول عليه بالعتاب فى كل حين ؛ فإنه يهون عليه سماع الملامة ، وركوب القبائح ، ويسقط وقع الكلام من قلبه . وليكن الأب حافظا هيبة الكلام معه ، فلا يوبخه إلا أحيانا . . . (وينبغى أن) يعود فى بعض النهار المشى والحركة والرياضة ؛ حتى لا يغلب عليه الكسل . . . وينبغى أن يؤذن له بعد الانصراف من الكتاب أن يلعب لعباً جميلا يستريح إليه من تعب المكتب ، بحيث لا يتعب فى اللعب. وينبغى أن يعلم طاعة والديه ومعلمه ومؤدبه ، وكل من هو أكبر منه سناً من قريب وأجنبى » .

فالغزالى يرى أن تربية الأطفال من أهم الأمور ، وأن الصبى خلق قابلا للخير والشر جميعاً ، وإنما أبواه يميلان به إلى أحد الجانبين . قال صلى الله عليه وسلم: « كل مولود يولد على الفطرة ، وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه». وهو الرأى السائد بين علماء النفس والأخلاق. وينصح لنا بمعاتبته سرا إذا أخطأ ، وعدم الإكثار من العتاب ؛ كى يكون له أثر فى قلبه ، وألا نوبخه إلا أحيانا . ويرشدنا إلى تعويده المشى والحركة والرياضة البدنية ، واللعب الحر الخفيف الذى لا يؤدى إلى التعب ، وتعويده إطاعة مربيه ، وكل من هو أكبر منه سنا . وهذه كلها تعد أهم مبادئ التربية الحديثة التى تنادى بها الآن .

كيف تؤدب الطفل فى نظر ابن خلدون ؟

وقال ابن خلدون[1] فى المقدمة ، صفحة ٦١٩ : ، (فصل فى أن الشدة على المتعلمين مضرة بهم) : وذلك أن إرهاف الحد فى التعليم مضر بالمتعلم ، ولاسيما فى أصاغر الولد ، لأنه من سوء الملكة . ومن كان مرباه بالعسف والقهر من المتعلمين أو المماليك أو الخدم سطا به القهر ، وضيق على النفس فى انبساطها ، وذهب بنشاطها ، ودعا إلى الكسل ، وحمل على الكذب والخبث ، وهو التظاهر بغير ما فى ضميره ؛ خوفا من انبساط الأيدى بالقهر عليه ، وعلمه المكر والخديعة لذلك ، وصارت له هذه عادة وخلقا . . . فينبغى للمعلم فى متعلمه ، والوالد فى ولده ألا يستبدوا عليهم فى التأديب . . . »

وهو بهذا ينادى بأن الشدة والظلم والاستبداد فى معاملة الأطفال تضرهم كل الضرر ، وتؤدى إلى حزنهم ، وكسلهم ، وتحملهم على الكذب والخبث ، والمكر والخداع ، والتظاهر بغير ما فى الضمير ؛ حتى تصير عادة وخلقاً لهم . فينبغى أن نستعمل الحكمة والحزم ، والعطف والشفقة فى تربية الأطفال وتأديبهم .

عبد الرحمن بن الجوزى ومراعاة الاستعداد الفطرى لدى المتعلم :

وقد عنى عبد الرحمن بن الجوزى (المتوفى سنة ٥٩٧ هـ) كل العناية بتوضيح أهمية الاستعدادات الفطرية التى لدى الصبى ومراعاتها فى تربيته وتعليمه ، حيث قال : « إن الرياضة لاتصلح إلا فى نجيب ، والكودن[2] لاتنفعه الرياضة . والسبع — وإن ربى صغيرا — لا يترك الافتراس . » ومعنى هذا أن للذكاء

---

(١) هو كاتب قدير ، ومؤرخ كبير ، ولد سنة ٧٣٢ هـ ، وتوفى سنة ٨٠٨ هـ . وقد ذكر فى مقدمته كثيرا من الآراء السديدة فى التربية والتعليم

(٢) الكودن : الفرس الهجين والبغل والفيل والبرذون .

والغباوة أثرا كبيرا فى نجاح المتعلم أو إخفاقه فى الناحية العلمية ، وأن التحيب الذكى يصلح للرياضة ، ويستطيع أن يدرسها ، ويفوق فى دراستها ، وأن الكودن — وهو البليد الغبى — لاتنفعه الرياضة ، ولا يمكنه أن ينجح فى المواد التى تحتاج إلى نجابة وذكاء ، ولا يستطيع أن يفوق فيها . والسبع مفترس بفطرته ، ولن تحوله التربية من حيوان مفترس إلى حيوان مستأنس أليف ، هادئ وديع لا يضر أحدا ؛ لأن الطبع يغلب التطبع . قال الشاعر العربى :

إذا ما المرء لم يولد لبيبا فليس بنافع قدم الولاده

وهو يقصد بهذا أن الإنسان إذا لم يولد ذكيا ، فإن قدم الولادة أى كبر السن لن ينفعه ، ولن يؤثر فيه . و إذا رزق أحد الأثرياء طفلا فى منتهى الغباوة فلن يستطيع بثروته أن يحوله من غبى جدا إلى ذكى أو فائق الذكاء . فالذكاء ورأى ، وهو هبة فطرية من الله ، بها يستطيع الإنسان أن يحل ما يعترضه من المشكلات فى الحياة . فالذكى ذكى بفطرته ، والغبى غبى بطبيعته . والذكى وهو طفل ذكى وهو رجل ، والغبى فى طفولته غبى فى رجولته.

رأى الزرنوجى فى التعليم :

وقد أوصى الزرنوجى فى كتابه : « تعليم المتعلم » ألا يختار الطالب وحده المادة التى يريد أن يتخصص بدراستها ، بل يشترك معه المدرس بما أوتى من خبرة وتجربة فى اختيار مايلائمه من العلوم . وليس لدينا ما يمنع من أن يختار الطالب المواد التى يميل إليها ، مسترشدا برأى أستاذه فى الاختيار ، بشرط ألا تهمل ميول الطالب من الناحية العلمية .

وهذه الآراء كلها ثمينة ، تدل على عظمة — فلاسفة الإسلام ، وما كانت لديهم من أفكار ناضجة فى تربية الطفل ونفسيته ، والوراثة ، والاستعدادات الفطرية ، والميول الطبيعية ، فى وقت كانت العقول فيه مغلقة ، والآراء فجة.

وفى الختام أسأل الله الهداية والتوفيق ؟

المراجع العربية

(١) القرآن الكريم .

(٢) صحيح البخارى ومسلم .

(٣) العهد القديم .

(٤) العهد الجديد .

(٥) سيرة سيدنا محمد رسول الله المعروفة بسيرة ابن هشام لأبى محمد عبد الملك بن هشام .

(٦) السيرة النبوية لأستاذى الجليل المرحوم الشيخ محمد فخر الدين .

(٧) جامع البيان فى تفسير القرآن، لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى .

(٨) الطبقات الكبرى لمحمد بن سعد .

(٩) الملل والنحل لابن حزم .

(١٠) البداية والنهاية فى التاريخ ، لابن كثير الدمشقى .

(١١) تاريخ ابن خلدون .

(١٢) طبقات الأطباء ، لابن أبى أصيبعة .

(١٣) تاريخ الأمم الإسلامية للمرحوم الشيخ محمد الخضرى .

(١٤) محمد المثل الكامل للمرحوم التقى محمد أحمد جاد المولى .

(١٥) حياة محمد للمرحوم الدكتور محمد حسين هيكل .

(١٦) فجر الإسلام للمرحوم الأستاذ أحمد أمين .

(١٧) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، للعالم الهندى السيد أبى الحسن على الحسنى الندوى .

(١٨) المسلمون والإسلام للمرحوم الإمام الشيخ محمد عبده تحقيق الأستاذ طاهر الطناحى .

(١٩) عيون الأثر فى المغازى والشمائل والسير ، لأبى الفتح محمد بن محمد ابن سيد الناس اليعمرى .

المراجع الأجنبية

1 — The Spirit of Islam, by Sayed Amir Ali.

2 — The Preaching of Islam, by Thomas Arnold.

3 — Arabia before Mohammad, By O'leary.

4 — Life of Mohomet, by Washington Irving.

5 — Mohammad, by Margaliouth.

6 — Encyclopaedia Britannica, Article Mahomet.

7 — Life of Mohammad, by Sir William Muir.

8 — Heroes and Hero Worship, by Thomas Carlyle.

9 — Arabic Thought, by O'leary.

10 — History of Philosophy in Islam, by Boer.

11 — A Literary History of Persia, by Edward G. Browne.

12 — A Literary History of the Arabs, by A. Nicholson.

13 — The History of the Arabs, by P. Hitti.

14 — Arabic Literature, by H. Gibb.

فهرس الكتاب

الفصل الأول

روح الإسلام

الصفحة	الموضوع
٥	المقدمة
١٧	روح الإسلام
١٨	الإسلام دين الوفاء والعلم
١٩	الإسلام دين المحبة والإيثار والكمال
٢٢	روح الإسلام روح حرية وإخاء ومساواة
٢٢	الإسلام دين الحرية
٢٣	الإسلام دين الإخاء
٢٤	روح المساواة فى الإسلام
٢٨	الإسلام يدعو إلى الوحدة الشاملة وعدم التفرقة
٣٠	روح الإسلام [illegible]
٣٠	الإخلاص [illegible] والعلانية
٣٢	[illegible]
٣٣	الاقتصاد [illegible]
٣٣	العفو [illegible]
٣٤	[illegible]
٣٦	[illegible] روح الإسلام
٣٨	[illegible]

الفصل الثانى

الأخلاق الإسلامية تمثل روح الإسلام

الصفحة	الموضوع
٤١	الأخلاق الإسلامية تمثل روح الإسلام
٤١	وصية لقمان لابنه فى الأخلاق
٤٢	النهى عن الاستهزاء بالناس وسوء الظن
٤٣	حسن الخلق من المبادىء الإسلامية
٤٤	بر الوالدين والإحسان إلى الأقارب
٤٨	صلة الرحم
٤٩	[illegible]
٥٠	[illegible]
٥٦	أدب [illegible] الإسلام
٦٠	أدب [illegible] الإسلام
٦١	من آداب [illegible] الإسلام
٦٧	المثل العالية فى آداب الإسلام

الفصل الثالث

السلام روح الإسلام

الصفحة	الموضوع
٧٠	السلام روح الإسلام
٧٠	الدعوة إلى الإسلام
٧٣	مبادئ الإسلام فى إقرار السلام
٧٦	الإسلام يدعو إلى السلام
٧٦	لم تقم دعوة الإسلام على السيف
٨٢	المبادىء التى أقرها الإسلام لتوطيد أركان السلام
٨٣	الإسلام لم يرغم أحداً على الدخول فى طاعته
٨٥	بماذا نستدل على أن الإسلام لم ينتشر بالسيف ؟
٨٧	كان الرسول يحب السلم ويكره الحرب

الفصل الرابع

التسامح روح الإسلام

الصفحة	الموضوع
٨٩	الإسلام يدعو إلى التسامح
٩٠	العفو والصفح عمن يتوب إلى الله
٩١	لين الجانب
٩١	نبل المصطفى صلى الله عليه وسلم فى تسامحه .
٩٢	التسامح وحسن معاملة الأعداء فى الإسلام .
٩٥	الإنسانية فى الإسلام
٩٦	المساواة بين الذميين والمسلمين أكبر دليل على التسامح
٩٨	تسامح المسلمين
٩٩	تسامح صلاح الدين الأيوبى
١٠٣	الإسلام يدعو إلى حسن المعاملة
١٠٥	حسن المعاملة يكون بسبعة أشياء
١٠٦	ما يترتب على حسن المعاملة وسوئها .

الفصل الخامس

الإســلام يدعو إلى الحرية

الصفحة	الموضوع
١٠٧	الإسلام يدعو إلى الحرية
	الإسلام كفل الحرية الشخصية للأفراد
١٠٧	حرية الفرد
١٠٧	حرية المسكن
١٠٨	حرية التملك
١٠٩	الإسلام وحرية العقيدة
١١١	حرية البحث والتفكير فى تكوين العقيدة
١١٣	الإسلام وحرية الرأى والفكر
١١٥	الإسلام أطلق الحرية للعقول
١١٧	الإسلام وحرية التعلم
١١٨	الإسلام والحرية السياسية .
١١٩	الحرية المدنية
١١٩	أثر علماء المسلمين فى العلم والأدب والتأليف
١٢٢	الإســلام ضد الرق
١٢٣	الرق قبل الإســلام
١٢٣	الرق عند قدماء المصريين
١٢٣	الرق عند الآشوريين
١٢٣	الرق لدى العبريين
١٢٤	الرق عند الفرس
١٢٤	الرق عند الهنود القدماء
١٢٤	الرق عند الصينيين قديماً
١٢٥	الرق عند الاغريق القدماء
١٢٦	الرق لدى الرومان القدماء
١٢٨	الرق فى القرون الوسطى والعصور الحديثة
١٢٩	معاملة الأرقاء فى أمريكا قبل الرئيس (أبراهام لنكولن)
١٣٠	الاسترقاق فى الدين المسيحى والموسوى
١٣٢	الإسلام قد قضى على الاسترقاق
١٣٥	الإسلام يحرر الأرقاء
١٣٥	الحرية أثمن هبة من الله
١٣٩	نظام المكاتبة للتخلص من الرق
١٤٤	تعطف الإســلام على الأرقاء
١٤٥	كيف يعامل الإسلام الرقيق ؟
١٤٩	الإســلام لا يعترف بالتفرقة العنصرية

الفصل السادس

(الديمقراطية) الإســلامية

الصفحة	الموضوع
١٥٠	حقوق الإنسان وكيف كفلها الإسلام
١٥١	أسس الديمقراطية
١٥١	المشاورة فى الإسلام
١٥٣	الإسلام لا يقول بالوراثة فى الحكم
١٥٥	الإسلام ينادى بالديمقراطية
١٥٨	المصطفى يستشير أصحابه
١٦٣	الديمقراطية المثالية فى الإسلام
١٦٤	نظام الحكم فى الإسلام
١٦٥	الديمقراطية الإســلامية الحقة
١٦٦	استبداد أسرة محمد على فى مصر

الفصل السابع

العدالة فى الإسلام

الصفحة	الموضوع
١٦٩	العدالة فى الإسلام
١٦٩	كيف كان الناس قبيل البعثة المحمدية ؟
١٧١	تعريف العدالة والمساواة
١٧٢	العدالة روح الإسلام
١٧٣	الإسلام يأمر بالعدل وينهى عن الظلم
١٧٨	كتاب عمر بن الخطاب إلى معاوية فى العدالة
١٧٩	كتاب عمر بن الخطاب الى أبى موسى الأشعرى
١٨٠	عدالة عمر بن الخطاب
١٨٦	عدالة الإمام على كرم الله وجهه
١٨٨	عدالة المأمون
١٨٩	ما قاله عمر بن عبد العزيز فى القضاء
١٨٩	من همزية شوقى فى العدالة والمساواة
١٩٠	نداء إلى المسلمين للمرحوم الإمام الشيخ محمد عبده

الفصل الثامن

الإسلام دين المساواة

الصفحة	الموضوع
١٩٢	الإسلام دين المساواة
١٩٢	المساواة شعار إسلامى
١٩٤	المساواة بين الأفراد فى الإسلام
١٩٥	لا تفاوت بين الناس إلا بالعمل الصالح
١٩٨	مبدأ المساواة روح الإسلام
٢٠٠	الروح الديمقراطى والمساواة فى الإسلام
٢٠١	للذمى ما للمسلم من الحقوق
٢٠٣	المساواة فى الحقوق المدنية والسياسية
٢٠٤	الإنسانية الإسلامية فى معاملة الخدم مثل للمساواة

الفصل التاسع

التضامن والتعاون فى الإسلام أو الاشتراكية الإسلامية

الصفحة	الموضوع
٢٠٩	التضامن والتعاون فى الإسلام ، أو الاشتراكية الإسلامية
٢٠٩	التعاون على البر واجب إسلامى
٢١٢	التفكير فى شئون الرعية
٢١٣	التضامن الاجتماعى روح الإسلام
٢١٤	الأخوّة الحقة تتطلب التضامن فى الحياة
٢١٧	الوحدة قوة دونها كل قوة الإسلام يدعو إلى الوحدة والاتحاد
٢٢١	الوحدة بين المسلمين
٢٢٤	يد الله مع الجماعة
٢٢٧	من الأخلاق الإسلامية التعاون والمشاركة فى الشعور
٢٣٣	للفقراء حقوق على الأغنياء فى كل دين

الفصل العاشر

التكافل الاجتماعى فى الإسلام

الصفحة	الموضوع
٢٣٧	التكافل الاجتماعى فى الإسلام
٢٣٧	التكافل الاجتماعى
٢٤٢	الإخاء بين المهاجرين والأنصار
٢٤٥	الاشتراكية الإسلامية
٢٤٦	كيف يعامل الإسلام اليتامى والفقراء ؟
٢٥٠	المرأة الأرملة والصبى اليتيم
٢٥١	الإحسان وتنظيمه فى الإسلام
٢٥٤	اليد العليا خير من اليد السفلى
٢٥٥	تنظيم الإحسان
٢٥٥	غرس الروح الإنسانى فى الأمة
٢٦٠	إلى الأغنياء والفقراء
٢٦٢	الإسلام يدعو إلى العمل وكسب الرزق
٢٦٣	العمل أساس العمران
٢٦٣	بالعمل تنهض الأمم
٢٦٥	الإسلام يحارب الفقر بالعمل
٢٦٧	الإسلام دين عمل
٢٦٨	العمل فى الإسلام أسمى منزلة من الانقطاع إلى العبادة
٢٧٠	الميثاق الوطنى والعمل

الفصل الحادي عشر

الإسلام ينادى بالتربية والتعليم

الصفحة	الموضوع
٢٧٤	«علموا أولادكم فإنهم مخلوقون لزمان غير زمانكم»
٢٧٥	الرسول يشجع التعليم
٢٧٦	الخلفاء يجلون العلم والعلماء
٢٧٧	اطلبوا العلم ولو بالصين
٢٧٨	لماذا أمر الدين الإسلامى بالتعليم ؟
٢٧٩	بالتعليم نرفع مستوى الشعب
٢٨٠	أثر العلم والتربية فى الإسلام
٢٨٢	مآثر التربية الإسلامية
٢٨٣	أثر التربية الإسلامية فى النهوض بطرق التدريس
٢٨٤	كتب إسلامية فى التربية والتعليم
٢٨٥	الإسلام يدعو إلى التربية الاستقلالية؟
٢٨٨	كيف نصل إلى التربية الاستقلالية
٢٨٩	المعلم والمتعلم فى الإسلام
٢٩٠	الصفات التى يجب أن تتوافر فى المعلم
٢٩٠	الزهد والتعليم ابتغاء مرضاة الله
٢٩١	طهارة المعلم
٢٩١	الإخلاص فى العمل
٢٩١	الحلم
٢٩١	الهيبة والوقار
٢٩٢	يجب أن يكون المدرس أبا قبل أن يجب أن يتمكن المدرس من مادته
٢٩٤	المؤدب أو المدرس الخاص
٢٩٥	حقوق الطلبة وواجباتهم فى التربية الإسلامية
٢٩٧	مبادىء التربية الإسلامية عن المعلم والمتعلم
٢٩٧	الخلق الكامل أفضل من العلم
٢٩٧	تقديس العلم والعلماء
٢٩٧	العناية بتقوية الروابط الشخصية
٢٩٨	واجبات المعلم فى نظر الغزالى
٢٩٩	الإسلام والعناية بالطفولة
٣٠٠	الطفولة صانعة المستقبل
٣٠١	لأن يؤدب الرجل ولده خير له من أن يتصدق بصاع»
٣٠١	« أمرت أن أخاطب الناس على قدر عقولهم »
٣٠٢	أهمية الطفل والطفولة فى التربية الحديثة
٣٠٥	الإسلام والعناية بالتربية الصحية
٣١٥	آراء ابن سينا فى مراعاة الميول الفطرية
٣١٦	ابن سينا يعالج المرضى بالتحليل النفسى
٣١٨	كيف نعامل التلاميذ فى نظر الغزالى؟
٣٢٠	كيف نؤدب الطفل فى نظر ابن خلدون؟
٣٢٠	عبد الرحمن بن الجوزى ومراعاة الاستعداد الفطرى
٣٢٢	المراجع العربية
٣٢٤	المراجع الأجنبية
٣٢٥	فهرس الكتاب

كتب أخرى للمؤلف

(١) روح التربيـة والتعليم .

(٢) الاتجاهات الحديثة فى التربية .

(٣) التربية والحيـاة (نقد) .

(٤) جان جاك روسو وآراؤه فى التربية والتعليم (تحت الطبع) .

(٥) فى علم النفس ، ثلاثة أجزاء ، بالاشتراك .

(٦) الآداب الساميـة (نقد) .

[الناشر مكتبة عيسى البابى الحلبى بالقاهرة]

(٧) لغة العرب وكيف ننهض بهـا .

(٨) مكتبة التلميذ ، ١٠ كتب .

[النـاشر مكتبة النهضة المصرية
بشارع عدلى بالقاهرة]

(٩) الشخصيـة .

(١٠) قصص فى البطولة والوطنية .

(١١) أروع القصص لدكنز .

(١٢) قصص من الحيـاة لدكنز .

(١٣) قصص العظماء .

(١٤) المـكتبة الحديثة للأطفال ، ٥٠ كتاباً .

(١٥) المكتبة الخضراء ، ٧ كتب .

(١٦) أحسن القصص ، ثلاثة أجزاء ، بالاشتراك .

[الناشر دار المعارف شارع كورنيش النيل

(ماسبيرو القاهرة]

(١٧) مشكلاتنا الاجتماعية .

(١٨) أبطال الشرق .

[الناشر لجنة البيان العربي بالمنيرة بالقاهرة]

(١٩) المفصل فى اللغة السريانية وآدابها .

(٢٠) الأساس فى اللغة العبرية . بالاشتراك .

[طبعة وزارة التربية والتعليم]

(٢١) أصول التربية وقواعد التدريس .

(٢٢) مكتبة الطفل ، ٥٠ كتاباً.

(مكتبة مصر بالفجالة بالقاهرة]

(٢٣) الطرق الخاصة فى التربية لتدريس اللغة العربية والدين

(٢٤) الطفولة صانعة المستقبل (الميثاق) أو كيف نربى أطفالنا ؟

(٢٥) العلم شعار الثورة الثقافية (الميثاق) .

(٢٦) المكتبة الذهبية من أدب الأطفال ، ١٥ كتاباً .

(٢٧) روح الإسلام .

[مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد فريد بالقاهرة]

(٢٨) مشكلة التعليم الأولى بمصر (نفد) .

(٢٩) جان جاك روسو المصلح الاجتماعى (الدار القومية بشارع شريف بالقاهرة).

(٣٠) التربية الإسلامية مثالية (الدار القومية)

(٣١) العمل شرف . العمل حق (الدار القومية)

(٣٢) عظمة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم (دار القلم بشارع ٢٦ يوليو بالقاهرة) (تحت الطبع)

(٣٣) نظام التربية والتعليم بانجلترا (نفد) .

صواب الخطأ

سطر	صفحة	خطأ	صواب
١٦	٢٩	للسلمين	المسلمون
١٧	٢٩	المسلمون	المسلمين
٨	٧٩	فاعتدُوُا	فاعْتدُوا
١٤	١٠٣	إذهَبَا	اذهَبَا
٢	٢١٧	يدعوه	يدعو
١٠	٢٤٠	أولُو	أولُو
١٧	٢٦٥	فيحطتبَ	فيحتطبَ